تفسير

جزء تبارك

إعداد

سرحان بن غزاي العتيبي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله عدد ما خلق ، والحمد لله ملء ما خلق ، والحمد لله عدد ما في السموات وما في الأرض ، والحمد لله عدد ما أحصى كتابه ، والحمد لله ملء كل شيء ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادةً ندخرها ليومٍ لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله وخيرته من خلقه ، وأمينه على وحيه ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على هديه واقتفى أثره واستن بسنته إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً

أما بعد

ففي هذا اليوم المبارك يوم الجمعة الموافق (٣ / ٨ / ١٤٤١ هـــ) نشرع في تفسير (جزء تبارك) سائلين المولى جل وعلا أن يلهمنا الرشاد ، ويوفقنا للقول السداد ، ونسأله أن يصلح نياتنا ، ويرزقنا الإخلاص في القول والعمل ، ونسأله أن يتقبل منا ، وييسر لنا ، ويتم علينا ، إنه جواد كريم .

تفسير سورة الملك

سورة الملك مكية وآياتها ثلاثون .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إن سورةً من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غُفِرَ له وهي ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ رواه أحمد وأبو داود والترمذي وحسنه واللفظ له والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال صحيح الإسناد وحسنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٢٠٩١)

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : يؤتى الرجل في قبره فتؤتى رجلاه فتقول : ليس لكم على ما قبلي سبيل كان يقرأ سورة الملك ، ثم يؤتى من قبل صدره أو قال بطنه فيقول ليس لكم على ما قبلي سبيل كان يقرأ في سورة الملك ، ثم يؤتى من قبل رأسه فيقول ليس لكم على ما قبلي سبيل كان يقرأ في سورة الملك ، فهي المانعة تمنع عذاب القبر ، وهي في التوراة سورة الملك من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطيب

رواه الطبراني والحاكم ولفظه (وأطنب) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (١٤٧٥)

وعنه أيضاً : من قرأ تبارك الذي بيده الملك كل ليلة منعه الله عز وجل بها من عذاب القبر ، وكنا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم نسميها المانعة ، وإنها في كتاب الله عز وجل سورة من قرأ بها في كل ليلة فقد أكثر وأطاب . رواه النسائي والحاكم وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (١٥٨٩)

ومن أسماءها (سورة الملك ، وسورة تبارك ، والمانعة ، والمنجية ، والواقية ، والمجادلة) لأنها تجادل الملكان منكراً ونكيراً عن صاحبها في قبره وتقيه وتنجيه وتمنع عذاب القبر عنه .

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ﴾ قد اختلفوا في معنى تبارك فقال بن عباس : تعالى. وعنه : لم يزل ولا يزول . وقال الضحاك : تعاظم . وقال الخليل : تمجد . وقال الفراء وابن الأنباري : تقدس . وقال الأصمعي والمبرد : ارتفع ، والمتبارك : المرتفع .انتهى. وعلى هذا يكون صفة ذات .

وعن بن عباس : جاء بكل بركة . وقال الحسن : تجنى البركة من قبله . وقال الزجاج : تفاعل من البركة قال ومعنى البركة الكثرة في كل خير . وقال النحاس : دام وثبت إنعامه قال : وهذا أولاها في اللغة والاشتقاق من برك الشيء إذا ثبت ومنه برك الجمل والطير على الماء أي دام وثبت .انتهى. وعلى هذا يكون صفة فعل .

قال بن القيم : تفسير السلف يدور على هذين المعنيين وهما متلازمان ، لكن الأليق باللفظة معنى الوصف لا الفعل ، فإنه فعلٌ لازم مثل (تعالى وتقدس وتعاظم) ومثل هذه الألفاظ ليس معناها أنه جعل غيره عالياً ولا قدوساً ولا عظيماً ، هذا مما لا يحتمله اللفظ بوجه ، وإنما معناها في نفس من نسبت إليه فهو المتعالي المتقدس ، فكذلك تبارك لا يصح أن يكون معناها بارك في غيره ، وأين أحدهما من الآخر لفظاً ومعنى ، هذا لازمٌ وهذا متعدٍ . انتهى من بدائع الفوائد (٤١١/٢)

وقال الشنقيطي : الأظهر في معنى تبارك بحسب اللغة التي نزل بها القران أنه تفاعل من البركة كما جزم به ابن جرير الطبري وعليه فمعنى تبارك : تكاثرت البركات والخيرات من قبله ، وذلك يستلزم عظمته وتقدسه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله لأن من تأتي من قبله البركات والخيرات ويدر الأرزاق على الناس هو وحده المتفرد بالعظمة واستحقاق إخلاص العبادة له ، والذي لا تأتي من قبله بركةٌ ولا خيرٌ ولا رزقٌ كالأصنام وسائر المعبودات من دون الله لا يصح أن يعبد وعبادته كفرٌ مُخَلِدٌ في نار جهنم ، وقد أشار تعالى إلى هذا في قوله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ

وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ ﴾من (١٧) سورة العنكبوت وقوله تعالى ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ سورة النحل وَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾من (١٤) سورة الأنعام ... إلى أن قال . اعلم أن قوله تبارك فعلٌ جامد لا يتصرف فلا يأتي منه مضارع ولا مصدر ولا اسم فاعل ولا غير ذلك وهو مما يختص بالله تعالى فلا يقال لغيره تبارك . انتهى من تفسيره في أول سورة الفرقان .

وقال السعدي : أي : تعاظم وتعالى ، وكثر خيره ، وعم إحسانه . انتهى من تفسيره أول سورة الملك . وقال بن القيم : قال الحسين بن الفضل : تبارك في ذاته وبارك من شاء من خلقه . وهذا أحسن الأقوال . فتباركه سبحانه صفة ذاتٍ له ، وصفة فعل . جلاء الأفهام ص٣٠٦

فهذه ثلاثة أقوال : الأول / أنه صفة ذات . الثاني / أنه صفة فعل . الثالث / أنه صفة ذاتٍ وفعل .

والثالث أولى لأنه يجمع بين الأقوال ، ولأن فيه مزيد تعظيمٍ للرب جل وعلا ، ولاشك أن صفات الرب جل وعلا تجمع معاني الكمال ، فإذا قلنا أن هذه الصفة تدل على معنى العلو والعظمة والقدسية ، وتدل على تكاثر البركات والخيرات من قبله ، أولى من القول بأحدهما والبحث عن صفةٍ أخرى تدل على الوصف الآخر ، خاصةً وأن الوصف يحتمله المعنى في كلام السلف وعلماء اللغة الذين يفقهون معاني ألفاظ القران . ولذلك نلاحظ أن بن القيم قدمه في جلاء الأفهام وكان في البدائع يختار أنه صفة ذات .

ولا يقال هذا الوصف وهو (تبارك) إلا لله جل وعلا لاشتماله على صفات الذات من القدسية والعظمة والعلو ، واشتماله على صفات الفعل من الرزق ودوام الإنعام والإفضال على عباده .

كما لا يوصف الله بأنه (مُبَارَكْ) بل هذه صفة المخلوق الذي جعل الله فيه البركة ، وإنما يقال له (تبارك) لأن البركة كلها منه جل وعلا ، وهو الذي يجعل من عباده وخلقه من هو مُبَارَكْ .

لكن يمكن أن يخبر عن الله بأنه (مُبَارِكْ) فيقول (الله مُبَارِكٌ على فلان أو على كذا) فباب الخبر أوسع من باب الأسماء والصفات ، ويمكن أن يدعو الإنسان لشخصٍ فيقول مباركٌ عليكم أو بارك الله فيكم أو عليكم وهي بنفس المعنى فإن مبارك مفعول بارك (بارَكَ يُبَارِكُ مُبَارَكةً فهو مُبَارِكْ)

﴿ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ ملك كل شيءٍ بيد الله تعالى تحت سلطانه وأمره وتصرفه وتدبيره ، فهو الخالق وهو الآمر كما قال تعالى ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾من (٥٤) سورة الأعراف والملوك وما ملكوه مماليك لله جل وعلا كما قال

تعالى ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦ ﴾ سورة آل عمران

وقوله تعالى ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١ ﴾ أي أنه يتصرف في ملكه كيف يشاء لا يمنعه مانع ولا يعجزه شيء ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ﴾ الله جل وعلا خلق الموت والحياة لأمرٍ عظيم وهو الابتلاء والامتحان ليعلم أي الناس أحسن عملاً ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ٢ ﴾ فيعز أهل طاعته ، ويغفر لمن تاب من أهل معصيته . أو هو العزيز القوي المنتقم من أعدائه ، والغفور الذي يغفر لمن تاب من أوليائه .

وهنا مسألتان :

الأولى / لماذا قدَّم الموت على الحياة مع أن المتعارف عليه بين الناس أن الموت يكون بعد الحياة ؟

والثانية / لماذا قال ﴿ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ﴾ و لم يقل أكثر عملا ؟

والجواب عن الأولى / أن الموت قبل الحياة كما قال تعالى ﴿ كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٨ ﴾ سورة البقرة فمرحلة النطفة والعلقة والمضغة وما قبل مرحلة نفخ الروح هي مرحلة موت ، ثم لما نفخت الروح فيه أصبح حياً ، ويمكن أن تكون مرحلة الموت منذ أن قدَّر الله أنه سيوجد هذا الإنسان أو هذا المخلوق في هذه الحياة إلى أن نفخت فيه الروح . وهذا يفسر قوله تعالى ﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ١١ ﴾ سورة غافر موتة ما قبل نفخ الروح ، وموتة الخروج من الدنيا ، وحياة الخروج إلى الدنيا ، وحياة البعث فهما موتتان وحياتان ، ولا يخالف هذا قوله تعالى عن أهل الجنة ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰ ﴾ من (٥٦) سورة الدخان لأننا لم نذق طعم الموتة التي قبل نفخ الروح في الدنيا ، وإنما يذوق الناس ويقاسون موتة الخروج من الدنيا فإن لها سكراتٍ وفيها كربات ، فهي التي يخشى الناس منها ، ولذلك وعد الله أهل الجنة أنهم لا يذوقون شدة الموت مرةً ثانية بعد الموتة الأولى التي ذاقوا فيها الشدة .

والجواب عن الثانية / أنه ليس المطلوب كثرة العمل مع عدم إحسانه ، وإنما المطلوب إحسان العمل . ولا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله ، موافقاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكم من أقوامٍ

يعملون الليل والنهار فلا يُقْبَلُ منهم ، لأن أعمالهم لم تكن خالصةً لله بل رياءً وشركاً ، أو لم تكن على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بل بدعةً وضلالة .

وقيل﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أي يختبر الناس بموت القريب أو العزيز فيرى مدى صبرهم ورضاهم بقضائه وقدره ، ويختبرهم بإحياء قريبٍ أو عزيز كمريضٍ شفي بعد أن يأسوا منه أو مفقودٍ وجِدَ أو مولودٍ ولِدَ ونحو ذلك ليرى مدى شكرهم وثنائهم على ربهم بهذه النعمة .

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ طباقاً بعضها فوق بعض . قال أبان بن تغلب : سمعت بعض الاعراب يذم رجلاً فقال: شره طباق ، وخيره غير باق . ذكره القرطبي .

﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ أي لن ترى فيما خلق الرحمن في السماوات والأرض وغير ذلك تفاوتاً وقيل المراد لن ترى في السماوات خاصةً تفاوتاً أي تبايناً واختلافاً وتناقضاً واعوجاجاً بل هي مستوية مستقيمة . قال القرطبي : أصله من الفوت وهو أن يفوت شيءٌ شيئاً فيقع الخلل لقلة استوائها . انتهى. ويشهد بأن المراد السماوات خاصةً سياق الآية والآيات بعدها ، ولأن المخلوقات الأخرى فيها تفاوت إذا قلنا أن المراد بالتفاوت التباين والاختلاف في المخلوق نفسه ففي الإنسان مثلاً تباينٌ عظيم في عقولهم ومداركهم وأجسادهم وألوانهم وألسنتهم ومنهم المؤمن والكافر والسعيد والشقي والغني والفقير والرئيس والمرؤوس وغير ذلك والعلم عند الله تعالى .

قال الطبري : واختلفت القرّاء في قراءة ذلك فقرأته عامة قرّاء المدينة والبصرة وبعض الكوفيين﴿ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ بألف . وقرأ ذلك عامة قرّاء الكوفة (مِنْ تَفَوُّتٍ) بتشديد الواو بغير ألف . والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان معروفتان بمعنىً واحد ، كما قيل : ولا تُصَاعِرْ ، ولا تُصَعِّر . وتعهَّدت فلاناً ، وتعاهدته . وتظهَّرت ، وتظاهرت . وكذلك التفاوت والتفوّت. انتهى. وقال القرطبي : قراءة حمزة والكسائي (مِنْ تَفَوُّتٍ) بغير ألف مشددة. وهي قراءة ابن مسعود وأصحابه. الباقون﴿ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ بألف. وهما لغتان مثل التعاهد والتعهد ، والتحمل والتحامل ، والتظهر والتظاهر ، وتصاغر وتصغر ، وتضاعف وتضعف ، وتباعد وتبعد ، كله بمعنى . انتهى.

﴿ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾ ﴾ أعد النظر بتأملٍ واعتبار وتأكد هل ترى في السماء من شقوقٍ وصدوعٍ وخلل .

﴿ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴿٤﴾ ﴾ كرر التجربة مرةً بعد مرةٍ وابحث لعلك تجد تبايناً واختلافاً واعوجاجاً وشقوقاً وصدوعاً وخللاً ووهناً في السماوات ، لكن اعلم أنك مهما كررت فالنتيجة أنك لن تجد شيئاً من ذلك ، وسيرجع إليك بصرك ذليلاً صاغراً ، وهو متعبٌ كليل قد بلغ الغاية في الإعياء .

قال البغوي ﴿ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ ﴾ قال بن عباسٍ : مرةً بعد مرةٍ ﴿ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ ﴾ ينصرف ويرجع ﴿ خَاسِئًا ﴾ صاغرًا ذليلا مبعدًا لم يرَ ما يهوى ﴿ وَهُوَ حَسِيرٞ ﴾ كليلٌ منقطع لم يدرك ما طلب . انتهى.

وهذا يدل على بديع صنع الخالق واتقانه لخلقه ولذلك قال ﴿ وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ أي زينا السماء القريبة منكم من الدنو وهو القرب بالنجوم المضيئة وسميت النجوم مصابيح لأنها تضيء كالمصابيح التي تضيء للناس ﴿ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾ وجعلنا تلك النجوم رجوماً تُرْجَمُ بها الشياطين التي تسترق السمع وهي الشهب كما قال تعالى ﴿ وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ﴿١٨﴾ ﴾سورة الحجر وقال تعالى ﴿ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ﴿١٠﴾ ﴾سورة الصافات وفي سورة الجن ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡـَٰٔنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدًا ﴿٩﴾ ﴾ فإن قيل كيف تكون زينةً للسماء ورجوماً والرجوم تزول برجمها فلا تبقى للسماء زينةً ؟ وقد أجاب عن ذلك أبو علي كما نقله القرطبي عنه أنه قال : لا يسقط الكوكب نفسه إنما ينفصل منه شيء يرجم به من غير أن ينقص ضوئه ولا صورته . ونقل عن القشيري قوله : وأمثل من قول أبي علي أن نقول : هي زينةً قبل أن يرجم بها الشياطين . انتهى. وقول القشيري أولى ، فإن الله تعالى نسب الرجم إليها لا إلى ما ينفصل منها فقال ﴿ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾ وأما قولهم أنها تزول فلا تبقى للسماء زينة فهو قولٌ باطل فإن أعداد النجوم أكثر من أن يفنيها الرجم ، والله يخلق ما يشاء ، وإن قصدوا أن المرجوم نفسه يذهب فهذا صحيح لكنه لا يُنْقِصُ من الأعداد التي جعلها الله زينةً للسماء شيئاً . وقد زعمت بعض الإحصائيات الفضائية أنه تم رصد عدد مائة مليار مجرة في السماء كل مجرة فيها أكثر من مائة مليار نجم وقيل أن في مجرة درب التبانة وحدها من مائة إلى ثلاث مائة مليار نجم ، وهذه المجرات والنجوم في تكاثرٍ مستمر ناتج من

اتحاد ذرات الغبار مع ذرات الغاز (الهيدروجين والهليوم) بفعل الجاذبية . ونحن نقول إن صدقتم فهذه أسباب والخالق هو الله وحده كما ينتج الإنسان من اتحاد ماء الرجل مع ماء المرأة بفعل الجماع فيسقط الحيوان المنوي في البويضة فيلقحها فيتكون من ذلك إنسان على مراحل معروفة ، والله وحده هو الذي خلق ذلك وقدَّره ، فكذلك تكوّن النجوم ، والمقصود أن الرجم على الشياطين لا يغير من تركيبة النجوم التي هي زينةً للسماء شيئاً ، على أن هناك نجوماً لا يرجم بها ولا تتغير وهي الكواكب العظيمة كالمريخ وزحل وكذلك الأبراج التي يستدل بها على معرفة الأماكن والأوقات كسهيل والجدي والثريا ونحو ذلك .

تنبيه : قال قتادة رحمه الله : خلق الله هذه النجوم لثلاث : زينةً للسماء ورجوماً للشياطين ، وعلاماتٍ يُهْتدى بها ، فمن تأول فيها بغير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به . رواه البخاري

ففي هذه الآية ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾ أمران : الزينة والرجم وفي قوله تعالى ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ سورة النحل الاهتداء ، وهو يشمل الاهتداء المكاني والاهتداء الزماني فالأول بتحديد الجهات فالجدي في الشمال وسهيل في الجنوب ونحو ذلك فإذا عرفت الجهة استطعت أن تحدد وجهتك ومكانك . والاهتداء الزماني بمعرفة الأوقات كأوقات الحر والبرد والزرع ونحو ذلك .

وقد قال أهل العلم إن علم التنجيم ينقسم إلى قسمين :

الأول / علم التسيير : وهو ما يستدل به على الأوقات والجهات كمجيء الحر والبرد ، ومتى يزيد الماء في الآبار ومتى ينقص ، فإذا طلع المرزم مثلاً قلَّ الماء في الآبار والعيون ، وإذا طلع سهيل عاد وكثر ، وكمعرفة الشمال بالجدي وهو القطب الشمالي ، ومعرفة الجنوب بسهيل وهو القطب الجنوبي ، ومعرفة أوقات الزرع وجني الثمار ونحو ذلك ، فهذا العلم جائز قال تعالى﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ سورة النحل أي لمعرفة الأوقات والجهات ، وليس هذا من ادعاء علم الغيب فإن أهل الأرصاد الجوي مثلاً يبنون توقعاتهم على أمورٍ حسية كمسار الرياح والغيوم ونحو ذلك مما يسهل مراقبته عن طريق الأقمار الاصطناعية ، وهكذا توقعاتهم بخروج نجمٍ كمذنب هالي أو اصطدام نجمٍ بآخر أو حدوث كسوفٍ أو خسوف أو غير ذلك مما يمكن معرفته عن طريق مراقبة مسارات النجوم وزوايا انحرافها ونحو ذلك فيتوقعون أن نجماً سيصطدم بآخر بعد كذا وكذا من الزمن بناءً على سرعة سيرهما وتواجههما في مسارٍ واحد وأن نجماً سيراه أهل

الأرض بعد كذا وكذا بناء على سرعة مساره وزاوية انحرافه باتجاه الأرض وهكذا ، فكل علمٍ يمكن معرفته بالحس ولا يعتمد فيه على الشياطين فهو من علم التسيير المباح ولذا قال السفاريني في عقيدته :

فكل معلومٍ بحسٍ أو حجا فنكره جهلٌ قبيحٌ بالهجا

الثاني / علم التأثير : وهو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية فيقولون إذا طلع النجم الفلاني فسيكون زلازل وحروب ونحو ذلك ، وإذا طلع النجم الفلاني فسيكون أمانٌ واطمئنان ، وهكذا إذا كانت ولادتك في البرج الفلاني فستكون سعيداً في حياتك ذو ثراء ، وإذا كانت في البرج الفلاني فستكون تعيساً ذو فقرٍ وحاجة ، وهكذا يستدلون بها على أمورٍ غيبية فهذا كله كذبٌ ودجل قال تعالى ﴿ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ سورة النمل وهذا العلم محرم ، وادعاء علم الغيب وتصديق من ادعى ذلك ، كله كفرٌ أكبر ، لتكذيبهم لكلام الله جل وعلا في أن الغيب من خصائصه جل وعلا . قال محمد بن كعب : والله ما لاحدٍ من أهل الأرض في السماء نجم ، ولكنهم يتخذون الكهانة سبيلاً ويتخذون النجوم علة . ذكره القرطبي في تفسيره .

وذكر الشيخ محمد العثيمين رحمه الله أن علم النجوم على أربعة أقسام :

الأول / أن يعتقد أنها تؤثر بذاتها في الحوادث الأرضية العامة كالزلازل والبراكين أو الخاصة كالسعادة والشقاوة والربح والخسارة فهذا كله كفرٌ أكبر مخرج من الملة .

الثاني / أنها لا تؤثر بذاتها لكنها سببٌ لهذه الحوادث فهذا كفرٌ أصغر .

الثالث / أن يستدل بها على الفصول وأوقات البذر والحصاد ونحو ذلك فهذا جائز .

الرابع / أن يستدل بها على جهة القبلة ومعرفة أوقات الصلوات ونحو ذلك فهذه مشروعة وقد تكون فرض كفايةٍ أو فرض عين . (القول المفيد ١/٥٥٠)

﴿ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ ﴾ أي أعددنا وجهزنا للشياطين الذين يسترقون السمع أو لجملة الشياطين عذاب النار التي تستعر من شدة توقدها .

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ وأيضاً أعددنا وجهزنا للذين كفروا بربهم أي كفروا بالله جل وعلا الذي هو رب العالمين حقاً مؤمنهم وكافرهم .

﴿ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ جهنم اسمٌ للنار التي يعذب الله بها من يستحق العذاب من عبيده في الآخرة ، فهي مكان العذاب ، والعذاب في داخلها ، قال عليه الصلاة والسلام (يؤتى بجهنم يوم القيامة لها سبعون ألف زمامٍ مع كل زمامٍ سبعون ألف ملكٍ يجرونها) وإعدادها يدل على أن الأمور التي يُعَذَبُ بها من يستحق العذاب كالسلاسل والأغلال والضريع والزقوم والزمهرير ونحو ذلك مما جاء أنه يعذب به الكفار أنه قد أُعِدَ وَجُهِّزَ وقيل سميت جهنم لبعد قعرها والعرب تقول بئر جهنم وجِهنام أي بعيدة القعر ذكره في لسان العرب .

﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ ﴾ بئس المرجع والمنقلب من كان منقلبه النار .

﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا ﴾ إذا ألقي الكفار في النار سمعوا لها أصواتاً منكرةً مخيفة . قال السعدي : صوتًا عاليًا فظيعًا . انتهى. وقال بن جريج : صياحاً . وروي عن بن عباسٍ أنه قال : تشهق إليهم شهقة البغلة للشعير ثم تزفر زفرةً لا يبقى أحدٌ إلا خاف . وقال بن جرير : الشهيق هو الصوت الذي يخرج من الجوف بشدّة كصوت الحمار. انتهى. وقال بعض أهل العربية أن الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمار من النهيق. والشهيق : بمنزلة آخره . وقال البغوي : الشهيق هو أول نهيق الحمار . انتهى. وروى عن الربيع بن أنس أن الزفير في الحلق ، والشهيق في الصدر . انتهى . والمقصود أنها تحدثاً أصواتاً منكرةً ولذلك فسره بعض السلف بصوت الحمار لقوله تعالى ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ من (١٩) سورة لقمان

﴿ وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ ﴾ أي تغلي من شدة الحرارة . قال مجاهد : تغلي كما يغلي القدر. ذكره الطبري في تفسيره وعنه : تفور بهم كما يفور الحب القليل في الماء الكثير . ذكره السيوطي في الدر المنثور .

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ أي تتقطع وتتمزق وتتفرق من شدة الغضب والحنق على الكفار. قال بن عباس والضحاك وبن زيد ﴿ تَمَيَّزُ ﴾ تتفرق. وعن بن عباسٍ : يفارق بعضها بعضاً وتنفطر . وقال سعيد بن جبير: تتقطع وينفصل بعضها من بعض . وقال بن زيد ﴿ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ على أهل معاصي الله غضباً لله وانتقاماً له .

﴿ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ ﴾ كلما ألقي في النار جماعة من الكفار سألهم خزنة النار سؤال توبيخ وتقريع ﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨ ﴾ رسول ينذركم هذا العذاب ويحذركم منه .

فأجابوا ﴿ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ٩ ﴾ بلى لكننا كذبناهم وأنكرنا دعوتهم وما جاءوا به واتهمناهم بالضلال الكبير .

﴿ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠ ﴾ وقالوا بلسان النادم المتحسر لو كنا نسمع سمع من يطلب الحق أو كانت لنا عقولٌ ندرك بها الحقيقة التي جاء بها الرسل ما كنا من أهل النار . قال ابن عباس : لو كنا نسمع الهدى أو نعقله فنعمل به . وقال الزجاج : لو كنا نسمع سمع من يعي ويتفكر أو نعقل عقل من يميز وينظر ما كنا من أهل النار. ذكره البغوي . وقال الطبري : لو كنا نسمع من النذر ما جاءونا به من النصيحة ، أو نعقل عنهم ما كانوا يدعوننا إليه ، ما كنا اليوم ﴿ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ انتهى.

﴿ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ ﴾ اعترفوا بذنبهم في وقتٍ لا ينفعهم فيه الاعتراف والندم ولذلك قال الله ﴿ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١١ ﴾ أي بعداً لهم يعني عن رحمة الله إذ كان بإمكانهم الاعتراف بالذنب والندم والتوبة في الدنيا في وقت قبول التوبة ، ولكنهم أعرضوا واستكبروا حتى رأوا العذاب في الآخرة فلا تنفعهم التوبة حينئذٍ لأن الله قد حد للتوبة حداً تقبل فيه ثم لا تقبل بعده وهي الحياة الدنيا قبل غرغرة الروح بالموت أو طلوع الشمس من مغربها وبعد ذلك لن تنفع توبة ولا ندم .

وعن سعيد بن جبير قال : سحقاً وادٍ في جهنم . ذكره الطبري ورجح الأول .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢ ﴾ يخشون الله جل وعلا وهم لم يروه . وقيل يخشون الله وهم غائبون عن أعين الناس . وقيل يخشون عذاب الله وهم لم يرو العذاب . والمعنى يشمل ذلك فإن خشية الله تتضمن الخوف من عذابه وتتضمن الخشية منه في الغيب والشهادة ، فمن يظهر الخشية والخوف من الله أمام الناس ، وإذا غاب عن أعين الناس لم يخش الله وفعل ما فعل ، فليس في قلبه خشية في الحقيقة . ومناسبتها لما قبلها من الآيات أنه لما ذكر أن الكفار الذين لم يخشوا عذاب الله و لم يؤمنوا به حتى رأوا النار في الدار الآخرة فلم ينفعهم ذلك . ناسب أن يذكر أن المؤمنين الذين يخشون الله وعذابه وهم في الدنيا قبل أن يرو العذاب رؤيا العين أن ذلك ينفعهم ، فلهم مغفرةٌ للسيئات التي عملوها ، ولهم أجرٌ مضاعف على

الحسنات التي عملوها . فشتان بين الفريقين . قال القرطبي : أي يخافون الله ويخافون عذابه الذي هو بالغيب وهو عذاب يوم القيامة. ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ وهو الجنة. انتهى. وقال بن كثير : يقول تعالى مخبرًا عمن يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه إذا كان غائبًا عن الناس ، فينكف عن المعاصي ويقوم بالطاعات حيث لا يراه أحد إلا الله ، بأنه له مغفرة وأجر كبير ، أي: يكفر عنه ذنوبه ، ويجازى بالثواب الجزيل . انتهى .

﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ ﴾ أي سواءً كان ما تقولونه سراً لخاصتكم أو بصوتٍ خفي أو جهراً أمام الملأ أو بصوتٍ مرتفع ، فالله مطلعٌ عليه لا يخفى عليه منه شيء ، فإنه عليم بما تكنونه في صدوركم قبل أن تتحدثوا به فكيف لا يعلم ما تسرون به من حديثكم أو تجهرون به . وقيل إنها نزلت في المشركين كانوا ينالون من النبي صلي الله عليه وسلم فيخبره جبريل عليه السلام ، فقال بعضهم لبعض : أسروا قولكم كي لا يسمع رب محمد ، فنزلت ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ﴾ ذكره القرطبي عن بن عباسٍ رضي الله عنهما .

وصيغة فعيل تدل على المبالغة فلم يقل عالم وإنما عليم ، فالله تعالى يعلم كل شيءٍ خفي أو ظهر ، بل يعلمه قبل وقوعه ، فإنه يعلم الخواطر والأفكار في الصدر قبل وقوعها فيه ، وبعد الوقوع قبل العزم عليها ، وبعد العزم قبل التحدث بها ، وبعد التحدث قبل الجهر بها ، وهو تعالى يعلم ما كان وما سيكون كيف يكون فإن كلما يقع في الكون قد قدَّره الله وكتبه في اللوح المحفوظ لا يكون شيء إلا بأمره وقدره .

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ الله خالق العباد فكيف لا يعلم ما يجهر به عباده وما يسرون به . وقيل المراد أن الله خلق السر والجهر كما قال تعالى ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾سورة الصافات والآية تشمل ذلك فإن الله خالق كل شيء ، والمعنى كيف يخفى على الخالق خَلْقُهُ الذي خَلَقَ . فإنه من المعروف أن الصانع أعلم بصنعته من غيره بل هو أعلم بالصنعة من الصنعة بنفسها ، فكذلك الله وله المثل الأعلى هو أعلم بمخلوقاته من مخلوقاته بأنفسها ، ثم أكد ذلك أيضاً ببعض أسمائه الدالة على صفات الكمال فقال ﴿ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ ومن معاني اللطيف مع اللطف والرفق أي الذي شمل علمه الخفايا وبواطن الأمور فلا يغيب عن علمه وقدرته شيءٌ مهما خفي أو صغر ، وكذلك الخبير ، ولذلك جمع بينهما لقمان الحكيم لَّما أراد أن يبين لابنه أن الله لا يخفى عليه شيء مهما خفي أو صَغُر فقال﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ

خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴾ سورة لقمان فمن كانت هذه صفاته فكيف يخفى عليه أمركم .

﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا ﴾ امتن الله على عباده بأن جعل لهم الأرض ذلولاً من التذليل وهو الانقياد يقال : دابة ذَلُولٌ إذا كانت سهلةَ الرُّكوب ، تنقاد لصاحبها ولا تمتنع عليه فيما يريدُها. والمعنى أن الله جعل الأرض سهلةً تستقرون عليها وتعيشون فيها وتسيرون على ظهرها طلباً للرزق ونحو ذلك ، لم يجعلها صعبة يمتنع العيش فيها أو السير على ظهرها كباقي الكواكب .

﴿ فَٱمْشُوا۟ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ أي سيروا في أطرافها ونواحيها وجوانبها وطرقها وفجاجها وتنعموا برزق الله جل وعلا الذي جعله فيها لكم ، وهذا يدل على أن الرزق يُبْحَثُ عنه ولا يأتي للقاعد المتواكل .

قال بن عباس ﴿ مَنَاكِبِهَا ﴾ أطرافها . وعنه : جبالها . وهو قول قتادة . وقال مجاهد : أطرافها وفجاجها . وعنه : طرقها وفجاجها . وقال الحسن : سبلها . وقال مقاتل وبن جرير الطبري : جوانبها ونواحيها . وقال الفراء : جوانبها . قال البغوي : والأصل في الكلمة الجانب ، ومنه منكب الرجل والريح النكباء وَتنكَّب فلان أي جانب . انتهى . وهو من اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد .

﴿ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ أي المرجع إلى الله حين تبعثون من قبوركم . فالنشر هو الإحياء والبعث من القبور كما قال تعالى ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ ﴾ سورة عبس أي أحياه وبعثه من قبره .

﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ يقول تعالى مهدداً الكفار : هل تأمنون الله جل وعلا الذي في السماء أي في العلو فكلما علاك فهو سماء كقوله تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ من (٩٩) سورة الأنعام أي من العلو . والله جل وعلا في العلو المطلق ليس فوقه شيء كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (وأنت الظاهر فليس فوقك شيء) رواه مسلم ومن معاني (في) الفوقية كقوله تعالى ﴿ فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ من (٣٦) سورة النحل أي فوقها . وكقول فرعون ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ سورة طه يعني فوقها وليس في داخلها . فالله جل وعلا فوق السماوات السبع مستوٍ على عرشه بائنٌ من خلقه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ من (١١) سورة الشورى

﴿ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ ﴾ تضطرب وتتحرك بكم حتى تدخلوا في باطنها كما فُعِلَ بقارون قال القرطبي : المور هو الاضطراب بالذهاب والمجيء ... وإذا خُسِفَ بإنسانٍ دارت به الأرض فهو المور . انتهى.

﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ أي هل تأمنون الله أن يعاقبكم على كفركم فيرسل عليكم ريحاً فيها حصباء تهلككم كالتي أُرْسِلَتْ على عادٍ وعلى قوم لوط حتى أهلكتهم ، وحينئذٍ ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ ﴾ أي تعلمون عاقبة إنذاري لكم وتخويفي إياكم . قال بن كثير : أي كيف يكون إنذاري وعاقبة من تخلف عنه وكذَّب به . انتهى. وقيل : النذير بمعنى المنذر . يعني محمداً صلي الله عليه وسلم أي ستعلمون صدقه وعاقبة تكذيبكم إياه .

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم الكافرة كقوم نوحٍ وعادٍ وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله . ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ ﴾ أي كيف كان إنكاري عليهم بأن أوقعت عليهم العذاب الشديد .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ أو لم ير هؤلاء المكذبين رؤية اعتبارٍ واتعاظ وتفكرٍ في بديع صنع الخالق فينظروا إلى الطير حين يطير فوقهم ، والطير جمع ومفردها طائر وجمع الجمع طيور ، ويجوز أن يقال للمفرد طير . قال بن منظور : الطير اسم لجماعة ما يطير والواحد طائر ... فأما الطيور فقد تكون جمع طائر كساجد وسجود ، وقد تكون جمع طير الذي هو اسمٌ للجمع ، وزعم قطرب أن الطير يقع للواحد ، قال بن سيده : ولا أدري كيف ذلك إلا أن يعني به المصدر ، وقرئ ﴿ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾من (٤٩) سورة آل عمران وقال ثعلب : الناس كلهم يقولون للواحد طائر وأبو عبيدة معهم ثم انفرد فأجاز أن يقال طير للواحد وجمعه على طيور ، قال الأزهري : وهو ثقة . الجوهري : الطائر جمعه طير مثل صاحِبٍ وصَحْبٍ وجمع الطير طيور وأطيار . انتهى من لسان العرب ، ومعنى صآفاتٍ أي باسطات أجنحتهن في الهواء ، ومعنى يقبضن أي يضممنها إلى جنوبهن أحياناً ، فهذه طريقة الطير في الطيران لكن من الذي يمسكه من الوقوع في الحقيقة : إنه الرحمن الذي وسعت رحمته الخلائق كلها ، فمن رحمته أن امسك هذه المخلوقات عن السقوط من العلو . قال قتادة ﴿ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾ الطَّائِرُ يَصُفُّ جَنَاحَيْهِ كَمَا رَأَيْتَ ثُمَّ يَقْبِضَهُمَا. وقال مجاهد : بَسْطُهُنَّ أَجْنِحَتَهُنَّ وَقَبْضُهُنَّ .

﴿ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ البصير من أسماء الله جل وعلا الحسنى ويتضمن صفة الإبصار أي الذي يرى ببصر ، وصفة البصيرة أي ذو الخبرة والاطلاع على بواطن الأمور . فالله جل في علاه هو البصير الذي أحاط بصره بكل شيء ، ولا تؤثر على رؤيته الحواجز والأستار ، وهو البصير ذو الخبرة والاطلاع على بواطن الأمور وظواهرها لا يخفى عليه شيء .

قال بن جرير : إن الله بكل شيء ذو بصرٍ وخبرة ، لا يدخل تدبيره خلل ، ولا يُرَى في خلقه تفاوت .انتهى.

﴿ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ قيل المعنى من هو الذي تتخذونه منعةً لكم يمنعكم من الرحمن إن أراد أن ينزل بكم عذابه ، وقيل أي من هو الذي اتخذتموه ناصراً ينصركم على أعدائكم غير الرحمن ، والأول أولى لأن الخطاب للكفار وهم أعداء الرحمن فلا يمكن أن ينصرهم .

﴿ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ أي في خداعٍ من الشيطان يغرهم بأن العذاب لا ينزل بهم . وقال الطبري : ما الكافرون بالله إلا في غرور من ظنهم أن آلهتهم تقرّبهم إلى الله زلفى ، وأنها تنفع أو تضر . انتهى

وأصل الغرور الخديعة والاطماع بالباطل ، يقال : غرَّ فلانٌ فلاناً أي خدعه وأطمعه بأمرٍ باطلٍ لا حقيقة له ويطلق على الشيطان الغَرُور لأنه يخدع أتباعه ويطمعهم فيما لا حقيقة له . ودار الغرور الدنيا سميت بذلك لأنها تخدع أهلها بزينتها فيظنون أنها كذلك أبداً وهي متقلبة زائلة . قال في المحكم : الغَرُور ما غَرّك من إنسان أو شيطانَ أو غيرهما ، وخص يعقوب به الشيطان . انتهى. وقال في المعجم الوسيط : الغرور كلما غر الإنسان من مال أو جاه أو شهوة أو إنسان أو شيطان . انتهى .

﴿ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ ﴾ أي من هو الذي يرزقكم غير الله إن حبس الله عنكم رزقه فهو سؤالٌ متضمنٌ للجواب أي لا أحد غير الله يستطيع أن يرزقكم ، فواجبٌ عليكم أن تفردوه بالعبادة وحده دون من سواه ، ولكن الكافرين في ضلالٍ وجحودٍ لنعم الله عليهم ولذا قال ﴿ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ ﴾ قال بن عباس : في ضلال . وقال مجاهد : في كفور . والمعنى بل استمرو في طغيانهم واستكبارهم وتباعدهم عن الحق والإيمان مع علمهم التام بأنه لا يجلب النصر والرزق إلا الله .

﴿ أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبّٗا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيّٗا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٢﴾ ﴾ شبه الله حال الكافر في حياته بحال من يمشي منكساً رأسه إلى أسفل لا يبصر ما أمامه أو عن يمينه أو عن شماله فهو لا يأمن العثور والانكباب على وجهه فربما سقط في بئرٍ أو استقبله عدوٌ من سبعٍ أو غيره وهو لا يشعر به ، وشبه حال المؤمن بحال الذي

يمشي سوياً معتدلاً يبصر طريقه ويعرف مسيره . فالكافر يتخبط في هذه الحياة لا يعرف الحق من الباطل ولا الهدى من الضلالة وأما المؤمن فهو يعرف الحق ويعمل به ويسير عليه بخطاً ثابتةٍ وعقيدةٍ راسخة ، فشتان بين الفريقين . وهذا السؤال يتضمن توجيهاً ربانياً لمن حاد عن الطريق المستقيم وضل عنه أن يرجع إليه ويسير عليه حتى يأمن على نفسه من الوقوع في الهلكة .

وقيل أن هذا يكون يوم القيامة فيحشر الكافر مكباً على وجهه قال قتادة : هو الكافر أكبّ على معاصي الله في الدنيا ، حشره الله يوم القيامة على وجهه . ذكره بن جرير . والمؤمن يمشي سوياً . والأول أولى لسياق الآيات قبلها وبعدها فإنها تتكلم عن أمورٍ في الدنيا والعلم عند الله تعالى .

ثم اطلعت على تفسير بن كثير فرأيته جمع بين القولين فقال : وهذا مثلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر ، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشي مُكبّا على وجهه ، أي يمشي منحنياً لا مستوياً على وجهه ، أي لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب؟ بل تائهٌ حائرٌ ضال ، أهذا أهدى ﴿ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا ﴾ أي منتصب القامة ﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي على طريق واضح بين ، وهو في نفسه مستقيم ، وطريقه مستقيمة. هذا مثلهم في الدنيا وكذلك يكونون في الآخرة. فالمؤمن يحشر يمشي سويًا على صراط مستقيمٍ مُفضٍ به إلى الجنة الفيحاء ، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم . انتهى . ولا شك أن الجمع بين القولين أولى من اطراح أحدهما .

﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ ﴾ أي خلقكم وأوجدكم من العدم . قال القرطبي : أمر الله نبيه أن يُعَرِّفُهُم قُبْحَ شركهم مع اعترافهم بأن الله خلقهم . انتهى ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الأفئدة القلوب أي أن الله خلق لكم أسماعاً تسمعون بها وأبصارنا تبصرون بها وقلوباً تعقلون بها ولكنكم لا تشكرون الله على هذه النعم فتشركون وتكفرون . قال القرطبي : أي لا تشكرون هذه النعم ، ولا توحدون الله تعالى. تقول : قلما أفعل كذا ، أي لا أفعله . انتهى. وقال الطبراني : قُل لَهم يا مُحَمَّدُ : هو الذي خلَقَكم وخلقَ لكم السمعَ فاستمعوا إلى الحقِّ ، والأبصارَ فأبصِرُوا بها الحقَّ ، والأفئدةَ فاعلَمُوا بها الحقَّ . انتهى.

﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي خلقكم وبثكم وفرقكم في الأرض ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أي تجمعون للحساب والجزاء . قال القرطبي : قال بن عباس ﴿ ذَرَأَكُمْ ﴾ خلقكم . وقال بن شجرة : نشركم فيها وفرقكم على ظهرها .انتهى. وقال الماوردي : فيه وجهان : أحدهما : خلقكم ، قاله الكلبي ويحيى بن سلام . الثاني :

نشركم ، قاله ابن شجرة .انتهى . وقال بن كثير : أي بثكم ونشركم في أقطار الأرض وأرجائها ، مع اختلاف ألسنتكم في لغاتكم وألوانكم وحلاكم وأشكالكم وصوركم ﴿ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ أي تجمعون بعد هذا التفرق والشتات ، يجمعكم كما فرَّقكم ، ويعيدكم كما بدأكم .انتهى . ونحوه قال السعدي . وقال القاسمي: خلقكم وبثكم بالتناسل فيها . انتهى . وقيل ﴿ ذَرَأَكُمۡ ﴾ أي كثَّركم ونماكم .

ولولا أن كثيراً من المفسرين قالوا معناها خلقكم ونقله بعضهم عن بن عباس والكلبي ويحي بن سلام وهو قول مقاتل وبن جرير والبغوي وغيرهم لما ذكرناه هاهنا لأن الآية التي قبلها ﴿ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ ﴾ أي خلقكم فينبغي أن يكون المراد ب ﴿ ذَرَأَكُمۡ ﴾ معنىً آخر وهو البث والنشر والتفريق في الأرض ليكون أكثر في تعداد نعم المنعم جل وعلا على عباده بخلاف ما لو كانا على نفس المعنى ، والعلم عند الله تعالى .

ولقد أنكر المشركون أن الله يبعثهم بعد موتهم ، ويجمعهم عنده للحساب والجزاء ، وقالوا باستكبارٍ واستبعاد ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ فكان الجواب من الله جل وعلا ﴿ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٢٦ ﴾ أي ليس عندي علمٌ بوقت ذلك ولست مكلفاً به ، إنما كلفت بالنذارة لكم وتحذيركم من الخسران في ذلك اليوم . وقيل﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ ﴾ أي متى هذا العذاب الذي تتوعدنا به في الدنيا . قاله مقاتل ، يعني في قوله تعالى﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦ ﴾ويمكن الجمع بينهما بأنهم يسألون عن يوم القيامة يوم الحشر ، ويسألون عن وقت العذاب في الدنيا ، تكذيباً وعناداً واستكباراً عن الإيمان بالله .

﴿ فَلَمَّا رَأَوۡهُ زُلۡفَةٗ ﴾ فلمَّا رأى هؤلاء الكفار العذاب في الدنيا رؤيا العين قريباً وحضرهم عذاب الله ، أو لَّما بُعِثُوا وعاينوا القيامة ورأوا النار وعلموا أنهم صائرون إليها كما قال تعالى ﴿ وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا ٥٣ ﴾ سورة الكهف قال القرطبي : وأكثر المفسرين على أن المعنى : فلما رأوه يعني العذاب ، وهو عذاب الآخرة . وقال مجاهد : يعني عذاب بدر. وقيل : أي رأوا ما وعدوا من الحشر قريباً منهم ودل عليه﴿ تُحۡشَرُونَ ﴾ وقال ابن عباس : لما رأوا عملهم السيئ قريباً. انتهى. وقال الطبري : قال الحسن ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡهُ زُلۡفَةٗ ﴾ لَّما عاينوه . وقال مجاهد : قد اقترب . وقال بن زيد : قيل: الزلفة حاضر قد حضرهم عذاب الله عزّ وجلّ . انتهى.

فحينئذٍ ﴿ سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ قال قتادة : سيئت وجوههم حين عاينوا من عذاب الله وخزيه ما عاينوا . وقال الزجاج : تبين فيها السوء أي ساءهم ذلك العذاب وظهر على وجوههم سمة تدل على كفرهم كقوله تعالى﴿ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ ﴾من (١٠٦) آل عمران . انتهى. وقيل : أي فُعِلَ بها السوء . قال الطبري: أي ساء الله بذلك وجوه الكافرين .انتهى.

﴿ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ويقال لهم هذا الذي كنتم تطلبون أن يعجل لكم تكذيباً واستكباراً. قال القرطبي : قال الفراء : تَدَّعُونَ تفتعلون من الدعاء وهو قول أكثر العلماء أي تتمنون وتسألون . وقال ابن عباس : تكذِّبون . وتأويله : هذا الذي كنتم من أجله تدَّعون الأباطيل والأحاديث قاله الزجاج. وقراءة العامة ﴿ تَدَّعُونَ ﴾ بالتشديد وتأويله ما ذكرناه. وقرأ قتادة وابن أبي إسحاق والضحاك ويعقوب (تَدْعُون) مخففة. قال قتادة هو قولهم﴿ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا ﴾ من (١٦) سورة ص وقال الضحاك هو قولهم ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾من (٣٢) سورة الأنفال وقال أبو العباس ﴿ تَدَّعُونَ ﴾ تستعجلون ، يقال : دعوت بكذا إذا طلبته ، وادعيت افتعلت منه. النحاس : تَدَّعُونَ وتدعون بمعنىً واحد كما يقال : قدر واقتدر ، وعدى واعتدى ، إلا أن في (أفتعل) معنى شيء بعد شيء ، و(فعل) يقع على القليل والكثير. انتهى .

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٨﴾ ﴾ قل يا محمد لهؤلاء الكفار الذين يتمنون هلاكك كما قال تعالى ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ﴿٣٠﴾ ﴾سورة الطور سواءً أهلكني الله أنا ومن معي من المؤمنين فأماتنا أو رحمنا فأطال في أعمارنا فليس ذلك يمنعكم من عذاب الله الأليم إذا جاءكم ، يعني لست أنا ومن معي من نأتيكم بالعذاب حتى تفرحوا بموتنا أو تحزنوا لبقائنا بل الله وحده هو الذي يأتيكم بالعذاب لا يمنعكم ولا يجيركم من عذابه أحد ، وعذابه مؤلمٌ شديد .

﴿ قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ قل لهم يا محمد إن ربنا هو الرحمن ذو الرحمة الواسعة صدقنا به وأفردناه بالعبادة. والإيمان : قولٌ باللسان ، واعتقادٌ بالجنان ، وعملٌ بالجوارح والأركان ، يزيد بالطاعة ، وينقص بالعصيان . ﴿ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَا ﴾ فوضنا أمورنا إليه وحده ثقةً واعتماداً ﴿ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٩﴾ ﴾ فستعلمون يوم ترون العذاب في الدنيا أو في الآخرة من هو الضآل منا نحن أم أنتم ؟ أي ستعلمون أنكم في ضلالٍ واضح .

ثم أمر الله نبيه أن يذكر لهم بعض مظاهر قدرة الله ونعمه على عباده فقال ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا ﴾ أي غائراً ذاهباً في باطن الأرض لا تستطيعون الوصول إليه . ﴿ فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ قريبٌ ظاهر تستطيعون الوصول إليه أو جارٍ على وجه الأرض . قال قتادة والضحاك ﴿ غَوْرًا ﴾ ذاهباً ﴿ مَّعِينٍ ﴾ جارٍ . وقال سعيد بن جبير ﴿ غَوْرًا ﴾ لا تناله الدلاء ﴿ مَّعِينٍ ﴾ ظاهر . والمعنى أي لا أحد غير الله يستطيع ذلك . فهو الذي أنعم على العباد بهذا الماء ، فهو الذي أنزل المطر ، وأجرى الأنهار ، وفجر العيون ، فلولا رحمة الله بعباده لما استطاعوا الوصول إلى الماء ولهلكوا ، ولكن الله رحمهم ، فوجب عليهم شكر المنعم جل وعلا وإفراده بالتوحيد .

من دروس سورة الملك :

أولاً / أن سورة تبارك تنجي صاحبها من عذاب القبر . وصاحبها هو الذي يقرأ بها كل ليلة كما جاء في الخبر الآخر عن بن مسعودٍ رضي الله عنه : من قرأ تبارك الذي بيده الملك كل ليلة منعه الله عز وجل بها من عذاب القبر .

ثانياً / أن الدنيا دار ابتلاءٍ وامتحان ، حيث يمتحن الله العباد ليرى من يحسن العمل للآخرة ممن يسيء العمل فالعبرة بحسن العمل لا بكثرته ، وإحسان العمل يكون بالإخلاص والمتابعة .

ثالثاً / بينت السورة بعض فوائد النجوم في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾ وأنها زينة للسماء ورجوماً للشياطين وبقيت فائدة في سورة النحل في قوله تعالى ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ فهذه ثلاثة أمورٍ لا رابع لها ولذلك قال قتادة رحمه الله : خلق الله هذه النجوم لثلاث : زينةً للسماء ورجوماً للشياطين ، وعلاماتٍ يُهْتدى بها ، فمن تأول فيها بغير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به . رواه البخاري وفي ذلك تكذيباً للمنجمين والكهان .

رابعاً / أنه لا تنفع التوبة بعد غرغرة الروح بالموت ، وبعد طلوع الشمس من مغربها ، فهي أوقاتٌ حدها الله لقبول التوبة فلا تنفع التوبة بعدها ، ولذلك لم ينفع الكافرين توبتهم وشدة ندمهم في الآخرة لَّما فات زمان التوبة ، فينبغي البدار بالتوبة وعدم التسويف بها فالعمر قصير والآجال محدودة .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة القلم

مكية وآياتها (٥٢)

﴿ نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١ ﴾ اختلفوا في معنى ﴿ نٓ ﴾ على أقوال :

الأول / أنه كسائر الحروف المقطعة في أوائل السور .

الثاني / أنه آخر حرفٍ من حروف اسم الله (الرحمن) وأنه هذا الاسم الجليل مفرقٌ في هذه الحروف ﴿ الٓر ﴾ ﴿ حمٓ ﴾ ﴿ نٓ ﴾ وهو مرويٌ عن بن عباس . قال بن عباس : حروف الرحمن مقطعة . ذكره الطبري .

الثالث/ أنه الدواة . يعنى والدواة والقلموما يكتبون . وهو مرويٌ عن بن عباسٍ ومجاهد وقتادة والحسن .

قال السيوطي : أخرج ابن جرير وَابن المنذر عن ابن عباسٍ قال : إن الله خلق النون وهي الدواة وخلق القلم فقال : اكتب قال : ما أكتب قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة. وقال أيضاً أخرج الحكيم الترمذي عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن أول شيء خلق الله القلم ثم خلق النون وهي الدواة ثم قال له : اكتب قال : وما أكتب قال : ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة من عملٍ أو أثرٍ أو رزق . فكتب ما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة وذلك قوله ﴿ نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ﴾ ثم ختم علي فيِّ القلم فلم ينطق ولا ينطق إلى يوم القيامة ، ثم خلق الله العقل فقال : وعزتي لأكملنك فيمن أحببت ولأنقصنك فيمن أبغضت. انتهى من الدر المنثور . وقد ذكره السيوطي في الموضوعات . وقال الألباني : رواه ابن عدي وابن عساكر عن محمد بن وهب الدمشقي : حدثنا الوليد بن مسلم : حدثنا مالك بن أنس عن سمي عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً وقال : وهذا بهذا الإسناد باطل منكر . قال الذهبي : وصدق ابن عدي في أن الحديث باطل . قلت : وآفته محمد بن وهب هذا ، وهو محمد بن وهب بن مسلم القرشي ، قال ابن عساكر : ذاهب الحديث . وهو غير محمد بن وهب بن عطية الذي أخرج له البخاري ، وقد ترجم له ابن عساكر أولاً ، ثم ترجم لابن مسلم هذا ، وساق له هذا الحديث. فأصاب. وأما ابن عدي فذكره في ترجمة الأول ظناً منه أنه هو صاحب الحديث . قال الحافظ في التهذيب : وليس كما ظن ، وقد فرق بينهما

أبو القاسم بن عساكر فأصاب . قلت : ويبدو أن الدار قطني أيضاً توهم أنه هو ففي (اللسان) أن الدار قطني أورد الحديث في " الغرائب " وقال : هذا حديثٌ غير محفوظ عن مالك ولا عن سمي ، والوليد بن مسلم ثقة ، ومحمد بن وهب ومن دونه ليس بهم بأس ، وأخاف أن يكون دخل على بعضهم حديثٌ في حديث . قلت : ومنشأ الوهم أن كلاً من الرجلين دمشقي ، وكلاهما يروي عن الوليد بن مسلم وعنهما الربيع بن سليمان الجيزي ، ولم يقع في إسناد هذا الحديث منسوباً إلى جده بل كما تقدم (محمد بن وهب الدمشقي) فاشتبه الأمر على ابن عدي والدار قطني والمعصوم من عصمه الله. على أنهما قد اتفقا على إنكار الحديث ، وذلك مما يدل اللبيب على دقة نقد المحدثين للمتون ، فإنهما مع ظنهما أن راوي الحديث هو محمد بن وهب بن عطية الثقة فقد أنكراه عليه ، وحاول الدار قطني أن يكتشف العلة بقوله : وأخاف.. ، لكن الله تعالى ادخر معرفتها للحافظ ابن عساكر مصداقاً للمثل السائر : كم ترك الأول للآخر ! وإذا عرفت هذا فقد أخطأ الإمام القرطبي خطأً فاحشاً في عزوه هذا الحديث لرواية الوليد بن مسلم فقال في تفسيره : روى الوليد بن مسلم قال : حدثنا مالك.. إلخ. فإن جزمه بأن الوليد روى ذلك معناه أن من دون الوليد ثقات محتج بهم وكذلك من فوقه كما هو باد للعيان ، فينتج من ذلك أن إسناد الحديث صحيح ، ولا يخفى ما فيه ! (انظر السلسلة الضعيفة حديث رقم (١٢٥٣)

الرابع / أنه حوتٌ تحت الأرض وهو مرويٌ عن بن عباسٍ ومجاهد وجريج . قال بن عباسٍ : إن أول ما خلق الله القلم فقال له : أكتب . قال : يا رب ما اكتب ؟ قال : أكتب القدر . فجرى القلم لما هو كائن في ذلك اليوم إلى قيام الساعة ثم طوى الكتاب ورفع القلم ثم رفع بخار الماء ففتقت السماوات ثم خلقت النون ثم بسط عليها الأرض والأرض على ظهر النون فاضطرب النون فمادت الأرض ثم خلق الله الجبال فأثبتها فإن الجبال لتفخر على الأرض إلى يوم القيامة ثم قرأ ابن عباس﴿ نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١ ﴾ إلى قوله ﴿ بِمَجۡنُونٖ ﴾ رواه الخلال في السنة واللفظ له ورواه الآجري في الشريعة والطبري في التفسير والحاكم في مستدركه وقال على شرط الشيخين ووافقه الذهبي .

وهناك أقوالاً أخرى أعرضنا عنها لقلة القائلين بها ولبعدها عن المعنى ومنها أنه لوحٌ من نور ومنها أنه مداد الملائكة الكتبة وهو يرجع إلى معنى الدواة وغير ذلك .

وعند أهل اللغة : النون حرفٌ من حروف المعجم ، والنون الحوت ومنه سمي يونس عليه السلام ذا النون أي صاحب الحوت ، والنون السيف وشفرته قيل سمي بذلك لأنه يشبه جسد السمكة في الميلان ، والنون الدواة وأنكر الزمخشري ذلك كما نقله عنه في روح المعاني لكن الأكثر على وروده بمعنى الدواة .

والراجح من التفاسير الأول أن ﴿ نٓ ﴾ كسائر الحروف المقطعة نحو ﴿ قٓ ﴾ ﴿ الٓمٓ ﴾ ﴿ الٓمٓرٰ ﴾ ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ ﴿ حٰمٓ ﴾ ﴿ عٓسٓقٓ ﴾ والراجح أنه يقصد بها التحدي فإنه لما تحدى الله الكفار أن يأتوا بمثل هذا القران فلم يستطيعوا ثم خفف عنهم وأمرهم أن يأتوا بعشر سورٍ فلم يستطيعوا فخفف عنهم وأمرهم أن يأتوا بسورةٍ فلم يستطيعوا ، أخبرهم جل وعلا أن هذا القران مكونٌ من حروفكم حروف العربية وذكرها في بداية السور فلماذا لم تستطيعوا أن تأتوا بسورةٍ من مثله .

وأما الثاني فبعيدٌ إذ يحتاج إلى دليلٍ ولا دليل عليه ، ولأنه يفتح الباب للباطنية وأعداء الدين بأن يفسروا القران وحروفه بما يشاءون ثم يُلَبِّسُونَ على الناس بأن علماءكم قد فسروا ﴿ نٓ ﴾ بأنه حرفٌ من اسم الله الرحمن . ونسبة هذا القول لابن عباس إما أن تكون باطلة لتعدد الروايات عنه بخلاف ذلك ، وإما أن يكون تحدث بها على أنها من مقول بني إسرائيل لا على أنها تفسير للقران .

وأما الثالث وهو أن النون الدواة فقد أنكر الزمخشري ورود النون بمعنى الدواة عند العرب ولكن الصحيح أنه ثابتٌ عند العرب ومنه قول الشاعر : إذا ما الشوق يرجع بي إليهم.. ألقت النون بالدمع السجوم

وقد اختاره بعض السلف وهم أعلم بلغة العرب ، ولكن رده الفخر الرازي من وجهٍ آخر وهو أنه يخالف وجوه الإعراب فإنه قال بعد ذكره لمن قال إنه الحوت أو الدواة أو لوحٌ أو مدادٌ تكتب به الملائكة قال : واعلم أن هذه الوجوه ضعيفة لأنا إذا جعلناه مُقْسَمَاً به وجب إن كان جنساً أن نجره وننونه ، فإن القسم على هذا التقدير يكون بدواةٍ منكرة أو بسمكةٍ منكرة ، كأنه قيل : وسمكةٍ والقلم ، أو قيل : ودواةٍ والقلم وإن كان علماً أن نصرفه ونجره أو لا نصرفه ونفتحه إن جعلناه غير منصرف. انتهى .

وأما الرابع وهو أنه الحوت فبعيدٌ جداً أولاً لأن الآية تتحدث عن الكتابة وأدواتها فلا يناسب ذكر الحوت . وثانياً أنهم لم يجعلوها عامةً في كل حوت بل خصصوها بحوتٍ معين ، والتخصيص يحتاج إلى دليل ، ثم ذكر الحوت وأنه تحت الأرض السابعة وأنه يحمل الأراضين على ظهره فكل ذلك يحتاج إلى دليلٍ من الوحي ، فإن قيل : ذكره صحابي وهو بن عباسٍ رضي الله عنهما ومعلومٌ أن قول الصحابي فيما لا يدخله الاجتهاد له حكم الرفع . فالجواب : أنه يمنع أن يكون بن عباسٍ قد سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم تعدد الأقوال واختلاف الروايات عنه في ذلك ، ولو كان عنده خبرٌ عن النبي صلى الله عليه وسلم ما جاوزه إلى غيره . ولأن بن عباسٍ قد عُرِفَ عنه الأخذ عن بني إسرائيل ككعب الأحبار وغيره والأظهر أنه سمع ذلك منهم ولذلك لم يجزم بأنه هو المراد . ثم الحس والمشاهدة يكذبان ذلك ، ولقد تم تصوير الأرض من الفضاء فلم يرَ تحتها حوت وإنما هي كرةٌ في الفضاء ، فتبين أن هذا القول من أكاذيب بني إسرائيل ليست من الوحي في شيء . فإن قيل : كيف يفسر بها بن عباسٍ القران وهو من علماء الصحابة ؟ فالجواب إن صحت الرواية عنه فليس مراده تفسير القران بذلك بل مراده التحديث عن بني إسرائيل فيما يقولون لقول النبي صلى الله عليه وسلم (حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج) فهي كالأساطير التي تحكى ولا يدرى ما صحيحها من مكذوبها وإنما للتسلية ، ولذلك حدَّث عنهم المفسرين بأعجب من ذلك فقد قال بن كثير : ذكر البغوي وجماعة من المفسرين أن على ظهر هذا الحوت صخرة سمكها كغلظ السموات والأرض ، وعلى ظهرها ثورٌ له أربعون ألف قرن ، وعلى متنه الأرضون السبع وما فيهن وما بينهن . انتهى . قال بن القيم في المنار المنيف في ذكر علامات الوضع : أن يكون الحديث مما تشهد الشواهد الصحيحة على بطلانه ومن هذا حديث : إن الأرض على صخرة ، والصخرة على قرن ثور ، فإذا حرك الثور قرنه تحركت الصخرة فتحركت الأرض وهي الزلزلة . والعجب من مسود كتبه بهذه الهذيانات . انتهى. والخبر الذي نقله بن كثير عن البغوي نصه عن البغوي قال : وقالت الرواة : لما خلق الله الأرض وفتقها بعث من تحت العرش ملكًا فهبط إلى الأرض حتى دخل تحت الأرضين السبع فوضعها على عاتقه إحدى يديه بالمشرق والأخرى بالمغرب باسطتين قابضتين على الأرضين السبع حتى ضبطها فلم يكن لقدميه موضع قرار ، فأهبط الله عز وجل من الفردوس ثورًا له أربعون ألف قرن وأربعون ألف قائمة ، وجعل قرار قدمي الملك على سنامه فلم تستقر قدماه ، فأخذ الله ياقوتة خضراء من أعلى درجةٍ في الفردوس غلظها مسيرة خمسمائة عام فوضعها بين سنام الثور إلى أذنه فاستقرت عليها قدماه ، وقرون ذلك الثور خارجة من أقطار الأرض ، ومنخراه في البحر فهو يتنفس كل يوم نفسًا فإذا تنفس مدَّ البحر ، وإذا ردَّ نفسه جزر البحر ، فلم يكن لقوائم الثور موضع قرار ، فخلق الله تعالى صخرةً

كغلظ سبع سماوات وسبع أرضين فاستقرت قوائم الثور عليها وهي الصخرة التي قال لقمان لابنه﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ ﴾و لم يكن للصخرة مستقر ، فخلق الله نونًا وهو الحوت العظيم فوضع الصخرة على ظهره وسائر جسده خال ، والحوت على البحر ، والبحر على متن الريح ، والريح على القدرة. يقال : فكل الدنيا كلها بما عليها حرفان قال لها الجبار جل جلاله كوني فكانت . قال كعب الأحبار: إن إبليس تغلغل إلى الحوت الذي على ظهره الأرض فوسوس إليه ، فقال له : أتدري ما على ظهرك يا لوِيثا من الأمم والدواب والشجر والجبال لو نفضتهم ألقيتهم عن ظهرك ، فهمّ لوِيثا أن يفعل ذلك فبعث الله دابةً فدخلت منخره فوصلت إلى دماغه فعج الحوت إلى الله منها ، فأذن لها الله فخرجت . قال كعب : فو الذي نفسي بيده إنه لينظر إليها وتنظر إليه إن همَّ بشيء من ذلك عادت كما كانت .انتهى. قال المنجد: انظر معالم التنزيل ونحوه في تفسير القرطبي وعلق محققوا تفسير القرطبي كلاً من الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي ومحمد رضوان عرقسوسي على هذا الأثر بقولهم : خبرٌ إسرائيلي لا أساس له ، وكان من الأولى بالمصنف أن ينزه كتابه عن مثل هذا . انتهى . قال : فانظر كيف أن القصة زاد فيها الرواة وفصَّلوا ثم رجع الأمر إلى كعب الأحبار الذي هو مصدر كثيرٍ من العجائب المنسوبة إلى هذا الدين . ولذلك أشار الحافظ بن كثير في البداية والنهاية بعد ذكر مجموعةٍ من الغرائب منها هذا الحديث إلى أنها من الإسرائيليات فقال : هذا الإسناد يذكر به السدي أشياء كثيرة فيها غرابة وكأن كثيراً منها متلقى من الإسرائيليات وقد وردت بعض الأحاديث المرفوعة المنكرة في هذا المعنى منها ما روي عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (الأرض على الماء ، والماء على صخرة ، والصخرة على ظهر حوت يلتقي حرفاه بالعرش ، والحوت على كاهل ملك قدماه في الهواء) وهو حديثٌ موضوع انظر السلسلة الضعيفة رقم (٢٩٤) . انتهى

قال الدكتور محمد أبو شهبة : ما يذكر كثير من المفسرين في قوله تعالى ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ ﴾ من أنه الحوت الذي على ظهره الأرض ، ويسمى : اليهموت ، وقد ذكر ابن جرير والسيوطي روايات عن ابن عباس منها : أول ما خلق الله القلم فجرى بما هو كائن ، ثم رفع بخار الماء وخلقت منه السماوات ، ثم خلق النون فبسطت الأرض عليه فاضطرب النون فمادت الأرض فأثبتت بالجبال ، وقد روي عن ابن عباس أيضاً : أنه الدواة ولعل هذا هو الأقرب ، والمناسب لذكر القلم ، وقد أنكر الزمخشري ورود نون بمعنى : الدواة في اللغة وروى عنه أيضا : أنه الحرف الذي في آخر كلمة (الرحمن) وأن هذا الاسم الجليل فرق في : "الر" و "حم" و "ن". واضطراب النقل عنه يقلل الثقة بما روي عنه ، ولا سيما الأثر الأول عنه ، والظاهر أنه افتراءٌ عليه

أو هو من الإسرائيليات ألصق به. وإليك ما قاله إمام حافظ ناقد من مدرسة اشتهرت بأصالة النقد وهو الإمام ابن قيم الجوزية ، قال في أثناء كلامه على الأحاديث الموضوعة : ومن هذا حديث : أن الأرض على صخرة ، والصخرة على قرن ثور ، فإذا حرك الثور قرنه ، تحركت الصخرة ، فهذا من وضع أهل الكتاب الذين قصدوا الاستهزاء بالرسل. وقال الإمام أبو حيان في تفسيره : لا يصح من ذلك شيء ما عدا كونه اسماً من أسماء حروف الهجاء . انتهى.

واختلفوا في المراد ب﴿ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ ﴾ على ثلاثة أقوال :

الأول / أنه القلم الذي كُتِبَ به الذكر . وهو قول مجاهد ورجحه الطبري ، وعليه فيكون المراد ب ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ اللوح المحفوظ والجمع للتعظيم أو لما سُطِّرَ فيه من الأقدار . ذكره الفخر الرازي .

الثاني / أن المراد الأقلام التي بيد الملائكة . قال بن كثير : قال السدي ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ يعني الملائكة وما تكتب من أعمال العباد .انتهى. وعليه فالمراد بالقلم جنس الأقلام التي تكتب بها الملائكة .

الثالث / أنه يشمل جميع الأقلام . قال بن كثير : الظاهر أنه جنس القلم الذي يكتب به كقوله ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾. سورة العلق فهو قسم منه تعالى وتنبيه لخلقه على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم ولهذا قال﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ قال ابن عباسٍ ومجاهد وقتادة يعني : وما يكتبون. انتهى. وهو أرجح لأن اللفظ عامٌ لا مخصص له وكذلك قوله ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ .

وقوله ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ قد تكون ما موصولة بمعنى الذي فيكون المعنى وما يكتبون وهو مرويٌ عن بن عباسٍ ومجاهد وقتادة والحسن . وقد تكون ما مصدرية بمعنى وكتابتهم فيكون المقسم به الكتاب وهو وجهٌ ذكره الطبري . قال الطبري : وقوله ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ يقول : والذي يخُطُّون ويكتبون . وإذا وُجِّهَ التأويل إلى هذا الوجه كان القسم بالخلق وأفعالهم . وقد يحتمل الكلام معنىً آخر وهو أن يكون معناه : وسطرهم ما يسطرون ، فتكون "ما" بمعنى المصدر. واذا وُجه التأويل إلى هذا الوجه كان القسم بالكتاب ، كأنه قيل : ن والقلم والكتاب . انتهى.

﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ ﴾ جواب القسم بما النافية ، والمراد ﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ النبوة والوحي والقران والإسلام أي لست بما تحدثهم به مما أنعم الله عليك به من النبوة والوحي والقران بمجنون ، أي لست مجنوناً حين تقول لهم أنك نبيٌ يترل عليك الوحي والقران ، وكان المشركون يستهزئون بالنبي صلى الله عليه وسلم ويصفونه بأنه مجنونٌ حين يزعم أنه نبيٌ يوحى إليه القران كما قال تعالى عنهم ﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾سورة الحجر يسخرون منه ، فردَّ الله عليهم وأخبرهم أنه ليس بمجنون ، ولكنه نبيٌ منعمٌ عليه بالنبوة والوحي والقران والإسلام . وقيل المعنى : ما أنت والحمد لله بمجنون . وقيل : ما أنت بمجنونٍ مُنْعِماً ربك عليك بذلك . وقيل المراد القسم بالنعمة أي : ما أنت ونعمة ربك بمجنون . لأن الباء من حروف القسم كالواو . قال البغوي ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ بنبوة ربك ﴿ بِمَجْنُونٍ ﴾ أي: إنك لا تكون مجنوناً وقد أنعم الله عليك بالنبوة والحكمة. وقيل: بعصمة ربك. وقيل: هو كما يقال: ما أنت بمجنون والحمد لله . وقيل : معناه ما أنت بمجنون والنعمة لربك ، كقولهم : سبحانك اللهم وبحمدك ، أي : والحمد لك . انتهى.

﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا ﴾ أي سوف يعطيك الله أجراً أي ثواباً على ما تحملت من أعباء النبوة والرسالة والبلاغ .

﴿ غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ ﴾ غير مقطوعٍ ولا منقوص .

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ أي على دين عظيم وهو الإسلام ، وهو قول بن عباس ومجاهد وأبو مالك والسدي والربيع بن أنس والضحاك وابن زيد. كما نقله بن كثير ، ونقل السيوطي في الدر المنثور عن سعيد بن جبير وابن أبزي مثله . وقيل : أي إنك على طبعٍ كريم . واختاره الماوردي . وقيل على أدب القران وهو قول عليٍ وعطية العوفي كما نقله القرطبي . ولَّما سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق النبي صلى الله عليه وسلم قالت : كان خلقه القران . وقد جمع بين الأقوال بن جريرٍ فقال : وإنك يا محمد لعلى أدبٍ عظيم وذلك أدب القرآن الذي أدّبه الله به وهو الإسلام وشرائعه .انتهى .

﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾ فستعلم ويعلمون يوم القيامة أو فسترى ويرون وتشاهد ويشاهدون يوم تنكشف الحقائق في يوم القيامة ﴿ بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ ﴾ الباء لتضمين الفعل أي بالرؤية والمشاهدة ليوم الحساب تعلمون أيكم المفتون : يعني المجنون الذي فتنه الشيطان فذهب بعقله حتى ضل عن الدين الحق . وقال الفراء :

الباء بمعنى (في) والمعنى : في أي الفريقين المجنون . وعن مجاهد : يتبين لكم المفتون . وعن بن عباسٍ ومجاهد والحسن وسعيد بن جبير وابن أبزي : بأييكم المجنون . وعن بن عباسٍ والضحاك : بأيكم الجنون . وعن بن عباسٍ وأبي الجوزاء ومجاهد : الشيطان . وعن قتادة والحسن : أيكم أولى بالشيطان .

والذين قالوا الشيطان أرادوا الشيطان الذي يحصل من مسه الجنون واختلاط العقل ، وقد كان المشركون يقولون أن النبي صلى الله عليه وسلم مجنون وأن به شيطاناً يعني الشيطان الذي يحصل من مسه الجنون واختلاط العقل وعنوا بالمجنون هذا ، فرد الله عليهم أنهم سيعلمون يوم القيامة من هو المفتون أي المجنون الذي فتنه الشيطان حتى ذهب بعقله فلم يدرك نجاة نفسه في الآخرة .

وقال بن كثير : أي فستعلم يا محمد ، وسيعلم مخالفوك ومكذبوك ، من المفتون الضال منك ومنهم . وهذا كقوله تعالى ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ ﴾سورة القمر وكقوله ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ سورة سبأ قال ابن جريج : قال ابن عباس في هذه الآية : ستعلم ويعلمون يوم القيامة. وقال العوفي عن ابن عباس﴿ بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ ﴾ أي : الجنون . وكذا قال مجاهد وغيره . وقال قتادة وغيره ﴿ بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ ﴾ أي : أولى بالشيطان. ومعنى المفتون ظاهر ، أي : الذي قد افتتن عن الحق وضل عنه وإنما دخلت الباء في قوله﴿ بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ ﴾ لتدل على تضمين الفعل في قوله ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾ وتقديره : فستعلم ويعلمون ، أو : فستُخْبَر ويُخْبَرون بأيكم المفتون. والله أعلم .انتهى .

وقيل المفتون : المعذب ، ومنه قوله تعالى﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾سورة الذاريات أي يعذبون .

ولا شك أن الذي أضله الشيطان وأوقعه في الشرك والكفر حتى هلك فسوف يُعَذَّبْ ولذلك قال الله تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ ﴾ فيجازي كلاً بعمله .

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ ﴾ تحذيرٌ من الله جل وعلا لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يطيع الكفار المكذبين بآيات الله ورسوله في شيءٍ ، ولا يتنازل عن شيءٍ من أمر دينه لأجل قبولهم دعوته ولذلك قال ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ ﴾ قال قتادة : ودوا لو يدهن نبي الله صلى الله عليه وسلم عن هذا الأمر فيدهنوا عنه . وقال مجاهد : ودوا لو تركن إليهم وتترك ما أنت عليه من الحق فيمالئونك . وعن بن عباسٍ والضحاك وسفيان وعكرمة ومقاتل : ودوا لو تكفر فيكفرون. وقال الربيع بن أنس: ودوا لو تكذب فيكذبون. وقال الحسن:

ودوا لو تصانعهم في دينك فيصانعونك في دينهم. وعنه أيضاً: ودوا لو ترفض بعض أمرك فيرفضون بعض أمرهم. وقال زيد بن أسلم : ودوا لو تنافق وترائي فينافقون ويراءون. وقال أبو جعفر : ودوا لو تضعف فيضعفون . وقال القتبي : طلبوا منه أن يعبد ألهتهم مدة ويعبدوا إلهه مدة . وقال الفراء والكلبي: ودوا لو تلين فيلينون لك . والإدهان : اللين والمصانعة في الدين . وقال الفراء : هو التليين لمن لا ينبغي له التليين . وقال بن جرير : إنما هو مأخوذ من الدُّهن شبه التليين في القول بتليين الدُّهن . قال : والمعنى : ودّ هؤلاء المشركون يا محمد لو تلين لهم في دينك بإجابتك إياهم إلى الركون إلى آلهتهم ، فيلينون لك في عبادتك إلهك. انتهى وقد كان من أقوال المشركين : يا محمد أعبد إلهنا سنةً ونعبد إلهك سنة . فأنزل الله ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ ﴾إلى آخر سورة الكافرون ، ونهاه عن مداهنتهم في هذه الآية ، وأقوال السلف كلها تدور على معنى التنازل في الدين والملاينة والمصانعة ، ولا شك أنهم لن يطلبوا منه أن يترك دينه ومعبوده بالكلية لأنهم يعلمون أن مثل هذا مستحيل ، لكن يتنازل عن شيء مقابل أن يتنازلوا هم عن شيء . فكان الرد قاطعاً والجواب مانعاً فلا يمكن التنازل عن شيءٍ من الدين أبداً ، وفي هذا ردٌ على الذين يريدون أن يتنازلوا عن بعض أمور الدين كاللحية والحجاب والستر والعفاف ونحو ذلك إرضاءً للغرب الكافر وللشهوانيين من أبناء جلدتنا ، وأن ذلك لا يجوز أبداً ، وأنه قد يبلغ الكفر إن استحلوا ذلك أو تنازلوا عن أمرٍ يكون تركه كفر كالصلاة والتوحيد ، ثم ليعلموا أنه لن يرضيهم إلا تركنا لديننا بالكلية كما قال تعالى ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾من (١٢٠) سورة البقرة فنسأل الله الثبات على الدين حتى الممات ونسأله أن لا يضلنا بعد إذ هدانا إنه جوادٌ كريم .

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ ﴾ ولا تطع يا محمد كل حلافٍ أي مكثرٍ من الحلف والمراد الحلف بالباطل والمهين هو الحقير الذليل من الإهانة كما قال تعالى ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ﴾من (١٨) سورة الحج أي يُذِلَّه. وقال أبو إسحاق هو فعيلٌ من المهانة وهي القلة ، ومعناه هاهنا : القلة في الرأي والتمييز . وقال الفراء : المهين هاهنا الفاجر . وقال الكلبي : الفاجر العاجز . وقال قتادة : مكثارٌ في الشر . وقال مجاهد والحسن: ضعيف القلب . وقال بن عباسٍ : كذاب .

وقيل أنها نزلت في الأسود بن عبد يغوث وهو قول بن عباسٍ ومجاهد .

وقيل هو أبو جهل بن هشام وهو مرويٌ عن بن عباس .

وقيل الأخنس بن شريق وهو قول الشعبي والسدي وابن إسحاق والكلبي قيل لأن أصله من ثقيف وعداده في بني زُهْرة .

وقيل هو الوليد بن المغيرة وهو قول مقاتل بن سليمان .

والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾ يغتاب الناس ويمشي بالنميمة .

﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ بخيلٌ بالمال لا يؤدي حقه ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ على الناس يظلمهم ويأكل حقوقهم ﴿ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ ﴾ أثيمٌ كثير الإثم ، لا يأتمر بأوامر الله ولا يجتنب نواهيه .

﴿ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾ العتل : قال الحسن وقتادة : هو الفاحش اللئيم ، وقال عكرمة : الكافر اللئيم . وقال مجاهد : شديد الأشر . وقال الطبري والقرطبي : الجافي الشديد في كفره . وقال أبو رزين : الصحيح الشديد . وقال الضحاك : الشديد . وقال عبيد بن عمير : الأكول الشروب القويّ الشديد . وقال الكلبي والفراء : هو الشديد الخصومة بالباطل . وقال بن السكيت : يقال رجلٌ عِتِل ، أي سريعٌ إلى الشر . وقيل : هو الذي يَعْتِلُ الناس فيجرهم إلى حبسٍ أو عذاب . مأخوذٌ من العَتْلِ وهو الجر ، ومنه قوله تعالى ﴿ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ﴾ سورة الدخان

والمقصود أنه مع الصحة والقوة التي أعطاه الله في جسمه فهو شديدٌ وقويٌ في الباطل والفجور ، فبدل أن يشكر الله على ما أعطاه إياه من الصحة والقوة استخدمها فيما يغضب الله ولذلك كان لئيماً كما قيل :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

قال النبي صلي الله عليه وسلم (ألا أخبركم بأهل الجنة : كل ضعيفٍ متضعف لو أقسم على الله لأبره . ألا أخبركم بأهل النار : كل عُتُلٍّ جَواظٍ مستكبر) متفق عليه وقال بن حجر قوله عتل بضم المهملة والمثناة بعدها لام ثقيلة قال الفراء : الشديد الخصومة ، وقيل الجافي عن الموعظة . وقال أبو عبيدة : العتل الفظ الشديد من كل شيء وهو هنا الكافر . وقال عبد الرزاق عن معمر عن الحسن : العتل الفاحش الآثم وقال الخطابي : العتل الغليظ العنيف . وقال الداودي : السمين العظيم العنق والبطن . وقال الهروي : الجموع

المنوع ، وقيل القصير البطن . قلت : وجاء فيه حديثٌ عند أحمد من طريق عبد الرحمن بن غنم وهو مختلفٌ في صحته قال : سئل رسول الله صلى الله عليه و سلم عن العتل الزنيم قال (هو الشديد الخلق المصحح الأكول الشروب ، الواجد للطعام والشراب ، الظلوم للناس ، الرحيب الجوف) و قوله (جواظ) بفتح الجيم وتشديد الواو وآخره معجمة : الكثير اللحم المختال في مشيه حكاه الخطابي ، وقال بن فارس قيل هو الأكول وقيل الفاجر .انتهى من فتح الباري . وقال القرطبي : الجواظ قيل هو الجموع المنوع . وقيل الكثير اللحم المختال في مشيته .انتهى من تفسيره .

ومعنى ﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ أي مع ذلك ، أي عُتُلٍ ومع ذلك زنيم .

والزنيم هو الملصق بالقوم وليس منهم ، قاله سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير . وعن بن عباسٍ : هو الدعي وتمثل بقول الشاعر : زنيم تداعاه الرجال زيادة * كما زيد في عرض الأديم أكارعه .

وعن عكرمة أنه سئل عن الزنيم قال : هو ولد الزنا وتمثل بقول الشاعر :

زنيم ليس يعرف من أبوه * بغي الأم ذو حسبٍ لئيم .

وقال مجاهد : ملحقٌ في النسب زعم ابن عباس .

وقيل الزنيم هو الرجل يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها وهي التي تكون في حلقها كالمتعلقتين . وهو مرويٌ عن بن عباسٍ وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد والشعبي .

وقيل هو رجلٌ من قريش وقيل من ثقيف كانت فيه زنمةٌ زائدة مثل زنمة الشاة يعرف بها وهو مرويٌ عن بن عباسٍ ومجاهد والشعبي . ولكن هذا القول بعيدٌ بل لا يصح ، لأن فيه تعييراً بالخِلْقَةِ وتنقصاً للخالق لأن تَنَقُصَ الصَنْعَةِ تَنَقُصٌ للصانع ، فكيف يعيره الله بما أوجده فيه ، لاشك أن هذا المعنى لا يصح .

﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ إما أن تتعلق بما سبق فيكون المعنى لا تطعه بسبب أنه ذو مالٍ وبنين كأنه قال ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾ بسبب ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ ويمكن أن تتعلق بالآية بعدها ويكون المعنى : بسبب ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ أي أنه لما كان منعماً عليه بالمال والبنين تجبر واستكبر عن آيات الله وقال عنها عند قراءتها عليه أساطير الأولين أي ما كتبه وسطره الأولون يعني من خرافاتهم وأكاذيبهم فشبه آيات الله بالخرافات والأكاذيب . وذكر الطبري

أن هذا التوجيه يصح على قراءة أبي جعفر المدني وحمزة (أأن كان ذا مالٍ وبنين) بالاستفهام بهمزتين . وأما على قراءة سائر قراء المدينة والكوفة والبصرة ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ على وجه الخبر فلا يصح إلا الوجه الأول .انتهى . وقال القرطبي : ومن قرأ ﴿ أَن كَانَ ﴾ بغير استفهام فهو مفعولٌ من أجله والعامل فيه فعل مضمر ، والتقدير : يكفر لأن كان ذا مالٍ وبنين . ودل على هذا الفعل ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ . انتهى. فجعله يصح على الوجه الآخر .

﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾ قيل المعنى : سنجعل على أنفه علامةً لا تفارقه ، قيل : سنخطمه بالسيف فنجعل ذلك علامة باقية وسمة ثابتة فيه ما عاش . وقد خطم الذي نزلت فيه يوم بدر بالسيف ، فلم يزل مخطوماً إلى أن مات. قاله بن عباس كما نقله القرطبي .

وقيل المعنى : سنجعل على وجهه علامةً وهي السواد يوم القيامة كما قال تعالى ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ سورة آل عمران قال الفراء : وإن كان الخرطوم قد خص بالسمة فإنه في معنى الوجه لأن بعض الشيء يعبر به عن الكل .

وقيل : المعنى سنلحق به عاراً وسبةً حتى يكون كمن وسم على أنفه. قال قتادة : شَيْنٌ لا يفارقه آخر ما عليه قال القتبي : العرب تقول للرجل يسب سبةَ سوءٍ قبيحةٍ باقية : قد وسم ميسم سوء ، أي الصق به عار لا يفارقه ، كما أن السمة لا يمحى أثرها . قال جرير:

لما وضعت على الفرزدق ميسمي ... وعلى البعيث جدعت أنف الأخطل

أراد به الهجاء . قال : وهذا كله نزل في الوليد بن المغيرة . ولا نعلم أن الله تعالى بلغ من ذكر عيوب أحدٍ ما بلغه منه ، فألحقه به عاراً لا يفارقه في الدنيا والآخرة ، كالوسم على الخرطوم . انتهى .

وقيل المعنى : سنفضحه ونبين أمره . قال الطبري : سنبين أمره بياناً واضحاً حتى يعرفوه فلا يخفى عليهم كما لا تخفي السمة على الخرطوم . وقد يحتمل أيضاً أن يكون خطم بالسيف فجمع له مع بيان عيوبه للناس الخطم بالسيف. انتهى. وهذا في معنى الذي قبله وكأنه يشير إلى قوله تعالى ﴿ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾.

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ الابتلاء : الاختبار والامتحان . أي امتحنا كفار قريش كما امتحنا أصحاب الجنة أي البستان . قال قتادة : كانت الجنة لشيخٍ وكان يتصدَّق ، فكان بنوه ينهونه عن الصدقة ، وكان يمسك قوت سنته وينفق ويتصدَّق بالفضل ، فلما مات أبوهم غدوا عليها فقالوا ﴿ لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴾ انتهى. واختلفوا في أهل هذا البستان فقال بن عباسٍ : كانوا من أهل الكتاب وجنتهم دون صنعاء بفرسخين وقال عكرمة : هم ناس من الحبشة كانت لأبيهم جنة كان يطعم المساكين منها ، فلما مات أبوهم قال بنوه: والله إن كان أبونا لأحمق حين يُطعم المساكين ، فاقسموا ليصرمنها مصبحين ، ولا يستثنون ، ولا يطعمون مسكينا. وقال سعيد بن جبير هي في أرضٍ باليمن يقال لها ضروان بينها وبين صنعاء ستة أميال . وقال مقاتل والكلبي : كان بينهم وبين صنعاء فرسخان . وقال القرطبي في تفسير الآية : والمعنى أعطيناهم أموالاً ليشكروا لا ليبطروا ، فلما بطروا وعادوا محمداً صلي الله عليه وسلم ابتليناهم بالجوع والقحط ، كما بلونا أهل الجنة المعروف خبرها عندهم . وذلك أنها كانت بأرض اليمن بالقرب منهم على فراسخ من صنعاء . انتهى

﴿ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ أي حلفوا ليقطعن ثمارها إذا أصبحوا يعني قبل مجيء المساكين .

﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ أي لا يستثنون ولا يدعون شيئاً من الثمار للمساكين ، وقيل ﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾ أي لم يقولوا إن شاء الله .

﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ أي أتلفها الله وهم نائمون لا يشعرون بذلك . قال بن عباسٍ : طاف عليها أمرٌ من أمر الله وهم نائمون .

﴿ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ ﴾ كالليل يعني في ظلامه واسوداده . قال بن عباسٍ : كالليل الأسود . وقال قتادة : كالليل المظلم . وكأن في ذلك إشارةً إلى احتراقها . قال مقاتل : بعث الله ناراً من السماء في الليل على جنتهم فأحرقتها حتى صارت سوداء .انتهى.

﴿ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ نادى بعضهم بعضاً عند الصباح .

﴿ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ أي اذهبوا مبكرين إلى جنتكم إن كنتم عازمين على حصدها .

﴿ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ فمضوا وهم يتكلمون سراً فيما بينهم ويقولون ﴿ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ ﴿٢٤﴾ ﴾ أي احجبوا المساكين عنها لا يدخلوها ، وإنما أسروا ذلك ولم يظهروه والعلم عند الله خشية الفضيحة من الناس ولم يخشوا رب الناس .

﴿ وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ الحرد في اللغة يطلق على : القصد ، وعلى المنع ، وعلى الغيظ والغضب ، وعلى الانفراد ، يقال : حَرَدَ يحرد حروداً أي تنحى وتحول عن قومه ونزل منفرداً لم يخالطهم . قاله في لسان العرب

ولذلك اختلف المفسرون بناءً على اختلاف هذه اللفظة في لغة العرب فقال بن عباسٍ وغيره : على قصد. وقال قتادة ومجاهد : على جد . وقال الحسن : على حاجة وفاقه . وقال أبو عبيدة والقتبي : على منع . وقال السدي وسفيان : على غضب. وقال بن السكيت قيل : على انفراد . وقال الأزهري : حرد اسم قريتهم . وقال السدي : اسم جنتهم . ذكر هذه الأقوال القرطبي . وقال بن كثير : قال السدي : كان اسم قريتهم حرد. فأبعد السدي في قوله هذا! انتهى .

ومعنى قادرين : قيل على جنتهم : يعني يرون أنه لا أحد يستطيع أن يمنعهم من جذ ثمار بستانهم ونسوا قدرة الله . وقيل : قادرين على منع المساكين . وقيل : قد قدَّروا أمرهم في أنفسهم وبنوا عليه ما بنوا من قطع الثمار ومنع المساكين .

والمعنى الجامع في نظري : وغدوا في حنقٍ وغيظٍ وغضبٍ متقصدين الانفراد بالثمر ومنع المساكين وهم يرون في أنفسهم أنهم على ذلك قادرين ، وأنه لا أحد يستطيع أن يمنعهم من ذلك . والله أعلم بمراده من كلامه .

﴿ فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ قال قتادة : أخطأنا الطريق ما هذه جنتنا . وقيل أي إنا لضآلون عن الصواب حين نوينا منع المساكين . والأول أظهر لأنهم قالوا بعد ذلك حين عاد إليهم رشدهم ﴿ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ أي حرمنا جنتنا بسبب ذنبنا .

﴿ قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ أي قال أعدلهم وأفضلهم ألم أقل لكم أن تتركوا هذا العمل وهذه النية وتذكروا الله وتسبحوه يعني تنزهوه وتعظموه وتشكروه . وقيل المراد بالتسبيح الاستغفار أي هلا تستغفرونه من فعلكم وتتوبون إليه من خبث نيتكم . وقيل المراد بالتسبيح الاستثناء وكان استثناؤهم تسبيحاً . والمعنى ألم أقل لكم أن تستثنوا فتقولوا إن شاء الله . يعني فتمتنعوا عن هذه النية .

﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ أي نتره الله عن الظلم فقد وقع الذي وقع بسبب ظلمنا نحن لأنفسنا بالمعاصي ، وقيل : أي نستغفر الله من ذنبنا. وهذا ندمٌ منهم والندم توبة .

﴿ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ يلوم بعضهم بعضاً على ما عزموا عليه من قطع الثمر ومنع المساكين . كأن يقول بعضهم لبعضٍ أنت الذي أشرت علينا بذلك ويقول الآخر بل أنت الذي أشرت أو يقول أنت الذي شجعتني ونحو ذلك من التلاوم الذي يحصل غالباً عندما يحصل فشلٌ بسبب خطأ .

﴿ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ أي متجاوزين لحدود الله و لم نشكر نعمته علينا .

﴿ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ أي طالبون وطامعون وراجون من الله أن يبدلنا خيراً منها.

﴿ كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُ ﴾ قال بن كثير : أي هكذا عذاب من خالف أمر الله ، وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه ، ومنع حق المساكين والفقراء وذوي الحاجات ، وبدل نعمة الله كفرا ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ أي هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم ، وعذاب الآخرة أشق . انتهى .

ولقد اختلف المفسرون فيهم فقد أخرَج ابن المنذر عن معمر قال : قلنا لقتادة أمن أهل الجنة هم أم من أهل النار ؟ قال : لقد كلفتني تعبا. انتهى . وقال الحسن : قول أهل الجنة ﴿ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴾ لا أدري إيماناً كان ذلك منهم أو على حد ما يكون من المشركين إذا أصابتهم الشدة ، فيوقف في كونهم مؤمنين. انتهى وقال القرطبي بعد أن ذكر هذان القولان : والمعظم يقولون : إنهم تابوا وأخلصوا ، حكاه القشيري. انتهى . قلت : وهو واضح أنهم كانوا مؤمنين يستثنون ويسبحون ويستغفرون ولكن حصل منهم ما حصل في ساعة غفلة ثم ندموا وتابوا ، وفي ذلك ردٌ على الحسن ، وأما قول قتادة فهو صحيح فإن العجب في السؤال وليس في الجواب ، فإن الجنة والنار لا يعلم أهلهما إلا الله ، فلا نشهد لأحدٍ كائناً من كان بجنةٍ ولا بنار ، إلا من شهد له الله ورسوله .

﴿ إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ ﴾ بعد أن ذكر الله حال العصاة ومآلهم عقَّبَ ذلك بذكر حال المتقين الذين يجعلون بينهم وبين عقاب الله وقايةً بفعل أوامره واجتناب نواهيه أن لهم عند ربهم في الآخرة جنات النعيم .

﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ أي هل نجعل حال المسلمين كحال من أجرم في حق نفسه بالشرك والكفر قال القرطبي : كان صناديد قريش يرون وفور حظهم من الدنيا وقلة حظوظ المسلمين منها ، فإذا سمعوا بحديث الآخرة وما وعد الله المؤمنين قالوا : إن صح أنا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم يكن حالنا وحالهم إلا مثل ما هي في الدنيا ، وإلا لم يزيدوا علينا و لم يفضلونا ، وأقصى أمرهم أن يساوونا . انتهى

﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ حيث تجعلون المطيع لله القائم بأمره كالمجرم العاصي لله الذي يتعدى حدوده .

﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ هل عندكم كتابٌ نزل من عند الله تتدارسونه فتقرؤونه وتتعلمونه وتحكمون بما فيه . إن كان كذلك ﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ أي قد جاء كتابكم على وفق ما تختارون وتشتهون . قال الطبري : وهذا الأمر توبيخٌ من الله لهؤلاء القوم وتقريعٌ لهم فيما كانوا يقولون من الباطل ويتمنون من الأمانيّ الكاذبة. انتهى بتصرف.

﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أم لكم عهودٌ ومواثيق علينا مؤكدة ثابتة لكم إلى يوم القيامة لا نخرج عن عهدها إلا يومئذ . قال القاسمي : أم أقسمنا لكم بأيمانٍ مغلظةٍ متناهيةٍ في التوكيد .

﴿ إِنَّ لَكُمْ ﴾ في هذه الأيمان المغلظة والعهود ﴿ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ لأنفسكم من الخير والكرامة عند الله .

﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ أي اسألهم على جهة التعجيز لهم : أيهم الضامن والكفيل بذلك .

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ ﴾ أي آلهةً يشاركون الله في الأمر والحكم ، يعني عندهم القدرة أن يعطوكم ما تحكمون به لأنفسكم من الخير والكرامة . ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ فليأتوا بهم إن كانوا صادقين . قيل المعنى : لننظر هل ينفعون أو يضرون في الدنيا ، فإن المشركين أو أكثرهم يعلمون أن هذه الأصنام والأوثان لا تنفع ولا تضر من دون الله ، وإنما عبدوها لتشفع لهم عند الله ، كما قال تعالى ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ سورة يونس وحيث كانوا غير قادرين على النفع والضر في الدنيا فلأن يعجزوا عنه في الآخرة من باب أولى .

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ يوم يكشف ربنا جل وعلا عن ساقه في يوم القيامة فيسجد المؤمن ولا يستطيع الكافر والمنافق السجود ، وهو قول عبد الله بن مسعود وأبو هريرة وأبو سعيد الخدري وقد ثبت عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم (إذا كان يوم القيامة أذن مؤذنٌ ليتبع كل أمةٍ ما كانت تعبد فلا يبقى أحدٌ كان يعبد غير الله سبحانه من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من برٍ وفاجر وَغُبَّرِ أَهْلِ الْكِتَابِ فيدعى اليهود فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟ قالوا : نعبد عزيرَ ابن الله . فيقال كذبتم ما اتخذ الله من صاحبةٍ ولا ولد فماذا تبغون؟ قالوا : عطشنا يا ربنا فاسقنا . فيشار إليهم ألا تردون فيحشرون إلى النار كأنها سرابٌ يَحْطِمُ بعضها بعضاً فيتساقطون في النار . ثم يدعى النصارى فيقال لهم : ما كنتم تعبدون؟ قالوا : كنا نعبد المسيح ابن الله . فيقال لهم كذبتم ما اتخذ الله من صاحبةٍ ولا ولد ، فماذا تبغون؟ قالوا : عطشنا يا ربنا فاسقنا . قال فيشار إليهم ألا تردون فيحشرون إلى النار كأنها سرابٌ يَحْطِمُ بعضها بعضاً فيتساقطون في النار . حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله تعالى من برٍ وفاجر ، أتاهم رب العالمين سبحانه وتعالى في أدنى صورةٍ من التي رأوه فيها . قال : فما تنتظرون تتبع كل أمةٍ ما كانت تعبد . قالوا : يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم و لم نصاحبهم . فيقول : أنا ربكم . فيقولون : نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً – مرتين أو ثلاثاً – حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب . فيقول : هل بينكم وبينه آيةً فتعرفونه بها؟ فيقولون : نعم . فيكشف عن ساقٍ فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أُذِنَ له بالسجود ، ولا يبقى من كان يسجد اتقاءً ورياءً إلا جعل الله ظهره طبقةً واحدةً كلما أراد أن يسجد خرَّ على قفاه) متفق عليه وهذا لفظ مسلم ولفظ البخاري (يكشف ربنا عن ساقه) وهو أبين في أن المراد الصفة لأنها جاءت مضافةً إلى الرب جل وعلا .

قال السيوطي : أَخرَج البُخاريّ ، وَابن المنذر ، وَابن مردويه عن أبي سعيد سمعت النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم يقول : يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمنٍ ومؤمنةٍ ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياءً وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً. وأخرج ابن مندة في الرد على الجهمية عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ قال : يكشف الله عز وجل عن ساقه. وَأخرَج عبد الرزاق ، وعَبد بن حُمَيد ، وَابن المنذر ، وَابن منده عن ابن مسعود في قوله ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ قال عن ساقيه تبارك وتعالى ، قال ابن منده : لعله في قراءة ابن مسعود يكشف بفتح الياء وكسر الشين. انتهى

وقال إبراهيم النخعي قال ابن مسعود : يكشف عن ساقه فيسجد كل مؤمن ويعصو ظهر الكافر فيصير عظماً واحداً. ذكره السيوطي أيضاً .

وقال مقاتل : قال ابن مسعود في قوله ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ يعني فيضئ نور ساقه الأرض فذلك قوله ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾من (٦٩) سورة الزمر يعني نور ساقه اليمين هذا قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .انتهى من تفسيره .

وروى عبد الرزاق الصنعاني عن بن مسعود في قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ قال : عن ساقه ، يعني ساقه تبارك وتعالى .

وقيل ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ عن شدة الأمر ، وهو قول بن عباس وتلاميذه سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة وهو قول قتادة . وكان قتادة يأخذ عن بعض تلاميذ بن عباس كعكرمة مولى بن عباسٍ كما ذكر الذهبي في سيره وذكر بن الجوزي في صفة الصفوة أنه كان يحدث عن مجاهد وسعيد بن جبير مرسلاً ، فلعل بن عباسٍ لم يبلغه الحديث وتلاميذه أخذوا عنه . فقال بن عباسٍ : يُكْشَفُ عن أمرٍ عظيمٍ شديدٍ مفظعٍ من الهول يوم القيامة ، وهي أشد ساعةٍ في يوم القيامة. وقال مرةً : شدّة الأمر . وعن قتادة : عن أمرٍ فظيعٍ جليل . وعن عكرمة : هو يومُ كربٍ وشدّة.

والعرب تقول : كشف هذا الأمرُ عن ساق : إذا صار إلى شدّة .

وتقول : قامَتِ الحَرْبُ بنا على ساق . يعني اشتدت .

وقال جد طرفة بن العبد : كَشَفَتْ لَهُمْ عَن ساقِها وَبَدَا مِنَ الشَّرِّ الصَّرَاحُ

ولا تناقض والحمد لله بين القولين ، فإن الذي فسرها من السلف باشتداد الأمر لم ينكر الحديث ، ولم ينكر أن لله ساقاً تليق بجلاله وعظمته ، ولعلهم رأوا أن هذا الحديث ليس هو تفسير الآية هنا ، وإنما هو في موقفٍ آخر من مواقف القيامة ، ولذلك عادوا في تفسيرها إلى كلام العرب ، وربما منعهم من القول بمضمون

الحديث عدم بلوغهم إياه ، وسبب الخلاف في هذه الآية هل هي من آيات الصفات أم لا ؟ أن الله جل وعلا لم يضف الساق إلى نفسه العلية وإنما قال ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ و لم يقل (ساقي) ومعلومٌ عن السلف واتباعهم أنهم لا يثبتون لله من الأسماء والصفات إلا ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله ، ولذلك فإن الذين قالوا أن المراد ساق الله جل وعلا لم يثبتوه من معنى هذه الآية وإنما من حديث النبي صلى الله عليه وسلم وجعلوه تفسيراً للآية ، ولذلك كان قولهم أرجح من قول من رجع إلى كلام العرب ، لأن الرجوع إلى كلام الله وكلام رسوله مقدمٌ على قول كل أحدٍ كائناً من كان وقد قال الله تعالى ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩ ﴾ من (٥٩) سورة النساء

قال الشوكاني في تفسيره : وقد أغنانا الله سبحانه في تفسير هذه الآية بما صح عن رسول الله كما عرفت وذلك لا يستلزم تجسيماً ولا تشبيهاً ، فليس كمثله شيء .

دعوا كل قولٍ عند قول محمدٍ فما آمنٌ في دينه كمخاطر . انتهى .

قال بن تيمية : و لم يتنازع الصحابة والتابعون فيما يذكر من آيات الصفات إلا في هذه الآية ، بخلاف قوله ﴿ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ ﴾ من (٧٥) سورة ص ﴿ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ﴾ من (٢٧) سورة الرحمن ونحو ذلك ، فإنه لم يتنازع فيها الصحابة والتابعون ، وذلك أنه ليس في ظاهر القرآن أن ذلك صفة لله تعالى لأنه قال ﴿ يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ ﴾ و لم يقل عن ساق الله ، ولا قال : يكشف الرب عن ساقه ، وإنما ذكر ساقاً نكرة غير معرفةٍ ولا مضافة .

وهذا اللفظ بمجرده لا يدل على أنها ساق الله ، والذين جعلوا ذلك من صفات الله تعالى أثبتوه بالحديث الصحيح المفسر للقرآن وهو حديث أبي سعيد الخدري المخرج في ((الصحيحين)) الذي قال فيه (فيكشف الرب عن ساقه). وقد يقال: إن ظاهر القرآن يدل على ذلك ، من جهة أنه أخبر أن يكشف عن ساقٍ ويدعون إلى السجود ، والسجود لا يصلح إلا لله ، فعلم أنه هو الكاشف عن ساقه ، وأيضاً فحمل ذلك على الشدة لا يصلح ، لأن المستعمل في الشدة أن يقال : كشف الله الشدة أي : أزالها . كما قال ﴿ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ٥٠ ﴾ من (٥٠) سورة الزخرف وقال ﴿ وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٥ ﴾ سورة المؤمنون وإذا كان المعروف من ذلك في اللغة أنه يقال : كشف الشدة أي: أزالها فلفظ الآية ﴿ يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ ﴾ وهذا يراد به الإظهار والإبانة ، وأيضاً هناك تحدث الشدة لا إزالتها

فلا تكشف الشدة يوم القيامة . لكن هذا الظاهر من كون القرآن دالاً على الصفة ليس ظاهراً من مجرد لفظة (ساق) بل بالتركيب والسياق وتدبر المعنى المقصود . انتهى من بيان تلبيس الجهمية .

وقال بن القيم : والصحابة متنازعون في تفسير هذه الآية : هل المراد الكشف عن الشدة ؟ أو المراد بها أن الرب تعالى يكشف عن ساقه ؟ ولا يحفظ عن الصحابة والتابعين نزاع فيها يذكر أنه من الصفات أم لا في غير هذا الموضوع ، وليس في ظاهر القرآن ما يدل على أن ذلك صفةً لله ، لأنه سبحانه لم يضف الساق إليه وإنما ذكره مجردًا عن الإضافة منكرًا ، والذين أثبتوا ذلك صفةً كاليدين والأصبع لم يأخذوا ذلك من ظاهر القرآن ، وإنما أثبتوه بحديث أبي سعيد الخدري المتفق على صحته وهو حديث الشفاعة الطويل وفيه (فيكشف الرب عن ساقه فيخرون له سجداً) ومن حمل الآية على ذلك قال : قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ مطابق لقوله صلى الله عليه وسلم (فيكشف عن ساقة فيخرون له سجداً) وتنكيره للتعظيم والتفخيم ، كأنه قال : يكشف عن ساقٍ عظيمةٍ ، جلت عظمتها وتعالى شأنها أن يكون لها نظيرٌ أو مثلٌ أو شبيه ، قالوا : وحمل الآية على الشدة لا يصح بوجهٍ ، فإن لغة القوم في مثل ذلك أن يقال : كشف الشدة عن القوم لا كشف عنها كما قال تعالى ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ من (٥٠) سورة الزخرف وقال ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ ﴾ من (٧٥) سورة المؤمنون فالعذاب والشدة هو المكشوف لا المكشوف عنه ، وأيضاً فهناك تحدث الشدة وتشتد ، ولا تزال إلا بدخول الجنة وهناك لا يدعون إلى السجود ، وإنما يدعون إليه أشد ما كانت الشدة . انتهى من الصواعق المرسلة .

ومن هنا يعلم أنه ليس للمعطلة حجة في هذا التفسير الوارد عن السلف ، وأن السلف لم يعطلوا الصفات لكنهم اختلفوا هل هذه الآية من آيات الصفات أم لا ، بخلاف من يذهب إلى آيات الصفات الثابتة الواضحة البينة فيعطلها ويؤولها إلى معانٍ آخر ، فليس هذا مذهباً للسلف حاشاهم ، بل هو مذهب المبتدعة المعطلة فلا يلتفت إليه .

﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ خشعت أبصارهم عند معاينة العذاب وغشيتهم الذلة ، وذلك أنهم كانوا في الدنيا يدعون إلى السجود وهم أصحاء فيمتنعون وقيل سالمون أي آمنون يعني ليس حالهم في الدنيا كحالهم في يوم القيامة الذي فيه الخوف والفزع . قال بن عباسٍ : هم الكفار

كانوا يدعون في الدنيا وهم آمنون ، فاليوم يدعوهم وهم خائفون . وقال الطبري : أي قد كانوا في الدنيا يدعونهم إلى السجود له وهم سالمون ، لا يمنعهم من ذلك مانع ، ولا يحول بينه وبينهم حائل.

وقيل المراد بالسجود هنا الصلاة المكتوبة قال سعيد بن جبير : يَسْمَعُ المنادي إلى الصلاة المكتوبة فلا يجيبه. وقال إبراهيم التيمي : الصلاة المكتوبة . وقال مقاتل : يؤمرون بالصلاة الخمس . انتهى. وكأن مقاتل والتيمي يرون أنهم تركوا الصلاة بالكلية . ويرى سعيد أنهم تركوا صلاة الجماعة . وقال كعب الأحبار: والله ما نزلت هذه الآية إلا في الذين يتخلفون عن الجماعات. وروي عن إبراهيم التيمي أنه قال : أي يدعون بالأذان والإقامة فيأبونه. وقال الطبراني : كَانُوا يُدعَون بالأذانِ في الدُّنيا ، ويُؤمَرون بالصلاةِ المكتوبَة . انتهى يعني فلا يجيبون . ويمكن أيضاً أن يكون قول سعيد فلا يجيبه أي لا يصلي مطلقاً ومثله قول التيمي الأخير ولاشك أن صلاة الجماعة واجبة وأنها تركها بلا عذرٍ محرمٌ يوجب العقوبة . ولكن تركها بالكلية كفر .

﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ﴾ أي دعهم إليَّ وهذا من باب التهديد والوعيد أي أنا الذي سوف أجازيهم وانتقم منهم . والحديث القران ، وقيل يوم القيامة أي ما ذكرناه يكون في يوم القيامة مما تقدم .

﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ وهذا الاستدراج هو أن يمتعهم في الدنيا ويرزقهم أموالاً وبنين وصحة حتى يعتقدون أن ذلك من كرامتهم عند الله فيستمرون على طغيانهم حتى يفاجئهم بالعذاب . قال ابن عباس : سنمكر بهم . وقال سفيان الثوري : نسبغ عليهم النعم وننسيهم الشكر . وقال الحسن : كم مستدرجٍ بالإحسان إليه ، وكم مفتونٍ بالثناء عليه ، وكم مغرورٍ بالستر عليه . وقال أبو روق : أي كلما أحدثوا خطيئةً جددنا لهم نعمةً وأنسيناهم الاستغفار . ذكر هذه الأقوال القرطبي في تفسيره . وقال في القاموس المحيط : استدراج الله العبد أنه كلما جدد خطيئةً جدد له نعمةً وأنساه الاستغفار ، أو أن يأخذه قليلاً قليلاً ولا يباغته . انتهى . وقال في لسان العرب : معناه سنأخذهم قليلاً قليلاً ولا نباغتهم . وقيل : سنأخذهم من حيث لا يحتسبون ، وذلك أن الله تعالى يفتح عليهم من النعيم ما يغتبطون به فيركنون إليه ويأنسون به فلا يذكرون الموت فيأخذهم على غِرَّتِهم أغفل ما كانوا . انتهى

﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ أي أمهلهم وأنسأ في آجالهم ولا أستعجل عليهم بالعذاب ، ذلك أن ﴿ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ أي قويٌ شديد . قال في المعجم الوسيط : الكيد إرادة مضرة الغير خفيةً ، وهو من الخلق الحيلة السيئة ، ومن الله التدبير بالحق مجازاة أعمال الخلق . انتهى . وزاد في معجم اللغة العربية المعاصر : أو إبطال

خطة الخصم . انتهى . قال بن منظور : والكيد : التدبير بباطلٍ أو حق . انتهى . ومعلومٌ أن تدبير الكفار بباطل ، وتدبير الله بحق ، وهو معنى قول أهل المعاجم : ومن الله التدبير بالحق مجازاة أعمال الخلق . أي مجازاةً لهم وعقوبةً على إرادتهم السوء بالمؤمنين وبدين الله تعالى وذلك عين الحق والعدل .

﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ أم أنك تسألهم مالاً أجرةً على دعوتهم فهم بسبب تلك الأجرة مكلفون حملاً ثقيلاً لا يطيقونه فامتنعوا بسبب ذلك الحمل من إجابتك إلى ما دعوتهم إليه . وهذا من باب التبكيت لهم أي إنك لا تسألهم ذلك ، وليس عليهم كلفة في تقبل دعوتك كما قال تعالى ﴿ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ سورة يوسف وقال تعالى ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾ سورة الفرقان وقال تعالى ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ سورة سبأ وقال تعالى ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ سورة ص

﴿ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ أم اطلعوا على علم الغيب فصاروا يكتبون للناس ما رأوه وما علموه من الغيب . وهو من باب المحاجة بما ليس عند الخصم ، أي ليس عندهم ذلك حتى يكذِّبوا بيوم القيامة وبما جاءهم به النبي صلى الله عليه وسلم . قال القرطبي : قال ابن عباس : أم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون الناس بما فيه . وقال القتبي : يكتبون : يحكمون ، والكتاب : الحكم ، ومنه قوله تعالى ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ من (٥٤) سورة الأنعام أي حكم ، وقوله عليه الصلاة والسلام (والذي نفسي بيده لأحكمن بينكم بكتاب الله) أي بحكم الله .انتهى من تفسير آية الطور وقال في آية القلم ﴿ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ ﴾ أي علم ما غاب عنهم . ﴿ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ وقيل: أيترل عليهم الوحي بهذا الذي يقولون. وعن ابن عباس: الغيب هنا اللوح المحفوظ فهم يكتبون مما فيه يخاصمونك به ، ويكتبون أنهم أفضل منكم ، وأنهم لا يعاقبون . وقيل : يَكْتُبُونَ يحكمون لأنفسهم بما يريدون .انتهى

﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ أي فاصبر لما قضى ربك وحكم به عليك من الرسالة والدعوة والصبر على أذى المشركين وقيل المعنى : اصبر يا محمد على أذى قومك لك وتكذيبهم إياك ، فإن الله سيحكم لك عليهم وسيجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة .

﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ ﴾ إذ استعجل هلاك قومه و لم يصبر . قال قتادة ومقاتل : لا تعجل كما عَجِلْ ولا تغاضب كما غاضب . وصاحب الحوت هو يونس بن متى عليه السلام من أهل نينوى ، وذلك أنه لم يصبر على أذى قومه وغضب عليهم واستعجل بالخروج فخرج و لم يستأذن من ربه ، فعاقبه الله جل وعلا فأرسل على السفينة التي كان على ظهرها ريحاً كادت أن تقلبها ، فرأوا أنه لابد من التخفيف عن السفينة حتى لا تغرق ، فاستهموا فخرج السهم على يونس فأُلقيَّ أو فألقى نفسه في البحر ، وأرسل الله حوتاً فابتلعه فنادى ربه وهو في بطن الحوت ﴿ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ قال بن عباسٍ ومجاهد ﴿ مَكْظُومٌ ﴾ مغموم . وقال عطاء وأبو مالك : مكروب . وقيل : محبوس . كما يقال : كظم غيظه : أي حبسه . لأنه كان محبوساً في بطن الحوت . والأول أولى لقوله تعالى ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ سورة الأنبياء

وقال هنا ﴿ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُۢبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ تداركته رحمة الله ولولا ذلك لطرح في أرضٍ فضاءٍ مهلكة وهو مذمومٌ بسبب ما جرى منه من الذنب .

﴿ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ ولكن الله اصطفاه برحمته وجعله من عباده الصالحين .

قال النبي صلى الله عليه وسلم قال الله تبارك وتعالى (لا ينبغي لعبدٍ لي أن يقول أنا خيرٌ من يونس بن متى) رواياه في الصحيحين وعن بن عباسٍ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما ينبغي لعبدٍ أن يقول أنا خيرٌ من يونس بن متى) متفق عليه وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (من قال أنا خيرٌ من يونس بن متى فقد كذب) رواه البخاري

﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ ﴾ قال بن عباسٍ ومجاهد وقتادة والضحاك : ينفذونك بأبصارهم . قال الضحاك : من العداوة والبغضاء . وقال قتادة : معاداة لكتاب الله ، ولذكر الله. وعن قتادة : ليرهقوك . وعن الكلبي : ليصرعونك . وعن الكلبي والسدي وسعيد بن جبير : يصرفونك عما أنت عليه من تبليغ الرسالة. وعن بن عباسٍ : ليزهقونك . وهي قراءة بن مسعود قال السيوطي : أخرج أبو عبيدة في فضائله وَابن جَرِير عن ابن مسعود أنه قرأ (ليزهقونك بأبصارهم) انتهى. قيل المراد أي يقتلونك بأبصارهم والمراد بالعين . وقال القشيري : في هذا نظر ، لأن الإصابة بالعين إنما تكون مع الاستحسان والإعجاب لا مع

الكراهية والبغض . انتهى. وقال القرطبي : أقوال المفسرين واللغويين تدل على ما ذكرنا ، وأن مرادهم بالنظر إليه قتله ، ولا يمنع كراهة الشيء من أن يصاب بالعين عداوةً حتى يهلك .انتهى.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (العين حق) متفق عليه وقال صلى الله عليه وسلم (العين حق ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين وإذا استغسلتم فاغسلوا) رواه مسلم وعن أم سلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى في بيتها جارية في وجهها سفعة يعني صفرة فقال (استرقوا لها فإن بها النظرة) متفق عليه وعن عائشة رضي الله عنها قالت : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أمر أن يسترقى من العين . رواه البخاري . وعن أبي سعيد أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد اشتكيت ؟ فقال : نعم . قال (بسم الله أرقيك ، من كل شيءٍ يؤذيك ، من شر كل نفسٍ أو عين حاسد ، الله يشفيك ، باسم الله أرقيك) رواه مسلم وعن عائشة قالت كان إذا اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم رقاه جبريل قال (باسم الله يبريك ، ومن كل داءٍ يشفيك ، ومن شر حاسدٍ إذا حسد ، وشر كل ذي عين) رواه مسلم

وقال صلى الله عليه وسلم (إذا رأى أحدكم من نفسه أو ماله أو من أخيه ما يعجبه فليدع له بالبركة فإن العين حق) رواه الطبراني والحاكم وصححه الألباني انظر حديث رقم : ٥٥٦ في صحيح الجامع

قال السيوطي : وأخرج أبو نعيم في الحلية عَن جَابرٍ أن النَّبيّ صلى الله عليه وسلم قال (العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر) وأخرج البزار عَن جَابر أن النَّبيّ صلى الله عليه وسلم قال (أكثر من يموت من أمتي بعد قضاء الله وقدره بالعين) . ذكره في الدر المنثور .

وقال الطبري : اختلفت القرّاء في قراءة قوله﴿ لَيُزْلِقُونَكَ ﴾ فقرأ ذلك عامة قراء المدينة (لَيَزْلِقُونَكَ) بفتح الياء من زلقته أزلقه زَلْقاً. وقرأته عامة قرّاء الكوفة والبصرة ﴿ لَيُزْلِقُونَكَ ﴾ بضم الياء من أزلقه يُزْلِقه. والصواب من القول في ذلك عندي أنهما قراءتان معروفتان ، ولغتان مشهورتان في العرب متقاربتا المعنى ، والعرب تقول للذي يحْلِق الرأس : قد أزلقه وزلقه ، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب. انتهى.

ويمكن أن يكون المراد : ينظرون إليك نظر الذي يتربص بالشر . ومقصودهم إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم قال بن كثير ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ ﴾: أي: يزدرونه بأعينهم ويؤذونه بألسنتهم . انتهى. وقوله ﴿ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ ﴾ أي لَّما سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يتلوا القران أرادوا إيذائه بأبصارهم وألسنتهم وقالوا : إن محمداً لمجنون . يعني وهذا الذي يتلوه من

الهذيان الذي يَهْذِي به في جنونه . فردَّ الله عليهم ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ ليس بهذيان ولكنه ذكرٌ للعالمين يذكِّرَهُمْ به ويهديهم به إلى صراطٍ مستقيم . وقيل ذكرٌ أي شرف كما قال ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ من (٤٤) سورة الزخرف أي شرف ، يتشرف به من أراد الله رفعته من العالمين كما في الحديث (إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين)

من فوائد السورة :

أولاً / عظم منزلة القلم والكتابة فإن الله أقسم بهما في كتابة والله لا يقسم إلا بعظيمٍ عنده ، ويكفي في فضلهما أنهما من أول ما خلق الله فإنه خلق القلم وقال اكتب فكتب في اللوح المحفوظ الأقدار قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة فكان أول قلمٍ وأول كتاب ، ومن فضائلهما أنه بهما يحفظ العلم والدين وتقيد الفوائد وتكتب الوصايا ولولاهما لضاع العلم وبقي الجهل لكن الله امتن بهما على عباده ليحفظ لهم دينهم وعلومهم وليستفيدون منهما في شتى أمور الحياة ، فلله الحمد والمنة .

ثانياً / فضل الأخلاق الحسنة فإن الله امتدح نبيه فقال ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ قال أنس رضي الله عنه: كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقاً . وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لَّما سئلت عن خلق النبي صلى الله عليه وسلم قالت : كان خلقه القران . وقال النبي صلى الله عليه وسلم (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) وفي رواية (صالح الأخلاق) رواه البخاري في الأدب المفرد وحسنه الألباني وقال (أثقل شيءٍ في ميزان المؤمن يوم القيامة حسن الخلق ، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء) رواه البخاري في الأدب المفرد وصححه الألباني وعن نواس بن سمعان الأنصاري رضي الله عنه أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البر والإثم ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم (البر حسن الخلق والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس) رواه البخاري في الأدب المفرد وصححه الألباني وقال النبي صلى الله عليه وسلم (ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة) صححه الألباني انظر حديث رقم (٥٧٢٦) في صحيح الجامع. وعن عائشة رضي الله عنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم) رواه أبو داود وغيره وصححه الألباني انظر صحيح الجامع حديث رقم (١٩٣٢) وقال صلى الله عليه وسلم (إن من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون . قالوا : يا رسول الله ما المتفيهقون ؟ قال : المتكبرون). رواه الترمذي وحسنه الألباني انظر حديث رقم: ٢٢٠١ في صحيح الجامع.

ثالثاً / أن العزم المؤكد كالفعل فمن عزم أن يفعل الذنب غير مترددٍ في عزيمته فإنه يستحق العقوبة ولذلك لـــمَّا عزم أهل الجنة غير مستثنين على منع المساكين من الزكاة عاقبهم الله قبل أن ينفذوا فعلتهم وقد قال تعالى ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ من (٢٥) سورة الحج وقال النبي صلى الله عليه وسلم (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار) قلت يا رسول الله : هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال (إنه كان حريصاً على قتل صاحبه) متفق عليه

رابعاً / أن السلف يثبتون الصفات ولا يفوضون معانيها كما يزعم المعطلة وإنما يفوضون كيفيتها كما قال الإمام مالك لما سئل : الرحمن على العرش استوى كيف استوى؟ فقال : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . ثم قال للسائل : ما أراك إلا مبتدع . فأمر به فأُخْرِجَ من عنده .

خامساً / عظيم منزلة الصلاة عند الله تعالى وأن الذين يمتنعون عن الصلاة والسجود لله في الدنيا وهم أصحاء آمنون يعاقبهم الله فيمنعهم من السجود له أحوج ما كانوا إليه يوم القيامة ، فينبغي الحذر من التهاون في الصلاة وتركها بالكلية أو ترك صلاة الجماعة فإن بعض السلف قد فسر الآية ﴿ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ بأنهم كانوا يدعون إلى صلاة الجماعة بالأذان والإقامة فيمتنعون .

سادساً / أن النعيم الذي يعطاه الإنسان في الدنيا من المال والبنين والصحة والجاه ونحو ذلك ليس دليلاً على محبة الله ، فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الآخرة إلا من يحب ، ولربما كان هذا النعيم الذي يعطاه الإنسان مع عصيانه واستمراره على المعاصي دليل بغضٍ واستدراجٍ إلى العذاب .

سابعاً / أنه ينبغي على الداعية والناصح والمرشد أن لا يسأل الناس شيئاً مقابل دعوته ولا يبتغي بدعوته غرضاً من أغراض الدنيا وإنما يطلب الأجر والثواب من الله جل وعلا فهذا هو حال الرسل عليهم الصلاة والسلام والواجب الاقتداء بهم .

ثامناً / أن الله قد يعاقب الرجل الصالح في الدنيا على الذنب الذي يقترفه ولو كان صغيراً أكثر مما يعاقب الرجل الفاسق على الذنب الكبير ، وذلك لأن الله يحب الرجل الصالح فيعجل له العقوبة في الدنيا ليتوب وليستغفر وليرجع إلى ربه ولِيُكَفِرَ عنه ذنبه بتلك العقوبة ، ثم يرفع عنه العقوبة . وأما الفاسق فقد يدخر له العقوبة في الآخرة ، وقد يؤخره حتى تجتمع عليه الذنوب فيأخذه في الدنيا أخذةً قاصمة .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الحاقة

سورة الحآقة مكية وآياتها (٥٢)

﴿ ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ ﴾ الحاقة من أسماء يوم القيامة سميت بذلك لأنها ستقع حقاً ويتحقق فيها الوعد والوعيد . مأخوذة من حقَّ الشيء إذا ثبت وجوده ثبوتاً لا يحتمل الشك . وقيل : لأنها أحقت لأقوامٍ الجنة ولأقوامٍ النار . وقيل : لأن فيها يصير كل إنسان حقيقاً بجزاء عمله . قال بن عباس : من أسماء يوم القيامة ، عظَّمه الله وحذَّره عباده. وهو قول عكرمة والضحاك . وقال قتادة : الساعة أحقت لكل عاملٍ عمله. انتهى. والتكرار للتعظيم والتهويل والتخويف من أمرها وشأنها .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ ﴾ القارعة القيامة أيضاً سميت بذلك لأنها تقرع القلوب بأهوالها .

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ ﴾ ثمود وهم قوم صالح أهلكهم الله بالصيحة . وهو قول بن عباسٍ وقتادة والكلبي . وقال مجاهد والحسن ومقاتل وابن زيد : أي عذبوا بطغيانهم أي بذنوبهم كما قال تعالى ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ ﴾أي بطغيانها . وقال السدي : الطاغية عاقر الناقة . أي أهلكوا بسببه . لأنهم مالئوه على فعله ورضوا به . وقيل له طاغية كما يقال : فلانٌ راوية وداهية وعلامة ونسابة . ورجح الطبري الأول لسياق الآيات فإنه أخبر في الآية بعدها أنه أهلك عاداً بالريح وهذا نوع العذاب الذي أصابهم لا سببه فكذلك ثمود ينبغي أن يكون المذكور عنهم هو نوع العذاب لا سببه ليتناسب سياق الآيات.

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ ﴾ وأما عادٌ وهم قوم هود عليه السلام فقد أهلكهم الله بريحٍ ﴿ صَرْصَرٍ ﴾ وهي الريح شديدة الصوت والهبوب والبرد كما قال تعالى ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾ من (١١٧) سورة آل عمران قال بن الأنباري : فيها ثلاثة أقوال : أحدها فيها صر أي برد. والثاني فيها تصويت وحركة . وروي عن بن عباس : فيها نار . ذكره في لسان العرب . وقيل مراده : تحرق ببردها كإحراق النار . وقال تعالى ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ ﴾من (٢٩) سورة الذاريات يعني في صيحة . وقال عكرمة ومقاتل وقتادة والضحاك: صرصر : باردة . وقال مجاهد وابن زيد : شديدة . وقال الطبري : هي الشديدة العصوف مع شدة بردها.

وقال بن كثير : قال بعضهم : هي الشديدة الهبوب. وقيل : الباردة. وقيل : هي التي لها صوت. والحق أنها متصفة بجميع ذلك . انتهى

﴿ عَاتِيَةٍ ﴾ تجاوزت الحد المعتاد من مقدارها المعروف في الهبوب والبرد .

وقيل : عتت على عادٍ فما قدروا على ردها بحيلةٍ من استتارٍ ببيت واستنادٍ إلى جبل ، فإنها كانت تزعجهم من مكانهم حتى أهلكتهم . وهو مرويٌ عن بن عباسٍ وعطاء ، وقال بن عباسٍ والضحاك : عتت عليهم بلا رحمةٍ ولا بركة . وقال قتادة : عتت عليهم حتى نقَّبت عن أفئدتهم .

وقيل : عتت على خُزَّانِها . وهو مرويٌ عن علي وبن عباس وعكرمة ومقاتل وبن عيينة . قال بن عباسٍ : ما أرسل الله من ريحٍ قطّ إلا بمكيال ، ولا أنزل قطرةً قطّ إلا بمثقال ، إلا يوم نوحٍ ويوم عادٍ فإن الماء يوم نوحٍ طغى على خزانه فلم يكن لهم عليه سبيل ثم قرأ ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ ﴾ سورة الحاقة وإن الريح عتت على خزّانها فلم يكن لهم عليها سبيل ثم قرأ ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ أخرجه بن جرير وعبد بن حميد والفريابي كما قال في الدر المنثور . وأخرج ابن عساكر عن قبيصة بن ذؤيب قال : ما يخرج من الريح شيء إلا عليها خزان يعلمون قدرها وعددها ووزنها وكيلها ، حتى كانت التي أرسلت على عاد فإنه تدفق منها شيء لا يعلمون قدره ولا وزنه ولا كيله غضباً لله تعالى ، ولذلك سميت عاتية ، والماء كذلك حتى كان أمر نوح فلذلك سمى طاغيا .

وأراد بعضهم الجمع بين الأقوال فقال الطبري : عتت على خزانها في الهبوب ، فتجاوزت في الشدّة والعصوف مقدارها المعروف في الهبوب والبرد. انتهى. وقال السعدي : عتت على خزانها ، على قول كثيرٍ من المفسرين ، أو عتت على عادٍ وزادت على الحد كما هو الصحيح . انتهى.

وقيل ﴿ عَاتِيَةٍ ﴾ أي بلغت غايتها ومنتهاها ، يعني في القوة والشدة . من قولهم : عتا النبت ، أي بلغ منتهاه وجف ، ومنه قول زكريا عليه السلام ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ من (٨) سورة مريم قال القرطبي : يعني النهاية في الكبر واليبس والجفاف . انتهى. يعني بلغت منتهى العمر . وقال بن جرير : كل متناهٍ إلى غايته في كبرٍ أو فسادٍ أو كفرٍ فهو عاتٍ . انتهى .

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ أي أرسلها وسلطها عليهم مدة ثمانية أيام وسبع ليالٍ متتابعة لا تفتر ولا تنقطع عنهم بدأت في أول نهار اليوم الأول وانتهت مع آخر نهار اليوم الثامن ، وقد حاول بعضهم تحديد هذه الأيام فقال الربيع بن أنس بدأت غداة يوم الجمعة ، وقال السدي بدأت غداة يوم الأحد وقال يحي بن سلام بدأت غداة يوم الأربعاء ، ولا دليل فيما نعلم على هذه الأقاويل ، وليس في معرفتها كبير فائدة ، ولذلك أعرض عنها الشارع فلم يذكرها .

قال بن مسعود وبن عباس ومجاهد وعكرمة ﴿ حُسُومًا ﴾ أي متتابعات . وعن قتادة : دائمات . وعن بن عباس : دائمة شديدة . وقال مقاتل : كاملة دائمة لا تفتر عنهم فيهن .

وقيل ﴿ حُسُومًا ﴾ أي مستأصلة من قولك حسمت الشيء إذا قطعته وفصلته عن غيره . والمعنى أنها حسمتهم أي قطعتهم وأذهبتهم واستأصلتهم . قال ابن زيدٍ : حسمتهم فلم تبق منهم أحدا.

وقيل ﴿ حُسُومًا ﴾ أي مشائيم كما قال تعالى ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ من (١٦) سورة فصلت وهو قول عكرمة والربيع بن أنس والليث وعطية العوفي . ذكره القرطبي .

ورجح الطبري الأول ، وأرى أن الجمع ممكن وهو أولى فهي متتابعة وكانت شؤماً عليهم وقد استأصلتهم .

﴿ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾ فتشاهد أولئك القوم في تلك الريح ﴿ صَرْعَىٰ ﴾ جمع صريع وهو الميت أي موتى ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ ﴾ أي أصول نخلٍ ﴿ خَاوِيَةٍ ﴾ أي بالية خربة خاوية الأجواف .

قال بن عباسٍ ﴿ أَعْجَازُ نَخْلٍ ﴾ أصولها ﴿ خَاوِيَةٍ ﴾ خربة . وعن قتادة : هي أصول النخل قد بقيت أصولها وذهبت أعاليها. وقال مقاتل : أصول نخلٍ بالية ، التي ليست لها رؤوس ، وبقيت أصلوها وذهبت أعناقها . قال بن كثير : جعلت الريح تضرب بأحدهم الأرض فيخر ميتًا على أم رأسه ، فينشدخ رأسه وتبقى جثته هامدةً كأنها قائمة النخلة إذا خرت بلا أغصان .انتهى.

﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ ﴾ هل تشاهد لهم بقية ؟ استفهامٌ بمعنى النفي ، أي لم تُبْقِ الريح منهم أحداً بل أهلكتهم جميعاً . وباقية مصدر مثل طاغية وداهية وراوية (بقي يبقي بقاءً وباقيةً وبقية)

﴿ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ ﴾ قال الطبري : واختلفت القرأة في قراءة قوله ﴿ وَمَن قَبْلَهُۥ ﴾ فقرأته عامة قرأة المدينة والكوفة ومكة خلا الكسائي ﴿ وَمَن قَبْلَهُۥ ﴾ بفتح القاف وسكون الباء بمعنى وجاء من قبل فرعون من الأمم المكذبة بآيات الله كقوم نوحٍ وعادٍ وثمود وقوم لوطٍ بالخطيئة . وقرأ ذلك عامة قرأة البصرة والكسائي (وَمَنْ قِبَلَه) بكسر القاف وفتح الباء بمعنى وجاء مع فرعون أهل بلده مصر من القبط . والصواب من القول في ذلك عندي أنهما قراءتان صحيحتا المعنى فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب . انتهى

﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ ﴾ المؤتفكات جمع مؤتفكة مؤنث ومذكرها مؤتفك وهو مصدر (أفك يأفك إفكاً وأفاكاً ومؤتفكاً) والأفك يطلق على قلب الشيء وصرفه عن وجهته ، ومنه الكذب ، لأنه صرفٌ للأمر وقلبٌ له عن حقيقته . وقيل يطلق على أشد الكذب ومنه قصة الإفك وقال تعالى ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾ سورة الجاثية أي كذاب . وقوله تعالى ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾ من (٢٢) سورة الأحقاف أي لتصرفنا عن عبادتها . وقوله تعالى ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ ﴾ سورة الذاريات أي يصرف عنه من صرف .

ويطلق على الأرض المقلوبة مؤتفكة ومنه ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾ سورة النجم يعني المنقلبة وهي قرية قوم لوط لأنها صرفت عن وجهها وَقلبت فجُعِلَ عاليها سافلها ، وجمعت ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ ﴾ قيل لأن لهم أكثر من قرية قيل ثلاث وقيل أربع وقيل خمس يعني متقاربة وقلبت جميعاً . قال السيوطي : أخرج إسحاق بن بشر وَابن عساكر عن ابن عباس قال : أرسل لوط إلى المؤتفكات وكانت قرى لوط أربع مدائن . سدوم وأمورا وعامورا وصبوير . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه قال : ذكر لنا أنها ثلاث قرى . وأخرج ابن جرير ، وَابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي : كن خمساً صنعة وصغرة وعصرة ودوما وسدوم وهي القرية العظمى. انتهى

وقيل ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ ﴾ المكذبات وهو مرويٌ عن بن عباسٍ ومقاتل يعني الأمم المكذبة . وهذا مقبولٌ لغةً كما تقدم ، لكن الأكثر على أن المراد قرى قوم لوط .

﴿ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴾ يعني بالخطايا والذنوب . قال مجاهد : بالخطايا .

﴿ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ ﴾ بَيَّنَ الخاطئة هنا بأنها المعصية فقال ﴿ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾ والرسول هنا اسم جنس أي عصوا رسل ربهم ، ويمكن أن يكون المعنى أن كل أمةٍ عصت رسولها فأفرد رسول لذلك.

﴿ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾ أي شديدة زائدة عن الأخذات ، من الربا وهو الزيادة ربا يربوا ربواً ورباءً ورابية مثل داهية وراوية وطاغية . ومنه قوله تعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ من (٣٩) سورة فصلت أي زادت وعلت وانتفخت . ومنه ﴿ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ ﴾من (٢٧٦) سورة البقرة يعني يزيدها وينميها .

قال بن عباسٍ ومجاهد ومقاتل ﴿ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾: أي شديدة .

﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ ﴾ أي لَّما زاد الماء وكثر وارتفع عن القدر المعتاد ، من الطغيان وهو مجاوزة الحد . قال مجاهد: أي كثر . وقيل المراد به الطوفان الذي أُغْرِقَ الله به قوم نوح فإنه ارتفع حتى على الجبال . قال قتادة: بلغني أنه طغى فوق كل شيء خمسة عشر ذراعاً .

﴿ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ ﴾ أي حملناكم على السفينة التي تجري على الماء فلم تغرقوا . قال مجاهد والسدي ﴿ ٱلْجَارِيَةِ ﴾ السفينة . انتهى . قيل هي سفينة نوح ، وإنما قال حملناكم و لم يقل حملناهم . قال المفسرون : لأن الذين خوطبوا بذلك هم ولد الذين حملوا في الجارية ، فكان حمل الأجداد حملاً لذريتهم ، ولو هلك الأجداد لما بقي ذرية . فإن كل من بقي على الأرض هو من نسل أولئك ، كما قال تعالى ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ من (٣) سورة الإسراء

﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً ﴾ لنجعل تلك القصة وهي قصة نوح عليه السلام وقومه أو نجعل تلك السفينة تذكرة تتذكرون بها قدرة الله تعالى حين أهلك الطغاة المكذبين فتخافون منه وتخشونه وترجعون إليه. قال السدي : أي تذكرون ماصنع بهم حيث عصوا نوحاً . وقال قتادة : عبرةً وآية أبقاها الله حتى نظرت إليها هذه الأمة وكم من سفينة غير سفينة نوح صارت رمما. ونحوه قال بن جريج .

﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾ أي وتحفظها أذنٌ حافظة . يقال وعيت العلم والكلام إذا حفظته . قال في جمهرة اللغة : وعى العلم يعيه وعياً إذا حفظه وفي التنزيل ﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾ وأوعى المتاعَ يُوعِيه إيعاءً إذا جمعه في وِعاء وفي التنزيل ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾سورة المعارج .انتهى. قال الزجاج : يقال لكل ما حفظته في غير نفسك: أوعيته بالألف ، ولما حفظته في نفسك : وعيته . بغير ألف .انتهى . وليس المقصود مجرد الحفظ بل القبول والانتفاع بهذا المحفوظ . قال في المعجم الوسيط : وعى الشيء جمعه في وعاء ، والحديث حفظه وفهمه وقبله

والأمر أدركه على حقيقته .انتهى. ولذلك قيل : سمعتها الآذان ووعتها القلوب . قال بن أبي زمنين : المؤمن سمع التذكرة فوعاها بقلبه .انتهى. وقال مقاتل : يعنى حافظة لما سمعت فانتفعت بما سمعت من الموعظة . وعن قتادة قال : أذنٌ عقلت عن الله فانتفعت بما سمعت من كتاب الله . وعنه : سمعت وعقلت ما سمعت وأوعت وعن الضحاك : سمعتها أذنٌ ووعت . وقال بن عباسٍ ومجاهد والسدي : حافظة . وعن بن عباسٍ ومجاهد : سامعة . وقال السدي ﴿ وَتَعِيَهَآ ﴾ تحصيها .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ ﴾ فإذا نفخ إسرافيل عليه السلام ﴿ فِي ٱلصُّورِ ﴾ هو القرن الذي يؤمر أن ينفخ فيه ﴿ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴾ وهي النفخة الأولى نفخة القيامة .

﴿ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ١٤ ﴾ أي رفعتا ثم دقتا فكسرتا فتهدمتا فتفتتا وسويتا في الانفراش . وهذا من إعجاز القران حيث يأتي بالكلمة الدالة على معانٍ كثيرةٍ كلها مقصودة ، فإن الدك في اللغة يطلق على : الدق والتكسير والهدم والتفتيت والتسوية . قال في المعجم الوسيط: دكه دكاً دقه ودفعه والبناء ونحوه هدمه حتى سواه بالأرض ، والأرض سوى صعودها وهبوطها . انتهى . وقال في مختار الصحاح : الدّكُّ الدق وقد دكَّهُ إذا ضربه وكسره حتى سواه بالأرض . انتهى . وقال الفيروز أبادي : الدَّكُّ : الدَّقُّ والهَدْمُ وما اسْتَوَى من الرَّمْلِ كالدَّكَّةِ ج : دِكاكٌ . والمُسْتَوي من المَكانِ ج : دُكوكٌ . وتَسْوِيَةُ صَعودِ الأَرْضِ وهَبوطِها وقد انْدَكَّ المَكانُ وكَبْسُ التُّرابِ وتَسوِيَتُه ، ودَفْنُ البِئْرِ وطَمُّها . انتهى . وقال في المحكم : وأرض مدكوكة : إذا كثر بها الناس ورعاة المال حتى يفسدها ذلك ... ودكته الحمى دكاً : أضعفته . انتهى .

قال مقاتل ﴿ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴾ فكسرتا كسرة واحدة . وقال بن الجوزي : أي كسرتا ودقَّتا دقَّةً واحدة لا يثنى عليها حتى تستوي بما عليها من شيءٍ فتصير كالأديم الممدود . انتهى من زاد المسير . وقال البغوي : كسرتا كسرة واحدة فصارتا هباءً منثورا .انتهى. وقال القرطبي : أي فتتا وكسرتا .انتهى. وقال الشوكاني : أي : فكسرتا كسرة واحدة لا زيادة عليها أو ضربتا ضربة واحدة بعضهما ببعض حتى صارتا كثيباً مهيلاً وهباءً منبثاً . قال الفراء : و لم يقل فدككن لأنه جعل الجبال كلها كالجملة الواحدة ، وقيل : دكتا بسطتا بسطة واحدة ، ومنه اندك سنام البعير : إذا انفرش على ظهره . انتهى . وقال بن كثير : أي: فمدت مَدّ الأديم العُكَاظي . وقال السمعاني : أي : زلزلتا زلزلة واحدة . ويقال : فتتا فتة واحدة . وقيل : ضرب أحدهما بالآخر فانهدمتا وهلكتا . انتهى .

و لم يذكر الرب جل وعلا من هو الذي حمل الأرض والجبال وإنما بنى الفعل للمجهول فقيل حملها الله بقدرته من غير سبب ، وقيل بالزلزلة التي تكون في القيامة ، وقيل بريحٍ بلغت من قوة عصفها أنها تحمل الأرض والجبال ، وقيل بملكٍ من الملائكة . وليس الأمر مهماً وإلا لذكره الله جل وعلا . ومعلومٌ أن الله جل وعلا هو الخالق والأسباب مخلوقة .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ ﴾ أي قامت القيامة سميت بذلك لأن وقوعها حقٌ لا ريب فيه . أو لأنه يقع العذاب فيها على الكفار .

﴿ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾ تفطرت وتصدعت السماء في ذلك اليوم فأصبحت ضعيفة بعد قوتها وتماسكها . ﴿ وَاهِيَةٌ ﴾ ضعيفة من قولهم وهى البناء إذا ضعف وكلامٌ واهٍ أي ضعيف . وقال بن عباسٍ وبن شجرة : واهية : متخرقة . مأخوذ من قولهم : وهى السقاء إذا تخرق . وإذا تخرقت ضعفت . ولذا قال :

خل سبيل من وهى سقاؤه ... ومن هريق بالفلاة ماؤه

أي من كان ضعيف العقل لا يحفظ نفسه.

﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ﴾ الملك اسم جنس ، أي الملائكة ﴿ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ﴾ أي : على أطراف السماء وحوافها . وقيل : على أرجاء الأرض . والأول أصح لسياق الآيات . وعن بن عباسٍ : على حافاتها على ما لم يه منها. وعن الضحاك وقتادة وسعيد بن جبير : على حافات السماء على ما لم ينشق منها . وعن مجاهد : على أطرافها .

﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ ﴾ قال بن عباس وسعيد بن جبير والشعبي وعكرمة والضحاك وبن جريج : ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله . وعن الربيع وبن زيد : ثمانية أملاك . وعن جابرٍ رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أذن لي أن أحدث عن ملكٍ من ملائكة الله تعالى من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام) قال بن حجر : أخرجه أبو داود وبن أبي حاتم من رواية إبراهيم بن طهمان عن محمد بن المنكدر وإسناده على شرط الصحيح . انتهى من الفتح . وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٨٥٤) وعند الطبراني في الأوسط عن أنسٍ مرفوعاً (أذن لي أن أحدث عن ملكٍ من حملة العرش رجلاه في الأرض السفلى وعلى قرنه العرش وبين شحمة أذنيه

وعاتقه خفقان الطير سبعمائة عام يقول ذلك الملك : سبحانك حيث كنت) صححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٨٥٣) وسواءً كثر عددهم أو قل أو كبرت أجسامهم أو صغرت فإنهم ما استطاعوا حمل العرش إلا بقدرة الله ، فالله هو الذي جعل فيهم القدرة على حمل العرش ، فهم في الحقيقة محمولون لا حاملون . ولذا قال السدي : العرش تحمله الملائكة الحملة فوقهم ، ولا يحمل حملة العرش إلا الله . ذكره القرطبي في تفسيره وقد قال الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ ﴾ سورة فاطر فالله هو الذي يحمل الكون كله بقدرته . وقال عثمان بن سعيد الدرامي في نقضه على المريسي حين أنكر استواء الله على عرشه وزعم أن لو كان مستوياً على العرش لكان مفتقراً إلى الملائكة حملة العرش . فأجاب الدارمي : إن الله أعظم من كل شيء ، وأكبر من كل خلق ، و لم يحمله العرش عِظَمَاً ولا قوةً ، ولا حملة العرش حملوه بقوتهم ولا استقلوا بعرشه ولكنهم حملوه بقدرته . وقد بلغنا أنهم حين حملوا العرش وفوقه الجبار في عزته وبهائه ضعفوا عن حمله واستكانوا وجثوا على ركبهم حتى لقنوا (لا حول ولا قوة إلا بالله) فاستقلوا به بقدرة الله وإرادته . انتهى. وقال شيخ الإسلام بن تيمية في بيان تلبيس الجهمية في معرض رده على الرازي حين قال : لو كان الخالق في العرش لكان حامل العرش حاملاً لمن في العرش فيلزم احتياج الخالق إلى المخلوق .

قال بن تيمية : للناس في حملة العرش قولان : أحدهما : أن حملة العرش يحملون العرش ولا يحملون من فوقه .

والثاني : أنهم يحملون العرش ومن فوقه ، كما تقدم حكاية القولين فيذكر ما يقوله الفريقان في جواب هذه الحجة فإنهم ينازعونه في المقدمتين جميعاً.

فيقال من جهة الأولين : لا نسلم أن من حمل العرش يجب أن يحمل ما فوقه إلا أن يكون ما فوقه معتمداً عليه وإلا فالهواء والطير وغير ذلك مما هو فوق السقف ليس محمولاً لما يحمل السقف ، وكذلك السماوات فوق الأرض وليست الأرض حاملة السماوات ، وكل سماءٍ فوقها سماء وليست السفلى حاملة للعليا ، فإذا لم يجب في المخلوقات أن يكون الشيء حاملاً لما فوقه بل قد يكون وقد لا يكون ، لم يلزم أن يكون العرش حاملاً للرب تعالى إلا بحجة تبين ذلك ، وإذا لم يكن العرش حاملاً لم يكن حملة العرش حاملة لما فوقه بطريق الأولى

الوجه الثاني : أن الطائفة الأخرى تمنع المقدمة الثانية فيقولون : لا نسلم أن العرش وحملته إذا كانوا حاملين لله لزم أن يكون الله محتاجا إليهم ، فإن الله هو الذي يخلقهم ويخلق قواهم وأفعالهم ، فلا يحملونه إلا بقدرته ومعونته ، كما لا يفعلون شيئاً من الأفعال إلا بذلك ، فلا يحمل في الحقيقة نفسه إلا نفسه .انتهى.

﴿ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ﴾ قيل : فوق أهل القيامة. وقيل : فوق الملائكة الذين في السماء على أرجائها .

﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ ﴾ قال مقاتل : يومئذ تعرضون على الله فيحاسبكم بأعمالكم ﴿ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾ قال : لا يخفى الصالح منكم ، ولا الطالح إذا عرضتم . انتهى . وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا فإنه أيسر لحسابكم ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، وتجهزوا للعرض الأكبر . قال الألباني : إسناده جيد في حلية الأولياء . وعن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال (يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات : عرضتان معاذيرُ وخصومات ، والعرضة الثالثة تطير الصحف في الأيدي) رواه البيهقي في البعث وبن جرير في تفسيره وحسن إسناده بن حجر في الفتح ورواه أحمد والترمذي وبن ماجة وغيرهم مرفوعاً من طريق الحسن عن أبي هريرة وأبي موسى ولكنه ضعيف لأن الحسن لم يسمع منهما وانظر ضعيف الجامع حديث رقم (٦٤٣٢)

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ ﴾ يوم القيامة يعطى الناس صحائف أعمالهم التي عملوها في الدنيا وأحصتها الملائكة الكرام الكاتبين عليهم كما قال تعالى ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ سورة الكهف فمن كان من أهل الإيمان سُلِّمَ له كتابه في يده اليمنى وهذه أول البشائر له وحين يقرأه يفرح بما فيه ويعلم أنه قد فاز ونجا فيقول من شدة الفرح للناس ﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾ قال بن زيد : تعالوا . وقال مقاتل : هاكم . وهاكم بمعنى خذوا . قال بن السكيت والقتبي : أصلها هاكم فأبدلت الهمزة من الكاف . قال بن كثير : أي خذوا اقرؤوا كتابيه ، لأنه يعلم أن الذي فيه خيرٌ وحسنات محضة لأنه ممن بَدَّلَ الله سيئاته حسنات . وقال عبد الرحمن بن زيد ﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾ أي: ها اقرؤوا كتابيه و(ؤم) زائدة. كذا قال والظاهر أنها بمعنى : هاكم .انتهى من تفسيره . ومعلومٌ أن القاعدة في التفسير أن الآية اذا احتملت معنيين أو أكثر غير متضادين أنها تحمل عليهما جميعاً فيكون المعنى : تعالوا خذوا .

﴿ كِتَٰبِيَهۡ ﴾ الهاء للسكت . قال بن عطية في المحرر الوجيز : وقرأ بعض القراء (كتابيهْ وحسابيهْ وماليهْ وسلطانيهْ) بالهاء في الوصل والوقف اقتداءً بخط المصحف ، وهي في الوصل بينة الوقوف لأنها هاء السكت فلا معنى لها في الوصل ، وَطَرَحَ الهاءات في الوصل لا في الوقف الأعمش وابن أبي إسحاق قال أبو حاتم : قراءتنا إثباتٌ في الوقف وطرحٌ في الوصل ، وبذلك قرأ ابن محيصن وسلام ، وقال الزهراوي في إثبات الهاء في الوصل لحن لا يجوز عنه أحد علمته . انتهى. وقال القاسمي في محاسن التأويل : الهاء للسكت ، لا ضمير غيبة قال الشهاب : فحقها أن تحذف وصلاً وتثبت وقفاً لتصان حركة الموقوف عليه فإذا وصل استغنى عنها . ومنهم من أثبتها في الوصل لإجرائه مجرى الوقف ، أو لأنه وصل بنيّة الوقف ، وإثباتها وصلاً قراءة صحيحة ولا يلتفت لقول بعض النحاة : إنها لحن .انتهى.

﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ﴿٢٠﴾ ﴾ لأنني كنت متيقناً أن هناك يوماً سنحاسب فيه فعملت لذلك اليوم . قال بن عباس : ظننت : أيقنت . وكلمة ظن تطلق على الشك وتطلق على اليقين فمما جاءت فيه على سبيل الشك قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ ﴾ من (١٢) سورة الحجرات أي الشك . وقال تعالى ﴿ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ سورة سبأ أي شكه . وقال النبي صلى الله عليه وسلم (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث) يعني الشكوك الباطلة والتهم السيئة . ومما جاءت فيه على سبيل اليقين قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ سورة البقرة أي يتيقنون . وقال تعالى ﴿ وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا ﴿٥٣﴾ ﴾ من (٥٣)سورة الكهف أي تيقنوا . وهكذا هذه الآية فإن الشك في البعث والحساب كفر ، والكافر لا فرحة له في ذلك اليوم .

﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٢١﴾ ﴾ في الجنة يعيش فيها أفضل عيشةٍ يرضى بها ويسعد . قال مجاهد : في عيشةٍ قد رضيها في الجنة .انتهى. وقال بعض المفسرين : أن العيشة هي التي رضيت بولي الله في الجنة فانقادت له فإذا اشتهى منها شيئاً قربت منه ، كالفرش المرفوعة فقد قيل أن ارتفاعها مقدار مائة عام ، فإذا أراد الجلوس عليها نزلت حتى يستوي عليها ثم ترتفع كهيئتها ، ومثل الشجرة ذات الطول إذا أشتهى ولي الله ثمرها تدلت إليه حتى يتناولها بيده .

﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ﴿٢٢﴾ ﴾ من العلو وهو الارتفاع فهي عالية في مكانها إذ سقفها عرش الرحمن جل وعلا وهي عالية في قدرها فلا تنال بالأماني والكسل . وفي الحديث (حجبت الجنة بالمكاره ، وحجبت النار

بالشهوات) قال مقاتل : يعنى رفيعة في الغرف . وقال القرطبي : أي مرتفعة ، لأنها فوق السموات .. وقيل: عالية القدر ، لأن فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين .انتهى.

﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ أي ثمارها قريبة لمن أراد أن يقتطف منها . قال الضحاك : قطوفها ثمرها . وقال البراء بن عازب دانية : قريبة . وقال قتادة : دنت فلا يرد أيديهم عنها بُعْدٌ ولا شوك. وقال مقاتل : ثمرها قريبةٌ بعضها من بعض يأخذ منها إن شاء جالساً وإن شاء متكئاً .

﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾ كلوا من ثمار الجنة واشربوا من أنهارها ، أو واشربوا من عصير الثمار لأن الآية السابقة تتحدث عن الثمار ، ويمكن أن يكون عاماً بعد خاص أي كلوا من كل ما في الجنة من المأكولات ، واشربوا من كل ما في الجنة من المشروبات . ﴿ هَنِيئًا ﴾ أي سائغاً لذيذاً ليس فيه غصة ولا يتبعه بشم أي تخمه ، وقيل الهنيء ما أتاك بلا مشقةٍ ولا تعب . قال تعالى ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾من (١٤) سورة الإنسان قال مجاهد : أدنيت منهم يتناولونها إن قام ارتفعت بقدره ، وإن قعد تدلت حتى ينالها ، وإن اضطجع تدلت حتى ينالها فذلك تذليلها. وقال الضحاك : أدنيت منهم يتناولونها وهم متكئون . وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : يقول غلمان أهل الجنة من أين نقطف لك من أين نسقيك.

﴿ بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾ أي أن هذا جزاء ما قدمتم في حياتكم الدنيا من الأعمال الصالحة . قال مقاتل : بما عملتم في الدنيا . وقال قتادة : أيامكم هذه أيامٌ خاليةٌ فانية تؤدي إلى أيامٍ باقية ، فاعملوا في هذه الأيام وقدموا خيرا إن استطعتم ولا قوة إلا بالله.

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ ﴾ هذا الصنف الثاني من الناس وهم الكفار والمنافقون فيعطون كتابهم في يدهم الشمال أي اليسرى وهذه أول بشائر الخسران وحين يقرأ أحدهم ما في كتابه ويرى قبائح أعماله يعلم أنه قد خسر وهلك فيتمنى أنه لم يعط هذا الكتاب و لم يره ﴿ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ ﴾ ويتمنى أنه لم يبعث للحساب ﴿ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ ﴾ ويتمنى أن لو كانت الموتة التي ماتها في الدنيا هي القاضية التي لا حياة بعدها . قال الضحاك : يا ليتها كانت موتة لا حياة بعدها. وقال قتادة : تمنوا الموت و لم يكن شيء في الدنيا أكره عندهم من الموت .

﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ ﴾ أيقن حينئذ أن أمواله التي كان يجمعها في الدنيا ويبخل بها ولا يؤدي حقها لن تنفعه في الآخرة ولن ترد عنه عذاب الله .

﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾ ﴾ وأن ملكه وسلطانه وجنوده وقوته التي كان يعدها في الدنيا للنوائب ذهبت وفنيت ولن تنفعه في الآخرة ، حيث لا ينفع المرء في الآخرة إلا عمله الصالح ، وأما الجاه والمال والسلطان فلا تنفعه هناك ولا ترد عنه من عذاب الله من شيء . قال السعدي ﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾ ﴾ أي ذهب واضمحل فلم تنفع الجنود الكثيرة ، ولا العدد الخطيرة ، ولا الجاه العريض ، بل ذهب ذلك كله أدراج الرياح ، وفاتت بسببه المتاجر والأرباح ، وحضر بدله الهموم والغموم والأتراح .انتهى. وقيل ﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾ ﴾ أي ذهبت عني حجتي فلا حجة لي عند الله . وهو قول بن عباس ومجاهد وعكرمة ومقاتل والضحاك والسدي . والأول قول عبد الرحمن بن زيد والربيع بن أنس .

﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ﴾ وعندئذٍ يأمر الجبار جل جلاله زبانيته بأخذه وغله بأن يوثقوا يديه إلى عنقه .

﴿ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ﴾ قيل : أي أدخلوه الجحيم . قال المبرد : أصليته النار إذا أوردته إياها وصليته أيضاً كما يقال : أكرمته وكرمته . انتهى.

وقيل : أي اجعلوه يقاسي حرها ويحترق فيها . قال الزجاج : اجعلوه يَصْلَى النَّارَ .

ويمكن الجمع فيكون المعنى : أدخلوه الجحيم واجعلوه يقاسي حرها ويحترق فيها . قال الجزائري : أي أدخلوه فيها وصلوه بحرها المرة بعد المرة كما يصلى الكبش المشوي المصلي .انتهى.

والجحيم من أسماء جهنم وهي النار شديدة التأجج قاله بن سيده . وقال بن منظور : كل نارٍ عظيمةٍ في مهواةٍ فهي جحيم . ومنه قوله تعالى ﴿ قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ ﴾سورة الصافات

﴿ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ ﴾ ثم يأمر الله ملائكته بأن يربطوه بالسلاسل ليعذبوه بها . واختلف في معنى قوله ﴿ سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا ﴾ فقيل : ليس المراد التقدير بقدرٍ محدد ، بل المقصود المبالغة في الطول . قال أبو حيان : من شأن العرب أن يبالغوا بالسبعة والسبعين لما في ذكرها من دليل المضاعفة .انتهى. وقال القاسمي : قال القاشانيّ : السبعون في العرف عبارة عن الكثرة غير المحصورة ، لا العدد المعين .انتهى. كقوله

تعالى ﴿ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ من (٨٠) سورة التوبة يعني ولو أكثرت من الاستغفار لهم فلن يغفر الله لهم . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم حين عاتبه عمر في الصلاة على عبد الله ابن أبي : أخر عني يا عمر إني خيرت فاخترت ، قيل لي ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت . رواه البخاري. فهذا نصٌ في أن المراد بالسبعين الكثرة لا الحصر . قال الكلاباذي في معاني الأخبار: ليس قوله﴿ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ على الغاية والتحديد ولكن على الكثرة ، وكذلك قوله﴿ سَبْعُونَ ذِرَاعًا ﴾ هو عبارة عن الطول وليس هو على الغاية إن شاء الله أن لا يكون أطول منه لأنه من العذاب وعذاب الله للكافرين لا غاية له ولا نهاية طولاً وألماً .انتهى. وقال محمد الذهبي في التفسير والمفسرون : يراد في سلسلةٍ طويلةٍ هائلة ، ولا يراد التقدير بهذا العدد .انتهى. وقال بن عاشور في التحرير والتنوير : عدد السبعين مستعملٌ في معنى الكثرة على طريقة الكناية .انتهى.

وقيل بل التقدير مراد ثم اختلفوا بأي ذراعٍ هو ؟ فقال مقاتل : بذراع الرجل الطويل من الخلق الأول . وقال بن عباسٍ : بذراع الملك . وقال نوف البكالي وهو في الكوفة : كل ذراعٍ سبعون باعاً ، وكل باعٍ أبعد ما بينك وبين مكة . وقال سفيان : كل ذراع سبعون ذراعاً. وقال الحسن : الله أعلم أي ذراع هو . قال الألوسي : يحتاج إلى نقل صحيح .انتهى

والمقصود شدة توثيق الكافر وتعذيبه بالسلاسل والأغلال كما قال تعالى ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۠ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ ﴾ سورة الإنسان

واختلف في قوله تعالى ﴿ فَٱسْلُكُوهُ ﴾ فقيل يسلك هو في السلسلة . قال القاسمي: أي : لفُّوه بها ، بحيث يكون فيما بين حلقها مرهقاً ، لا يقدر على حركة . انتهى من محاسن التأويل. وقيل بل السلسلة تسلك فيه قال ابن عباس : السلسلة تدخل في أسته ثم تخرج من فيه ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد في العود ثم يشوى .انتهى من الدر المنثور. وقال الضحاك : السَّلْكُ : أَنْ تَدْخُلَ السِّلْسِلَةُ فِي فِيهِ وَتَخْرُجَ مِنْ دُبُرِهِ. ذكره الطبري . وقال الطبراني : أي أدخِلُوها في دبُرِهِ ، وأخرِجُوها من فيهِ ، وألقُوا ما فضَلَ منها في عُنقهِ. يقالُ : سلكتُ الخيطَ في الإبرةِ إذا أدخلتهُ فيها ، وتقولُ العربُ : أدخلتُ الخاتمَ في إصبَعي ، والقُلنسوةَ في رأسِي ومعلومٌ أنَّ الإصبعَ هي التي تدخلُ في الخاتمِ ، ولكنَّهم أجَازُوا ذلك ؛ لأنَّ معناهُ لا يُشكِلُ .انتهى. وقال الفراء: المعنى : ثم اسلكوا فيه سلسلة ، ولكن العرب تقول : أدخلت رأسي في القلنسوة ، وأدخلتها في رأسي

والخاتم يقال : الخاتم لا يدخل في يدي ، واليد هي التي فيه تدخل . قال أبو عبد اللّه : والخف مثل ذلك فاستجازوا ذلك لأن معناه لا يشكل على أحد ، فاستخفوا من ذلك ما جرى على ألسنتهم .انتهى.

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ ﴾ الله المستحق للتعظيم والتمجيد وإخلاص العبادة له وحده ، ولكن الكافر لم يعظم ربه العظيم بل كفر به وأشرك معه غيره في التوحيد والعبادة والتعظيم . فكان حقه أن يغلَّ ويسلسل بالسلاسل ويصلى النار . قال مقاتل : لا يصدق بالله العظيم بأنه واحدٌ لا شريك له .

﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ ﴾ وهذه هي الخصلة الثانية التي سببت له هذا العذاب ، وهو أنه لا يحض غيره على إطعام المساكين ، ومن باب أولى أن لا يطعمهم هو بنفسه ، لأنه لا رحمة في قلبه ، فكان عقابه أن لا يرحمه الله في الآخرة .

﴿ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ فليس له يوم القيامة حميم ، والحميم هو القريب ، وقيل هو الصديق . مأخوذٌ من الحَمِّيَة لأنه يحمي بعضهم بعضاً في الدنيا ، وقيل مأخوذٌ من الحميم وهو الماء الحار لأن القريب والصديق يرق قلبه ويحترق على قريبه وصديقه . قال بن زيد : الحميم القريب في كلام العرب . وقال قتادة : قريب يشفع له . وقال بن جرير : قريب يدفع عنه ويغيثه مما هو فيه من البلاء . انتهى. وقال بن عاشور : الحميم القريب وهو هنا كناية عن النصير إذ المتعارف عند العرب أن أنصار المرء هم عشيرته وقبيلته .انتهى. وقال القاسمي : قريب تأخذه الحمية له .انتهى. وقال أبو حيان : أي صديقٍ ملاطفٍ وادّ ، وقيل : قريبٌ يدفع عنه. انتهى. وقال السعدي : أي قريبٌ أو صديقٌ يشفع له لينجو من عذاب الله . انتهى. وذلك لأنه يفر بعضهم من بعض كما قال تعالى ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ سورة عبس وقال تعالى ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ سورة الزخرف

﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ وليس لهم في الآخرة من طعامٍ يقطع عنهم الجوع إلا الغسلين وهو صديد أهل النار . قاله بن عباس . وعنه : الغسلين الدم والماء الذي يسيل من لحومهم. ذكره في الدر المنثور. مأخوذٌ من الغُسْلِ كأنه غُسالة جروحهم وقروحهم . قال الطبري : وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول : كلّ جرحٍ غسلته فخرج منه شيء فهو غسلين ، فعلين من الغسل من الجراح والدَّبر ، وزيد فيه الياء والنون بمنزلة عفرين .انتهى. وقال الضحاك والربيع : هو شجرٌ يأكله أهل النار .ذكره القرطبي والبغوي فكأنهم يشيرون إلى شجرة الزقوم كما قال تعالى ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ ﴾ سورة الدخان وقد روي عن بن

عباسٍ أنه قال : ما أدري ما الغسلين ، ولكني أظنه الزقوم .ذكره بن كثير . وقال قتادة : شرّ الطعام وأخبثه وأبشعه . وقال بن زيد : الغسلين والزقوم لا يعلم أحدٌ ما هو. نقل ذلك عنهما الطبري.

﴿ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ أي أصحاب الخطايا والذنوب وهم المشركون والكافرون والمجرمون .

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ الفاء استئنافية ، واللام زائدة لتأكيد القسم كقولك (لا والله ما قلت كذا) ولو أنك قلت (والله ما قلت كذا) لكان قسماً كافياً لكنك أتيت باللام لتأكيد القسم . وقيل مزيدة للتنبيه ونظيره قوله تعالى ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ ﴾ من (٨) سورة هود وقيل (لا) للرد على الكفار في إنكارهم البعث أي (لا ، ليس الأمر كما يقولون) ثم استأنف فقال (أقسم بما تبصرون) وقيل هي للنفي أي الأمر أوضح من أن يحتاج إلى أن أقسم على شيءٍ فضلاً عن أن أقسم بهذا الأمر العظيم وقيل هي لام القسم نفسها (فلأقسم) لكن أشبعت فتحتها فتولدت منها ألف (فلا أقسم)

وقوله﴿ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ قال بن عباس : بما ترون وما لا ترون .انتهى. أي بكل شيء . فإن الأشياء إما نبصرها كالأرض والسماء والسحاب والجبال والحيوانات ونحو ذلك ، وإما لا نبصرها كالجان والملائكة وما فوق السماوات وما تحت الأرض ونحو ذلك . فهو قسمٌ بكل الأشياء .

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ أي القران الكريم هو قول محمدٍ صلى الله عليه وسلم يعني على جهة البلاغ فالقران كلام الله جل وعلا كما قال تعالى ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ سورة التوبة تكلم به حقيقةً على الوجه الذي يليق بجلاله وعظمته فسمعه منه جبريل فأداه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ونطق به له فذلك قوله تعالى ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ سورة التكوير أي جبريل ، لأنه قاله للنبي صلى الله عليه وسلم وبلَّغَهُ إياه ، ثم النبي صلى الله عليه وسلم بلَّغَهُ إلى الناس ونطق به لهم فذلك قوله تعالى﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ لأن المشركين يزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم شاعرٌ وما يقوله من القران إنما هو شعر ، وبعضهم يقول بل هو كاهن وما ينطق به من القران كهانة ، فأنكر الله جل وعلا عليهم ذلك وأخبرهم أنه قول رسولٍ يبلغ عن الله جل وعلا ولذلك قال﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ أي القران مترلٌ من عند الله جل وعلا نزل به جبريل عليه السلام من عند الله وبلَّغَهُ للنبي صلى الله

عليه وسلم ثم النبي صلى الله عليه وسلم بلغه إليكم كما نزل لم يزد فيه و لم ينقص منه و لم يأت بشيءٍ من عنده ولذلك قال ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ ﴾ يعني جاء بشيءٍ من عنده ونسبه إلى الله جل وعلا وحاشاه ذلك ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ﴾ قال بن كثير : قيل: معناه لانتقمنا منه باليمين ؛ لأنها أشد في البطش .انتهى. وقال مقاتل : لانتقمنا منه بالحق كقوله ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ ﴾سورة الصافات يعنى من قبل الحق بأنكم على الحق .انتهى وهو قول السدي والحكم. وقال بن عباسٍ ومجاهد والقتبي : بقوةٍ وقدرة .انتهى. ولا أقوى ولا أقدر على الانتقام من الله جل وعلا . وقال الحسن : قطعنا يده اليمنى ذكره بن أبي زمنين والقرطبي . وقال نفطويه : لقبضنا بيمينه عن التصرف . انتهى. وقيل أي أخذنا بيده اليمنى فسحبناه وأهناه كما يفعل السلطان حينما يريد أن يهين أحداً فيأمر من يسحبه بيديه . ذكره الطبري.

والمعنى : عاجلناه بالعقوبة .

﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ أي أهلكناه وأمتناه وذلك بقطع نياط قلبه . قال بن عباس : الوتين عرق القلب. وقال : هو حبل القلب الذي في الظهر. وقال قتادة : كنا نحدث أنه حبل القلب . وعن مجاهد : الوتين الحبل الذي في الظهر. وعن عكرمة قال : الوتين نياط القلب. وقال مقاتل : عرق يكون في القلب وهو نياط القلب وإذا انقطع مات صاحبه.

﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ أي : لا أحد منكم يستطيع أن يمنعه منا لو أردنا ذلك . قال مقاتل : ليس أحد منكم يحجز الرب عز وجل عن ذلك .

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ القران جعله الله تذكرةً للمتقين ينتفعون بمواعظه ويأتمرون بأوامره ويجتنبون نواهيه . قال قتادة وبن جريج ومقاتل : القران . وقيل هو النبي صلى الله عليه وسلم ينتفع بمواعظه المتقين لله.

﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ اطلع الله على قلوب كفار قريش والمشركين وما هم عاملين في المستقبل وأن منهم من لا يصدق بالقران ولا بالنبي صلى الله عليه وسلم ويبقى على تكذيبه حتى الموت ، ويكون تكذيبه حسرةً وندامةً عليه يوم القيامة ولذا قال﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ قال قتادة ومقاتل : يوم القيامة . يعني يتحسرون أن لو كانوا آمنوا بالقران وبالنبي صلى الله عليه وسلم فنجوا من العذاب.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ ﴾ أي القران حق لا شك فيه أنه مترلٌ من عند الله جل وعلا ليس بشعرٍ ولا كهانة . وهكذا النبي صلى الله عليه وسلم حق لا شك فيه أنه رسولٌ من عند الله ليس بشاعرٍ ولا كاهن .

﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾ قال بن عباسٍ : أي فصل لربك . فجعل التسبيح الصلاة . وقد كان السلف يطلقون التسبيح على الصلاة ولما سئل بن عمر عن صلاة النافلة في السفر قال : لو كنت مسبحاً لأتممت . يعني لو كنت سأتنفل بالصلاة لأتممت الفريضة لأنها أولى من النافلة . وروي عن عمر أنه جلد رجلين سبحا بعد العصر أي صليا . ذكره في لسان العرب ومنه قوله تعالى ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ سورة الروم أي صلوا حين تمسون صلاتي المغرب والعشاء وحين تصبحون الفجر وعشياً العصر وحين تظهرون الظهر وهو مرويٌ عن عباسٍ وغيره .

وقيل ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾ أي نزه الله عن كل ما لا يليق به جل وعلا فالتسبيح التنزيه كما قال تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ من (١٧١) سورة النساء. أي ينزه عن الولد . ومنه قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ ﴾ من (١١٦) سورة المائدة أي أنزهك عن الشريك . وقال تعالى ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ سورة الأنعام أي ينزه عن هذه الأوصاف . والآيات في هذا كثيرة . وتنزيه الله عن السوء والنقائص يقتضي إثبات الضد وهو الكمال المطلق والمحامد . وقد سئل ميمون بن مهران عن قول (سبحان الله) فقال : اسمٌ يعظم الله به ويحاشى به من السوء . وقال بن تيمية : الأمر بتسبيحه يقتضي تنزيهه عن كل عيبٍ وسوء ، وإثبات صفات الكمال له ، فإن التسبيح يقتضي التنزيه والتعظيم .

والمعنى فعظم ربك العظيم ونزه عما لا يليق به ، والاسم صلة أريد بها تعظيم المسمى ، ويؤيده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (اجعلوها في ركوعكم) رواه أحمد وأبو داود وبن ماجة والحاكم وضعفه الألباني ولكن ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه يقول في ركوعه (سبحان ربي العظيم) رواه مسلم وأصحاب السنن . ولم يقل (سبحان اسم ربي العظيم) قال القاسمي : الاسم صلة . وسِرُّ إيراده أن المنوَّه به إذا كان في غاية العظمة كثيراً ما تضاف ألفاظ التفخيم إلى اسمه ، فيقال : سبح اسمه ومجد ذكره ، كما يقال : سلامٌ على المجلس العالي . هذا ما ذكروه . وثمة وجهٍ آخر وهو أن الحق تعالى إنما يعرف بأسمائه الحسنى لاستحالة اكتناه ذاته العلية ، فأقحم تنبيهاً على ذلك . انتهى من تفسيره محاسن التأويل .

وقيل المعنى : أي نزه اسم ربك أن تدعوا به الالهة والأوثان كما يفعل المشركون حين يشتقون لمعبوداتهم أسماء من أسماء الله تعالى كاللات من الإله والعزى من العزيز ومناة من المنان ونحو ذلك . والأول أولى ولا مانع من شمول الآية لكل المعاني المذكورة إذ لا تعارض بينها والله أعلم .

والعظيم من أسماء الله الحسنى فإنه سبحانه العظيم الذي يصغر أمامه العظماء ، بل هو صاحب العظمة والرياسة المطلقة ، المتصف بكل صفات الكمال الموجبة لتعظيمه ، فهو العظيم في ذاته ، والعظيم في أسمائه وصفاته ، والعظيم في ألوهيته وربوبيته ، والعظيم في كل شيء ، الذي لا يدانيه عظيم ، ولا ينازعه في عظمته أحد . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يقول الله تعالى : الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار) رواه مسلم

من فوائد سورة الحاقة :

أولاً / أن يوم القيامة حقٌ لا ريب فيه وبه سميت هذه السورة الحاقة وابتدأت بها وتكررت وكل ذلك للدلالة على أن القيامة حق وأن المكذبين بها في ضلالٍ مبين وهلاك عظيم .

ثانياً / أن الله على كل شيء قدير فإنه أهلك الأمم المكذبة وكانت أمماً عظيمةً في قوتها وسيادتها وثروتها وصناعتها فلم تغن عنها من الله شيئاً حين جاءها عذابه فأبادهم الله وجعلهم عبرةً لمن بعدهم فينبغي الاتعاظ والاعتبار بهم والخوف والخشية من الله جل وعلا وتعظيم أوامره واجتناب نواهيه .

ثالثاً : ليست الأمم المذكورة على عظيم قوتها بأقوى من الأرض والجبال والسماوات ومع ذلك فإن الله سيدكك الأرض والجبال ويشقق السماء حتى تهي وتضعف ثم يذهب بها جميعاً كأن لم تكن فإذا كانت هذه المخلوقات على عظمتها وقوتها بهذا الضعف عند قوة الجبار جل جلاله فكيف بالإنسان هذا المخلوق الضعيف الذي ليس بشيء أمام هذه الأشياء ومع ذلك يتكبر ويكفر بالله ويكذب بالوعد والوعيد فيا عجباً له ما أحمقه كيف سيصبر على عذاب الله ويتحمله و لم تتحمله السماوات والأرض فينبغي الحذر من الكبر والغرور والرجوع إلى الله جل وعلا وسؤاله الرحمة والمغفرة قبل أن يغلق باب التوبة فلا ينفع الندم .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المعارج مكية وآياتها (٤٤)

تفسير سورة المعارج

﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ ﴾ أي طلب طالبٌ ودعا داعٍ بعذابٍ يقع عليه . أو دعا داعٍ بالعذابِ وهو واقعٌ به . وقيل : أي استعجل وألح . يعني في طلبه العذاب قاله الطاهر بن عاشور وهو قول بن كثير في تفسيره . وقد ورد عن بن عباسٍ وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير والسدي وزيد بن أسلم وبن جريج ومقاتل أنها نزلت في النضر بن الحارث القرشي وكان يقول﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ من (٣٢) سورة الأنفال

وعن أنسٍ وقتادة والربيع بن أبي حمزة أنها نزلت في أبي جهل بن هشام .

وقيل نزلت في جماعةٍ من كفار قريش .

وقيل هو النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعوا بوقوع العذاب على الكافرين ، ولكن هذا القول بعيد لأنه خلاف المعهود عنه عليه الصلاة والسلام من طلبه إمهال الكافرين ، حتى قال لملك الجبال عندما استأذن منه أن يطبق على كفار قريشٍ الأخشبين – أي الجبلين – قال (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا) متفق عليه وقيل أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يستعجل بالعذاب على الكفار لكن من استعجل على نفسه بالعذاب تكذيباً وسخريةً فمثل هذا قد يدعوا عليه الرسول صلى الله عليه وسلم ومصداق ذلك في كتاب الله قوله تعالى ﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾من (٥٨) سورة الأنعام يعني لأوقعته بكم وانتهى الأمر .

وقيل سؤالهم ليس على جهة الطلب وإنما على جهة الاستخبار ، والمعنى : سأل سائلٌ عن العذاب متى يقع ؟ وعلى من يقع ؟ كما قال تعالى ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾سورة يونس قال بن عباسٍ : ذاك سؤال الكفار عن عذاب الله وهو واقع . وقال الطبري : سأل سائلٌ من الكفار عن عذاب الله بمن هو واقع .انتهى. وعليه فتكون الباء بمعنى (عن) كقوله تعالى ﴿ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾من (٥٩) سورة الفرقان أي فسئل عنه خبيرا . وقال علقمة :

فإن تسألوني بالنساء فإنني ... بصيرٌ بأدواء النساء طبيب

أي تسألوني عن النساء .

وقد قيل أن المشركين لما سمعوا عن عذاب الآخرة سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا العذاب على من يقع فأخبر الله جل وعلا أن هذا العذاب سيقع على الكافرين فقال ﴿ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ ﴾ أي لا يدفعه ولا يرده عنهم أحد . قال الحسن ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ ﴾ قال الناس : على من يقع العذاب فأنزل الله ﴿ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ ﴾ وهو قول مجاهد وبن جريج أن المراد يوم القيامة .

وقيل هو في الدنيا والمراد بالكافرين أولئك الذين كانوا يستعجلون بالعذاب تكذيباً واستكباراً ومحادةً لله ورسوله كالنضر بن الحارث وقد وقع عليه العذاب يوم بدرٍ ، فلم تمنعه جموع المشركين وتدفع عنه عذاب الله حين نزل به . وهو معنى قول عطاء وسعيد بن جبير والسدي ، قال عطاء : لقد نزل في النضر بن الحارث بضع عشرة آية فحاق به ما سأل من العذاب يوم بدر . وقال سعيد بن جبير : قَتَلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدرٍ ثلاثةً صبراً من قريش : طعيمة بن عدي ، وعقبة بن أبي معيط ، والنضر بن الحارث .انتهى.

وقيل بل هو في الدنيا والآخرة قال مقاتل : هذا العذاب الذي سأل النضر بن الحارث في الدنيا هو للكافرين في الآخرة لا يدفع عنهم أحد حين يقع بهم العذاب .انتهى. وقال الرازي : إن فسرنا قوله﴿ سَأَلَ ﴾ بما ذكرنا من أن النضر طلب العذاب ، كان المعنى أنه طلب طالبٌ عذاباً هو واقعٌ لا محالة سواءً طلب أو لم يطلب وذلك لأن ذلك العذاب نازل للكافرين في الآخرة واقع بهم لا يدفعه عنهم أحد ، وقد وقع بالنضر في الدنيا لأنه قتل يوم بدر ... وأما إذا فسرناه بالوجه الثاني وهو أنهم سألوا الرسول عليه السلام ، أن هذا العذاب بمن يترل فأجاب اللّه تعالى عنه بأنه واقع للكافرين ، والقول الأول هو السديد .انتهى من مفاتيح الغيب.

وقيل (سائل) وادٍ في جهنم أي سال هذا الوادي بعذابٍ يقع على الكافرين . وهو مرويٌ عن بن عباسٍ وعبد الرحمن بن زيد . وهذا بناءً على قراءة من قرأ (سال) بلا همز . قال الطبري : اختلفت القرأة في قراءة قوله﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ ﴾ فقرأته عامة قرأة الكوفة والبصرة ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ ﴾ بهمز ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ ﴾ بمعنى سأل سائلٌ من الكفار عن عذاب الله بمن هو واقع ، وقرأ ذلك بعض قرّاء المدينة (سالَ سَائِلٌ) فلم يهمز سأل ، ووجهه إلى أنه فعل من السيل . والذي هو أولى القراءتين بالصواب قراءة من قرأه بالهمز ، لإجماع الحجة من القرّاء على ذلك ، وأن عامة أهل التأويل من السلف بمعنى الهمز تأوّلوه .انتهى. وقال القرطبي : قرأ نافع وابن عامر

﴿ سَأَلَ سَآئِلٌ ﴾ بغير همزة. الباقون بالهمز. فمن همز فهو من السؤال. والباء يجوز أن تكون زائدة ، ويجوز أن تكون بمعنى عن . والسؤال بمعنى الدعاء ، أي دعا داعٍ بعذاب ... ومن قرأ بغير همزٍ فله وجهان : أحدهما : أنه لغة في السؤال وهي لغة قريش ، تقول العرب : سال يسال ، مثل نال ينال ، وخاف يخاف. والثاني : أن يكون من السيلان ، ويؤيده قراءة ابن عباس (سال سيل) قال عبد الرحمن بن زيد : سال وادٍ من أودية جهنم يقال له : سائل ، وهو قول زيد بن ثابت. قال الثعلبي : والأول أحسن ، كقول الأعشى في تخفيف الهمزة : سالتاني الطلاق إذ رأتاني ... قلَّ مالي قد جئتماني بنكر

وفي الصحاح : قال الأخفش : يقال خرجنا نسأل عن فلان وبفلان . وقد تخفف همزته فيقال : سال يسال. انتهى.

﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ الآية تتعلق بما قبلها أي لا أحد يدفع العذاب عن الكافرين لأنه صادرٌ من الله فهو الذي أوقعه بهم ، ولا أحد يستطيع أن يدفع أمر الله إذا جاء .

﴿ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ ﴾ قيل المراد : ذي المصاعد التي تصعد فيها الملائكة ولذلك قال في الآية بعدها ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ يعني تصعد في تلك المصاعد ، وهي السماوات في قول بن عباس وزيد بن أسلم . وقال مقاتل وسعيد بن جبير : سماء فوق سماء ، والعرش فوقهن . وهي الدرجات المذكورة في قوله تعالى ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ ﴾من (١٥) سورة غافر قال القرطبي : قال بن عباسٍ والكلبي وسعيد بن جبير : رفيع السماوات السبع . وقال الطنطاوي : الدرجات : مصاعد الملائكة إلى أن يبلغوا العرش .

وقيل هو الذي يُصْعَدُ إليه بأعمال العباد وأرواحهم وهو قول الخطابي والحليمي وأبو القاسم الأصفهاني ولم يذكر الأصفهاني الأرواح وخصَّها الخطابي بأرواح المؤمنين . قال تعالى ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾من (١٠) سورة فاطر

وقيل معنى ﴿ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ ﴾ أي ذي العلو وهو مرويٌ عن بن عباس . وقال السعدي : أي ذو العلو والجلال والعظمة والتدبير لسائر الخلق .انتهى. ويكون المعنى أي الذي يُرْتَقَى إليه في الدرجات والمصاعد لعلوه على مخلوقاته . وقوله تعالى ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ﴾ أي المرتفع بذاته عن كل شيء . قاله الشعراوي . وقال السعدي والتفسير الميسر : أي العلي الأعلى الذي ارتفعت درجاته ارتفاعاً باين منه مخلوقاته وارتفع به

قدره . وقال الطنطاوي: صاحب الرفعة والمقام العالي . وقيل: رفيع الصفات وهو قول جمع من المفسرين . وقيل : هو الذي لا أرفع قدراً منه . وهو المستحق لدرجات المدح والثناء وهي أصنافها وأبوابها لا مستحق لها غيره . وهو قول الحليمي كما نقله القرطبي . والمقصود أن المعنى يدل على العلو والارتفاع في الذات والصفات ، فكذلك ﴿ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ ﴾ تدل على علوه جل وعلا وأن كل شيءٍ يصعد إليه كالدعاء والعمل الصالح والملائكة والأرواح لعلو ذاته عن مخلوقاته . قال الفراء ﴿ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ ﴾ من صفة الله عز وجل لأن الملائكة تعرج إلى الله عز وجل فوصف نفسه بذلك .انتهى.

وقيل معنى﴿ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ ﴾ أي ذي الفواضل والنعم . وهو قول قتادة . قال الرازي : وذلك لأن لأياديه ووجوه إنعامه مراتب ، وهي تصل إلى الناس على مراتب مختلفة .انتهى.

ويمكن الجمع بين تلك الأقوال فقد قال الطبري والقرطبي في معنى ﴿ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ ﴾ ذا العلو والدرجات والفواضل والنعم .

والمعارج في اللغة : جمع معرج وهو المصعد والسلم والدرج . قال الجوهري : عرج في الدرجة والسلم يعرج عروجاً : إذا ارتقى. والمعراج : السلم ، ومنه: ليلة المعراج ، والجمع : معارج ، ومعاريج .انتهى.

﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ أي تصعد إليه الملائكة والروح وهو جبريل عليه السلام ، وقيل أرواح الموتى ، فأما المؤمن فتجعل روحه في عليين ، وأما الكافر فتطرح روحه بعد صعودها طرحاً إلى سجين وهو في الأرض السفلى .

وقوله ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ ﴾ قيل هو في الدنيا والمراد أن صعود الملائكة والروح وسرعتها في الوصول بأمر الله من فوق السماوات السبع قيل من العرش وقيل من سدرة المنتهى إلى الأرض في يومٍ يوازي في سير الناس المعتاد في الدنيا خمسين ألف سنة . وهو قول مجاهد ووهب والكلبي ومحمد ابن إسحاق . قال بن كثير عند قوله تعالى﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ ﴾من (١٥) سورة غافر يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه وارتفاع عرشه العظيم العالي على جميع مخلوقاته كالسقف لها كما قال تعالى ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ ﴾ وسيأتي بيان أن هذه مسافة ما بين العرش إلى الأرض السابعة في قول جماعة من السلف والخلف وهو الأرجح إن شاء الله تعالى

وقد ذكر غير واحد أن العرش من ياقوتةٍ حمراء ، اتساع ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة ، وارتفاعه عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة .انتهى. والغريب أنه في سورة المعارج ذكر الأقوال ولم يرجح شيئاً .

وقيل هو يوم القيامة ، وأنه يكون على الكافرين بمقدار خمسين ألف سنةٍ من أيام الدنيا ، ويخفف على المؤمنين حتى يكون كما بين الظهر إلى العصر ، وقيل كقدر صلاةٍ مكتوبة . وقيل كما بين تدلي الشمس للغروب إلى أن تغرب . وهو قول بن عباسٍ والحسن وقتادة وعكرمة والضحاك وبن زيد ورجحه القرطبي .

وقيل أن المراد أن الله يحاسب الناس والخلائق جميعاً يوم القيامة ويقضي بينهم في ساعةٍ من يوم ما لا يستطيع أحدٌ فعله في خمسين ألف سنة وهو معنى قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ ﴾ من (٥١) سورة إبراهيم وهو مرويٌ عن بن عباسٍ وعكرمة والكلبي ومحمد بن كعب .

وقيل : هو مدة عمر الدنيا من أول ما خلقت إلى آخر ما بقي خمسون ألف سنة . لا يدري أحدٌ كم مضى ولا كم بقي إلا الله عز وجل. وهو مرويٌ عن مجاهد والحكم وعكرمة كما ذكر ذلك القرطبي .

وروي عن بن عباسٍ التوقف ، فعن ابن أبي مليكة أن رجلا سأل ابن عباسٍ عن يومٍ كان مقداره ألف سنة ؟ فقال بن عباسٍ : ما يومٌ كان مقداره خمسين ألف سنة ؟ قال: إنما سألتك لتخبرني ، قال : هما يومان ذكرهما الله في كتابه الله أعلم بهما .

والصحيح أنه يوم القيامة لما جاء في صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (ما من صاحب كترٍ لا يؤدي زكاته إلا أحمي عليه في نار جهنم ، فيجعل صفائح فيكوى بها جنباه وجبينه حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار ، وما من صاحب إبلٍ لا يؤدي زكاتها إلا بطح لها بقاعٍ قرقر كأوفر ما كانت تستن عليه كلما مضى عليه آخرها ردت عليه أولاها حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار وما من صاحب غنم لا يؤدي زكاتها إلا بطح لها بقاعٍ قرقر كأوفر ما كانت فتطؤه بأظلافها وتنطحه بقرونها ليس فيها عقصاء ولا جلحاء كلما مضى عليه أخراها ردت عليه أولاها حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار) وفي رواية عنده أيضاً من حديث أبي هريرة مرفوعاً (ما من صاحب ذهبٍ ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صُفِّحَت له

صفائح من نار فأحمي عليها في نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره كلما بردت أعيدت له في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار) قيل يا رسول الله فالإبل قال (ولا صاحب إبلٍ لا يؤدي منها حقها ومن حقها حلبها يوم وردها إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاعٍ قرقر أوفر ما كانت لا يفقد منها فصيلاً واحداً تطؤُه بأخفافها وتعضه بأفواهها كلما مرَّ عليه أولاها ردَّ عليه أخراها في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار) قيل يا رسول الله فالبقر والغنم قال (ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاعٍ قرقر لا يفقد منها شيء ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء تنطحه بقروها وتطؤُه بأظلافها كلما مرَّ عليه أولاها ردَّ عليه أخراها في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار)

وقال صلى الله عليه وسلم (كيف بكم إذا جمعكم الله كما يجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة ثم لا ينظر الله إليكم) رواه الحاكم وقال هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه وصححه الذهبي . وانظر السلسلة الصحيحة للألباني حديث رقم (٢٨١٧)

وقال صلى الله عليه وسلم يقوم الناس لرب العالمين مقدار نصف يومٍ من خمسين ألف سنة يهون ذلك على المؤمنين كتدلي الشمس للغروب إلى أن تغرب. رواه أبو يعلى وبن حبان وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم (٣٥٨٩) وكذلك صححه الأرنؤوط .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً كان مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هذا اليوم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا) رواه أحمد وأبو يعلى وقال شعيب الأرنؤوط : إسناده ضعيف وكذلك قال حسين سليم أسد ، وضعفه أيضاً الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب حديث رقم (٢٠٩٥)

وسياق الآيات يدل على أن المقصود يوم القيامة فإنه قال ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ ﴾قال كثيرٌ من المفسرين : المراد عذاب يوم القيامة . ثم قال ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ ﴾أي أن العذاب يقع في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة وهو يوم القيامة حيث تعرج الملائكة والروح إلى الله في ذلك اليوم ويبقى الناس في موقف القيامة تلك المدة لا يُلْتَفَتُ إليهم كما سبق في الحديث وأنه يخفف على المؤمنين . وقال الألوسي في روح المعاني : تخصيص عروج الملائكة والروح بذلك اليوم مع أن عروجهم متحققٌ في غيره أيضاً للإشارة إلى عظم هوله وانقطاع

الخلق فيه إلى اللّه عز وجل وانتظارهم أمره سبحانه فيهم . انتهى. ثم قال تعالى ﴿ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝٧ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ۝٩ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤ ﴾ وكل ذلك يقع في يوم القيامة ، فسياق الآيات يدل على أن المراد يوم القيامة وجاءت الأحاديث تؤكد أن يوم القيامة مقداره خمسين ألف سنة فتبين أنه هو المقصود بهذه الآية فخير ما يفسر به كلام الله هو كلام الله عز وجل وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم .

وهذا اليوم خمسين ألف سنة على حقيقته ، وقيل هو مجاز على سبيل التمثيل بما تقوله العرب ، لأن العرب تصف أيام الشدة بالطول ، فيقولون : يومٌ كخمسين يوم . يعني مما لاقوه فيه من الشدة والعناء ، فكذلك يوم القيامة على الكافرين كخمسين ألف سنة لما يلاقونه فيه من الشدة والعذاب . لكن هذا غير صحيح لأن ألفاظ الشارع تحمل على الحقيقة والمعنى المتبادر ولا تحمل على المجاز إلا بقرينة صارفة عن الحقيقة إلى المجاز ولا قرينة صارفة هاهنا .

وأما قوله تعالى ﴿ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ﴾ سورة السجدة فقد قال بن عباسٍ ومجاهد وقتادة والسدي وأبو مالك ومقاتل والطبري : يعني بذلك نزول الأمر من السماء الدنيا إلى الأرض ، ومن الأرض إلى السماء الدنيا في يومٍ واحد ، فذلك مقداره في سيركم المعتاد ألف سنة ، لأن ما بين السماء إلى الأرض ، مسيرة خمسمائة عام . فالنزول ثم العروج ألف سنة .

وقيل هو يوم القيامة وأن مواقف القيامة خمسون موقفاً كل موقفٍ منها ألف سنة ومجموعها خمسين ألف سنة وهو قول يمان كما ذكره القرطبي .

وقيل هو يوم القيامة مدته ألف سنة لكنه يطول على الكفار حتى يكون كخمسين ألف سنة من شدته وعسره ، ويقصر على المؤمنين حتى يكون كنصف يومٍ من أيام الدنيا ، وقيل أقل من ذلك وتقدم .

وقيل هو اليوم من أيام خلق السماوات والأرض الستة كل يومٍ عن ألف يوم . وهو مرويٌ عن بن عباس والضحاك .

وقيل يقضي الله جل وعلا أمر كل شيء لألف سنةٍ قادمة في يومٍ واحدٍ ثم يلقيه إلى ملائكته ، فإذا مضت الألف سنة قضى لألف سنةٍ أخرى ، ثم كذلك أبداً وهو قول مجاهد .

وقيل هو عذاب الكفار فمرة يعذبون بعذابٍ مدته خمسين ألف سنة ومرةً يعذبون بعذابٍ مدته ألف سنة .

والظاهر أن المقصود بالألف سنة في آية السجدة هي أيام خلق السماوات والأرض لأن سياق الآيات يدل على ذلك فإنه تعالى قال ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ﴾ سورة السجدة فذكر قبلها خلق السماوات والأرض وما بينهما واستواؤه على العرش ، وذكر بعدها خلق آدم ، فدلَّ على أن المراد أيام خلق السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما وتدبير الأمور في تلك الأيام . ولا يمنع ذلك أن يكون من معانيها أيضاً مقدار مسافة السير بين السماء والأرض . فإن الآية تُحْمَل على كل المعاني التي تحتملها . وقد وردت أخبار تفيد أن المسافة بين السماء والأرض خمسمائة عام وإن كان المرفوع منها قد ضعفها أكثر العلماء لكن كثرة الروايات تدل على أن لها أصلاً والعلم عند الله تعالى ، وأما الأقوال الأخرى فيبدوا أنها بعيدة وتحتاج إلى أدلة حتى نستطيع حمل الآيات عليها .

وأما قوله تعالى ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ من (٤٧) سورة الحج

قيل هو اليوم من أيام الآخرة . وهو قول مجاهد وعكرمة وعن أبي هريرة مرفوعاً (يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يومٍ خمسمائة عام) رواه الترمذي وصححه الألباني . والمعنى على هذا : أنهم يستعجلون بالعذاب ، وإن يوماً من أيام عذابهم في الآخرة ألف سنة .

وقيل هو اليوم من أيام خلق السماوات والأرض الستة كل يومٍ عن ألف يوم . قال بن كثير : عن بن عباسٍ ...وبه قال مجاهد وعكرمة ونص عليه أحمد بن حنبل في كتاب "الردّ على الجهمية".انتهى. وهو قول مقاتل .

وقيل هو مدة الحساب يوم القيامة وهو قول بن عباس كما نقله الطبري .

وقيل يقضي الله جل وعلا أمر كل شيء لألف سنةٍ قادمة في يومٍ واحدٍ ثم يلقيه إلى ملائكته ، فإذا مضت الألف سنة قضى لألف سنةٍ أخرى ، ثم كذلك أبداً وهو قول مجاهد .

وقيل أن اليوم على الكفار في النار كألف سنة من شدته وثقله والعرب تصف اليوم الشديد باليوم الطويل .

وقيل: معناه إن يوماً عنده وألف سنةٍ في الإمهال سواء ، لأنه قادر متى شاء أخذهم لا يفوته شيءٌ بالتأخير فيستوي في قدرته وقوع ما يستعجلون به من العذاب وتأخره . وهو مرويٌ عن بن عباس .

وأقول : الآية واضحة في أن المراد مقدار اليوم عند الله ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾من (٤٧) سورة الحج وعن سعد بن أبي وقاصٍ رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إني لأرجو أن لا تعجز أمتي عند ربها أن يؤخرهم نصف يوم) قيل لسعد وكم نصف يوم ؟ قال : خمسمائة سنة . رواه أبو داود وصححه الألباني . وعليه فيشمل قول من قال : هو اليوم من أيام الآخرة . فإن أيام الآخرة من الأيام التي عند الله تعالى ، يؤيد ذلك ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام نصف يوم) رواه الترمذي وصححه الألباني . وكذلك لا يعارض قول من قال : هو اليوم من أيام خلق السماوات والأرض . فكل ذلك من اختلاف التنوع لا التضاد .

وحينئذٍ يكون المراد بالآية تخويفهم من طول عذاب الآخرة أو بيان عدم استعجال الرب في عقوبة من استعجل العذاب من الكافرين ، لأن اليوم عنده ليس كاليوم عندهم ، فالبعيد عندهم قريبٌ عنده ، والعذاب آتيهم لا محالة ولذلك قال ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ يعني في أن العذاب آتيهم ولو طال إمهالهم ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ فلا يستعجل كاستعجالهم . قال الطبري : وإن يوماً من الأيام التي عند الله يوم القيامة يومٌ واحد كألف سنة من عددكم وليس ذلك عنده ببعيد ، وهو عندكم بعيد ، فلذلك لا يعجل بعقوبة من أراد عقوبته حتى يبلغ غاية مدّته .انتهى. وقال القرطبي : قال عكرمة : يعنى من أيام الآخرة ، أعلمهم الله إذ استعجلوه بالعذاب في أيامٍ قصيرة أنه يأتيهم به في أيام طويلة . قال الفراء : هذا وعيدٌ لهم بامتداد عذابهم في الآخرة . انتهى .

وعليه ينتفي التناقض بين الآيات الثلاث لاختلاف معانيها ، فآية الحج تتحدث عن طول الأيام عند الله وأنها تختلف عن طول الأيام عند الناس . وأما آية السجدة فتتحدث عن مدة خلق السماوات والأرض وما بينهما ، أو تتحدث عن مقدار المسافة بين السماء الدنيا والأرض ، وأما آية المعارج فتتحدث عن يوم القيامة وأن مدته خمسين ألف سنة . فلا تعارض بينها والحمد لله .

﴿ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥ ﴾ أمر الله نبيه بالصبر الجميل على ما يلاقيه من أذى الكفار ، والصبر الجميل هو الذي لا جزع فيه ولا شكوى منه لغير الله كما قال يعقوب عليه السلام لما فقد ابنه ﴿ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞ ﴾ من (١٨) سورة يوسف قال عبد الأعلى بن الحجاج : الصبر الجميل : هو أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يعرف من هو .

﴿ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ ﴾ أي يرى الكفار أنه لن يكون هناك يوم بعثٍ ولا حسابٍ ولا عذاب فيوم القيامة مستبعدٌ عندهم لإنكارهم إياه وتكذيبهم به .

﴿ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝٧ ﴾ أي نراه حقاً واقعاً قريباً . لأن كلما هو آتٍ فهو قريب .

﴿ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ۝٨ ﴾ قيل المهل : هو دردري الزيت وعكره . يعني حثالة الزيت وتكون مائلةً إلى السواد والغلظة . قال بن عباس : كدردي الزيت وسواد العرق من خوف يوم القيامة . وقال مقاتل : يعنى أسود غليظاً كدردي الزيت . وقيل هو الرصاص والذهب والفضة إذا انماعت في النار واسودَّ لونها . فعن بن مسعودٍ أنه دعا بذهبٍ وفضة فأذابهما ثم قال : هذا أشبه شيء في الدنيا بالمهل . وعن بن عباسٍ وقتادة : أنها تتحوّل يومئذٍ لوناً آخر إلى الحمرة .

والمعنى أن السماء في يوم القيامة تكون كحثالة الزيت ومصهور المعادن ذائبةً متلونةً بعد قوتها وتماسكها .

﴿ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ۝٩ ﴾ العهن هو الصوف وقال بن الأعرابي : لا يكون العهن من الصوف إلا المصبوغ وقد بيّن تعالى في سورة القارعة بأنها تكون كالصوف المتهالك فقال ﴿ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ۝٥ ﴾ أي كالصوف المندوف الذي شرع في الذهاب والتمزق .

﴿ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٞ حَمِيمٗا ۝١٠ ﴾ الحميم هو القريب ، وقيل هو الصديق . مأخوذٌ من الحَمِّيَة لأنه يحمي بعضهم بعضاً في الدنيا ، وقيل مأخوذٌ من الحميم وهو الماء الحار لأن القريب والصديق يرق قلبه ويحترق على قريبه

وصديقه . والمعنى أنه لا يسئل بعضهم بعضاً عن أحوالهم وأمورهم كما كانوا يفعلون في الدنيا عند المقابلة بعد المباعدة والاغتراب . قال بن كثير : أي لا يسأل القريب عن حاله وهو يراه في أسوأ الأحوال ، فتشغله نفسه عن غيره .انتهى. ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ وليست هذه المتاركة وعدم السؤال عن الأحوال بسبب الغفلة عن رؤية قريبه وصديقه بل يبصره ويراه ويعرفه ، وإنما شُغِلَ بنفسه لأمرٍ هو أعظم من ذلك وهو خوف العذاب. ﴿ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ ﴾ يتمنى المجرم وهو الكافر لو يفتدي ويتخلص من عذاب جهنم يوم القيامة ولو بأحب الناس إليه في الدنيا وهم أبنائه . ﴿ وَصَٰحِبَتِهِۦ ﴾أي زوجته التي طالما صاحبها في الدنيا بالمحبة والمودة ، ولكن الأمر في الآخرة أشد من أمور الدنيا كلها ولذلك يتمنى أن لو افتدي بزوجته فينجو ولو أن تدخل هي النار . ﴿ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ ﴾ الذي كان عضده ونصيره في الدنيا وأما في الآخرة فيتمنى أن يتخلص من النار ولو بأخيه . ﴿ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ ﴾ قبيلته وعشيرته التي كان يحتمي بها في الدنيا فتضمه وتنصره ، وأما في الآخرة فيتمنى فداء نفسه ولو بهلاك قبيلته كلها . وقيل المراد بفصيلته : رهطه وفخذه الأدنى وهو قول عكرمة ومقاتل وأبو عبيدة وثعلب والمبرد . والأول قول مجاهد والضحاك والسدي ومحمد بن كعب وعبد الرحمن بن زيد . وقال بن قتيبة : العشيرة تكون للقبيلة ولمن دونهم ولمن قرب إليه من أهل بيته .انتهى. وروي عن مالك أنها أمه . يعني التي تضمه ويحتمي بها في صغره فيتمنى الفداء بها في الآخرة.

قال الماوردي ﴿ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴾ فيه وجهان : أحدهما : التي يأوي إليها في نسبه ، قاله الضحاك . الثاني : يأوي إليها في خوفه .انتهى.

﴿ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ ﴾ أي يتمنى لو يفتدى بكل من على وجه الأرض ثم ينجو هو من العذاب من شدة الخوف وعظيم ما يرى من العذاب .

﴿ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ كلا أي لن ينفعه الفداء بكل أولئك وقد طُلِبَ منه في الدنيا دون ذلك فأبى ، وأما الآخرة فهي دار الجزاء ، وحينئذٍ يكون مئاله ﴿ لَظَىٰ ﴾ أي جهنم التي تتلظى من شدة توقدها فإنها ﴿ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ أي تترع بشدة توقدها وحرارتها جلدة الرأس وأطراف البدن . قال أبو عبيدة : الشوى عند العرب الأطراف من الإنسان نحو اليدين والرجلين وما أشبه ذلك ، والشواة جلدة الرأس والشوى جمعها . وقال : أنشد أبو الخطاب يعني الأخفش أبا عمرو بن العلاء بيت الأعشى :

قالت قُتَيْلَةُ ما لَهُ قد جُلِّلَتْ شَيْباً شَواتُه

فقال له أبو عمرو صحَّفت كبرت الراء فظننتها واواً إنما هو قد جللت شيبا سَراته وسراة كل شيء أعلاه . قال أبو عبيدة : فمكثنا دهراً نظن أن أبا الخطاب أخطأ وأن أبا عمرو هو المصيب حتى قدم علينا أعرابي محرم فسمعناه يقول : قد اقشعرَّت شواتي . يريد قد اقشعرت جلدة رأسي . قال فعلمنا أن أبا عمرو وأبا الخطاب أصابا جميعاً .انتهى من الزاهر للأنباري .

وقال في الصحاح : الشوى جمع شواة وهي جلدة الرأس. والشوى اليدان والرجلان والرأس من الآدميين وكل ما ليس مقتلاً . يقال : رماه فأشواه إذا لم يصب المقتل . قال الهذَلِيّ:

فإنَّ من القول التي لا شَوى لها إذا زَلَّ عن ظهر اللسان انْفِلاتُها

يقول: إنَّ من القول كلمةً لا تُشْوي ولكن تقتُل. انتهى.

وقال بن عباسٍ : تنزع أم الرأس . وعنه : الجلود والهام . وقال مجاهد : جلدة الرأس . وقال سعيد بن جبير : فروة الرأس . وقال قتادة : نزاعةً لهامته ومكارم خَلْقِهِ وأطرافه . وقال مقاتل : تنزع النار الهامة والأطراف . وقال أبو صالح : الأطراف . وعنه لحم الساقين . وعن مجاهد والضحاك : تفري اللحم والجلد عن العظم . وقال الحسن وثابت البناني : مكارم وجهه .

وهذا من اختلاف التنوع لا التضاد ، فإن النار إذا نزعت أم الرأس وهي فروة الرأس أو جلدة الرأس ونزعت الأطراف ومن الأطراف لحم الساقين ، فإنها حينئذٍ سوف تذهب بمكارم وجهه وخَلْقِهِ ، وتفري اللحم والجلد عن العظم .

ولا يعارض هذا قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ﴾ من (٥٦) سورة النساء فإنها إذا أكلت الجلود وصلت إلى اللحم ففرته عن العظم ، ويمكن أن ينوع الله عليهم العذاب فمرةً يشويهم بالنار حتى تمزق لحومهم وعظامهم ، ومرة يُبَدِّلُ لهم الجلود من حين نضوجها . قال السيوطي : أخرج ابن أبي شيبة ، وعَبد بن حُمَيد ، وَابن المنذر ، وَابن أبي حاتم عن الحسن في الآية قال : بلغني أنه يحرق أحدهم في اليوم سبعين ألف مرة كلما أنضجتهم وأكلت لحومهم قيل لهم

عودوا فعادوا . وأخرج ابن المنذر عن الضحاك في الآية قال : تأخذ النار فتأكل جلودهم حتى تكشطها عن اللحم حتى تفضي النار إلى العظام ويبدلون جلوداً غيرها يذيقهم الله شديد العذاب .انتهى من الدر المنثور.

﴿ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ أي النار تدعو من أدبر عن طاعة الله وتولى عن الإيمان به . فتقول هلم إلي ونحو ذلك . قال القرطبي : ودعاؤها أن تقول : إلي يا مشرك ، إلي يا كافر . وقال ابن عباس : تدعو الكافرين والمنافقين بأسمائهم بلسانٍ فصيح : إلي يا كافر ، إلي يا منافق ، ثم تلتقطهم كما يلتقط الطير الحب . وقال ثعلب : تَدْعُوا أي تهلك . تقول العرب : دعاك الله ، أي أهلكك الله. وقال الخليل : إنه ليس كالدعاء تعالوا ولكن دعوتها إياهم تمكنها من تعذيبهم. وقيل : الداعي خزنة جهنم ، أضيف دعاؤهم إليها. وقيل هو ضرب مثل ، أي إن مصير من أدبر وتولى إليها ، فكأنها الداعية لهم .انتهى. وقد رجَّحَ الأول وهو كذلك فإن الله قادرٌ على أن يجعلها تتكلم بلسانٍ فصيحٍ ليلحق الكفار منها الخوف والفزع العظيم .

﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ أي جمع المال في وعاءٍ ولم يؤد حق الله فيه من الزكاة والنفقات الواجبة عليه . وعن قتادة : كان جموعاً للخبيث . فيكون قد جمع المال من الحرام ثم أمسكه أيضاً فلم يزكه ولم يتصدق منه .

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ ﴾ الهلوع هو الجزوع الشحيح . فتفسيرها ما بعدها ﴿ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ ﴾ يعني إذا ابتلاه الله بمصيبةٍ جزع ولم يصبر على ما قدَّره الله عليه ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾ وإذا أعطاه الله المال بخل به ولم يؤد حق الله فيه ، والمراد بالإنسان الكافر . وقال ابن كيسان : خلق الله الإنسان يحب ما يسره ويرضيه ، ويهرب مما يكرهه ويسخطه ، ثم تعبَّده الله بإنفاق ما يحب ، والصبر على ما يكره .انتهى.

﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ يعني المسلمين الذين يؤمنون بوجوب الصلاة عليهم ، فإنهم لا يتصفون بهذه الصفات القبيحة ، لأنهم يؤمنون أن كلاً من عند الله ، فإذا ابتلاهم الله بالضراء صبروا ورضوا بقضاء الله وقدره ، وإذا ابتلاهم بالسراء شكروا وأنفقوا مما أعطاهم الله ولم يبخلوا . ولكن ليس كل المسلمين كذلك ، ولذلك جاء التفصيل في صفات من يتحلى بهذه الأخلاق فقال﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ أي لا يتركون الصلاة المكتوبة مطلقاً . وقيل معنى ﴿ دَآئِمُونَ ﴾ أي يحافظون على مواقيتها وهو مرويٌ عن بن مسعودٍ ومسروق . وقيل هم الذين يقبلون على صلاتهم ولا يلتفتون يمنةً ويسرة وهو مرويٌ عن عقبة بن عامرٍ وعمران بن حصين رضي الله عنهما . يعني من الخشوع والسكون وهو يوافق المعنى اللغوي فإن الدائم هو الساكن في

اللغة وفي الحديث (لاَ يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ) متفق عليه يعني الساكن . ويمكن الجمع بين الأقوال ولذلك قال السعدي : مداومون عليها في أوقاتها بشروطها ومكملاتها .انتهى.

﴿ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٢٤﴾ ﴾ قيل هو الزكاة المفروضة وهو قول قتادة وبن سيرين . وقال بن عمر وبن عباسٍ ومجاهد والشعبي وإبراهيم : في المال حقٌ سوى الزكاة . وقد رجح القرطبي أنها الزكاة المفروضة لأنها هي المعلومة وما سواها فبقدر الحاجة . وقال الطبراني : يعني الزكاةَ المفروضةَ لأن ما لا يكون مَفرُوضاً لا يكون مَعْلُوماً .انتهى. ورجح آخرون أنها غير الزكاة لأن السورة مكية والزكاة فرضت بالمدينة ، ولذلك روي عن بن عباسٍ أنها نسخت بآية التوبة ، وأن كل صدقةٍ في القران فهي منسوخة بآية التوبة ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦٠﴾ ﴾ ذكره في الدر المنثور . والقول بأنها الزكاة المفروضة أولى من القول بالنسخ لثبوت قراءتها وحكمها ، فإن الفقير سواءً كان سائلاً أو محروماً تجب لهم الزكاة فلهم حقٌ معلومٌ في المال .

وقوله تعالى ﴿ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾ السائل : هو الفقير الذي يتعرض لسؤال الناس وهذا بالاتفاق .

والمحروم : هو الفقير المتعفف الذي لا يسأل الناس ، وهذا قول قتادة والزهري .

وقيل : هو المحارف وهو قول بن عباس وسعيد بن المسيب ومجاهد والضحاك وعطاء وإبراهيم وعكرمة ونافع والشافعي . والمحارف هو الذي يتحرف ولكن لا يكسب شيئاً ، فمن رآه يتحرف ظن أنه متكسب فلم يعطه شيئاً ، وهو متعففٌ لا يسأل الناس ، فهذا هو المحروم . قال بن عباسٍ : المحروم هو المحارف الذي يطلب الدنيا وتدبر عنه فلا يسأل الناس . وقال عكرمة : الذي لا ينمي له مال . وقال إبراهيم : هو المحارف الذي ليس له أحد يعطف عليه أو يعطيه شيئاً . وقال الشافعي: المحروم المحارف الذي يحترف بيديه قد حرم سهمه من الغنيمة لا يغزو مع المسلمين ، فبقي محرومًا ، وما يعطى من الصدقة ما يسد حرمانه .انتهى.

وقيل المحروم هو الذي اصابته جائحة ، فعن أبي قلابة رحمه الله قال : جاء سيلٌ باليمامة فذهب بمال رجل فقال رجلٌ من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم : هذا المحروم . وقال ابن زيد : المحروم هو المصاب ثمره وزرعه وقرأ ﴿ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾

﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾سورة الواقعة وقال أصحاب الجنة ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾سورة القلم وقال الضحاك : هو الذي لا يكون له مال إلا ذهب ، قضى الله له ذلك .

وقال مالك : هو الذي يحرم الرزق . ذكره القرطبي وقال : هذا قولٌ حسن ، لأنه يعم جميع الأقوال .انتهى.

وتوقف آخرون فعن أبي بشر قال : سألت سعيد بن جبير عن المحروم فلم يقل فيه شيئاً . وقال الشعبيّ : أعياني أن أعلم ما المحروم . ذكر ذلك الطبري وقال القرطبي : قال الشعبي : لي اليوم سبعون سنة منذ احتلمت أسأل عن المحروم فما أنا اليوم بأعلم مني فيه يومئذ .انتهى.

والصحيح الجمع بين الأقوال وهو فعل الطبري لأن المقصود أنه فقيرٌ متعفف سواءً كان فقره بعدم توفيقه في التجارة أو بسبب جائحة وهو لا يسأل الناس ولا يأخذ من الغنيمة ولا من بيت المال . والعلم عند الله تعالى.

﴿ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ ﴾ أي يؤمنون ويقرون بيوم الجزاء والحساب وهو يوم القيامة.

﴿ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ وأيضاً يؤمنون بالنار وعذابها ولذلك فهم خائفون وجلون منها .

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ ﴾ لأن عذاب الله لا يأمنه أحد ، فإن الإنسان لا يدري ما يختم له به ، فإن القلوب بين اصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ، فلا يأمن الواقع في الذنوب أن يحول الله قلبه عن الإيمان إلى الكفر كما قال تعالى ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ سورة الأنعام وقال تعالى ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ سورة الأعراف ولذلك كلما كمل إيمان المرء كلما زاد خوفه من الله كما قال تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ من (٢٨) سورة فاطر

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ ومن صفاتهم يحفظون فروجهم فلا يطؤون إلا زوجاتهم أو ما ملكت إيمانهم ولا يلامون على وطء زوجاتهم وإمائهم ، ولكن من وطئ غير زوجته وأمته فهو المتعدي لحدود الله ، وقد قيل أن هذه الآية خاصة بالرجال دون النساء لإجماع العلماء على أن المرأة لا يحل لها أن تمكن مملوكها منها ، وقد أُمِرَ النساء بحفظ فروجهن في أدلةٍ أخر كقوله تعالى ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾من (٣١) سورة

النور وقوله تعالى ﴿ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ ﴾ من (٣٥) سورة الأحزاب ويمكن أن تكون عامةً للرجال والنساء ولكن خُصِّصَ منها ملك اليمين للرجال بإجماع العلماء .

وفي الآية دليلٌ على منع الاستمناء باليد أو نحوها وهو ما يسمى بجلد عميرة وفيه يقول الشاعر :

إذا حللت بوادٍ لا أنيس به فاجلد عميرة لا داء ولا حرج

وهو قول عامة العلماء ، وروي عن أحمد جوازه للحاجة ، لأنه إخراج فضلةٍ من البدن فجاز عند الحاجة كالفصد والحجامة . والصحيح أنه لا يجوز للآية ، ولأنه يزيد الشهوة ولا ينقصها ، فإن الشهوة كماء البئر كلما أخذت منها زادت وإن تركتها جفت فكذلك الشهوة ، ولأنها تسبب أمراضاً كثيرة ولا خير فيها البتة والآية قد ذكرت الأصناف التي لا تحفظ منها فرجك فيبقى الباقي على المنع والعلم عند الله تعالى .

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ يحفظون الأمانات والعهود فلا يضيعونها كحال المنافقين الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم (أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ)

﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ أي يؤدون الشهادة عند الحاكم ولا يكتمونها أو يغيرون فيها بل يؤدونها كما هي لا يمنعهم من القيام بها محبة المشهود عليه أو الخوف منه كما قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ من (١٣٥) سورة النساء

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ كرر الصلاة لأهميتها وعظيم شأنها ولأن تركها كفر سواءً كان جحوداً بالإجماع أو تهاوناً وكسلاً على القول الراجح لقول النبي صلى الله عليه وسلم (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر) وقال (بين الرجل وبين الكفر أو الشرك ترك الصلاة) وقال شقيق التابعي : كان أصحاب محمدٍ صلى الله عليه وسلم لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر إلا الصلاة .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ بعد أن ذكر أعمالهم ذكر جزاءهم وأنه سيدخلهم الجنة ويكرمهم فيها .

﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ ﴾ أي ما الذي جعل الكفار نحوك ﴿ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ يعني مسرعين مقبلين عليك يمدون أعناقهم إليك ويديمون النظر فيك . وهو سؤال متضمنٌ للجواب يعني فعلوا ذلك استهزاءً واحتقاراً وتكبراً .

قال في التفسير الميسر : فأي دافعٍ دفع هؤلاء الكفرة إلى أن يسيروا نحوك أيها الرسول مسرعين وقد مدوا أعناقهم إليك مقبلين بأبصارهم عليك .انتهى. وقال محمد الأشقر في زبدة التفسير : أي حواليك مسرعين إلى التكذيب ويستهزئون بك . وقيل مهطعين مادي أعناقهم مديمي النظر إليك . انتهى.

ومهطعين من هطع يهطع هطعاً وهطوعاً فهو هاطعٌ ومهطع وتدل على معاني كثيرة في لغة العرب منها :

أولاً / أَقْبَلَ على الشيء ببصره فلم يرفعه عنه . يعني مُحَمِّجِين ، والتَّحْمِيجُ إِدامةُ النظر مع فتح العيْنَيْنِ وإِلى هذا مال أَبو العباس .

ثانياً / النظر في ذُلٍّ وخُضوع . وهو قول ثعلب . قال الليث : يقال للرجل إِذا أَقَرَّ وذَلَّ أَرْيَخَ وأَهْطَعَ وأَنشد:

تَعَبَّدَنِي نِمْرُ بن سَعْدٍ وقد أُرَى وِنمْرُ بن سَعْدٍ لي مُطِيعٌ ومُهْطِعُ .

قال الخليل : يقول : كان ذليلاً لي فصار فَوْقي .

ثالثاً / مسرعين وهو قول الزجاج وإبراهيم بن السري ، وقيل هو أن يقبل مسرعاً وزاد أبو عبيدة : خائفاً . قال : ولا يكون ذلك إلا مع خوف وكذا قاله بن دريد كما نقله في تاج العروس . وقال في فقه اللغة : الإِهْطَاعُ مِشْيَةُ المُسْرِع الخَائِفِ .

رابعاً / الساكِتُ في تذللٍ وخوف ، المنطلق إِلى من دعاه . قاله في المعجم الوسيط .

خامساً / مَدَّ عنقه وصَوَّبَ رأْسه . قال الليث : بعير مُهْطِعٌ في عُنُقِه تصويبٌ خِلْقة . (انظر المحكم وجمهرة اللغة والمعجم الوسيط)

و لم يذهب السلف بعيداً عن هذه المعاني فقال بن عباس : يَنْظُرُونَ . وعنه : مُسْرِعَيْنِ نَظَرُهُمْ قِبَلَ دَاعِيهِمْ إِلَى ذَلِكَ الْمَوْقِفِ . وعنه : مذعنين خاضعين . وعنه : النَّظَرُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَطْرِفَ ، وهو قول الضحاك وبن زيد ومقاتل . وقال مجاهد : مُدِيمِي النَّظَرِ . وقال ابو الضحى وتميم : هو التَّحْمِيجُ . وقال قتادة : مُسْرِعِينَ. وعنه: مُنْطَلِقِينَ عَامِدِينَ إِلَى الدَّاعِي . وقال الحسن : مُنْطَلِقِينَ . وقال سعيد بن جبير : النَّسَلاَنُ كعدو الذئب ذكره البغوي وعند الطبري بسنده عن أبي سعيد المؤدّب عن سالم عن سعيد بن جبير قال : النَّسَلاَنُ وَهُوَ الْخَبَبُ أَوْ مَا دُونَ الْخَبَبِ شَكَّ أَبُو سَعِيدٍ : يَخُبُّونَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ .انتهى. وقال مقاتل : مقبلين .

فهذه ثلاثة معانٍ : إدامة النظر ، والإسراع ، والخضوع . فإن قولهم (ينظرون ، ومديمي النظر ، والنظر من غير أن يطرف ، والتحميج وهو إدامةُ النظر مع فتح العيْنَيْنِ) كلها تدل على معنىً واحد وهو النظر الشديد. وقولهم (مسرعين ومنطلقين ومخبين) تدل على الإسراع ، والخبب هو العدو أو المشي السريع كالرمل . (ومقبلين وعامدين) الإسراع باتجاه الشيء . والإذعان بمعنى الخضوع قال في الصحاح : أَذْعَن له ، أي خضعَ وذلّ .انتهى. وقال في القاموس المحيط : أذْعَنَ له : خَضَعَ وذَلَّ وأقَرَّ وأسْرَعَ في الطَّاعَةِ وانْقادَ .انتهى.

وكلمة (مهطعين) قد ذكرت ثلاث مرات في القرآن ، مرتان في أمر الآخرة : الأولى في سورة إبراهيم ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ ﴾والثانية في سورة القمر ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ﴾ومرةً في حادثةٍ في الدنيا وهي التي في هذه السورة ﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ وكلها تدل على الإقبال على الشيء ، والإسراع نحوه ، وإدامة النظر فيه ، ومد العنق وتصويب الرأس نحوه ، إلا أن الخضوع والذل والإذعان والخوف قد يكون في الآخرة ولا يكون في الدنيا والعلم عند الله تعالى .

﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ عن يمين النبي صلى الله عليه وسلم وشماله جماعات صغيرة متفرقة لأن العزين هي الحلق المتفرقة فعن جَابِرُ بْنُ سَمُرَةَ رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرآنا حلقًا فَقَالَ (مَالِي أَرَاكُمْ عِزِينَ) رواه مسلم. قال القرطبي : العزين جماعاتٍ في تفرقة قاله أبو عبيدة .انتهى.

قال بن عباس في معنى الآية : الْعَصَبُ مِنَ النَّاسِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ مُعْرِضِينَ عَنْهُ يَسْتَهْزِئُونَ بِهِ. وقال قتادة : فِرَقًا حَوْلَ نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لاَ يَرْغَبُونَ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَلاَ فِي نَبِيِّهِ . وقال الضحاك : حِلَقًا وَرُفَقًا. وقال بن زيد : الْعِزِينَ : الْمَجْلِسُ الَّذِي فِيهِ الثَّلاَثَةُ وَالأَرْبَعَةُ ، وَالْمَجَالِسُ الثَّلاَثَةُ وَالأَرْبَعَةُ ، أُولَئِكَ الْعُزُونَ. وقال الحسن : عِزِينَ : مُتَفَرِّقِينَ ، يَأْخُذُونَ يَمِينًا وَشِمَالاً ، يَقُولُونَ : مَا قَالَ هَذَا الرَّجُلُ ؟. وقال مقاتل : يعنى حلقاً حلقاً جلوساً لا يدنون من النبي صلى الله عليه وسلم فينتفعون بمجلسه .

﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ قال القرطبي : قال المفسرون : كان المشركون يجتمعون حول النبي صلي الله عليه وسلم ويستمعون كلامه فيكذِّبُونَه ويَكْذِبُونَ عليه ويستهزئون بأصحابه ويقولون :

لئن دخل هؤلاء الجنة لندخلنها قبلهم ، ولئن أعطوا منها شيئاً لنعطين أكثر منه ، فنزلت ﴿ أَيَطْمَعُ ﴾ الآية .انتهى. قال الضحاك في معنى الآية : يقول كلا لست فاعلاً . انتهى من الدر المنثور.

﴿ كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ قال الضحاك : يعني النطفة التي خلق منها البشر. وقال قتادة : إنما خلقت من قذر يا ابن آدم فاتق الله . عن بُسْر بن جَحَّاش أن النبي صلى الله عليه و سلم بزق يوماً في كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال (قال الله : ابن آدم أنَّى تُعجِزني وقد خلقتك من مثل هذه ، حتى إذا سويتك وعدلتك ، مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت ، حتى إذا بلغت التراقي قلت : أتصدقُ وأنى أوان الصدقة) رواه أحمد وبن ماجة وحسن إسناده شعيب الأرنؤوط . والمعنى أنهم لن يدخلوا الجنة بسبب مترلتهم في الدنيا من الرياسة والمناصب والأموال وغير ذلك فكلها ليست بشيءٍ عند الله والناس في أصل الخلقة سواء فإنهم مخلوقون من نطفةٍ ثم من علقةٍ ثم من مضغةٍ ..الخ وإن تفاضلوا بعد هذه الخلقة في أمرٍ دنيوي فليس بشيءٍ عند الله وليست تدخل صاحبها الجنة ، إنما التفاضل عند الله بالأعمال الصالحة والقربى من الله فهي التي تدخل صاحبها الجنة . ويمكن أن تكون الآية احتقاراً لهم لَّما أظهروا الكبر وزعموا أنهم يستحقون الجنة لعلو مقامهم ، فردَّ الله عليهم بأنهم لا يستحقون الجنة ، وأنهم حقراء لا مترلة لهم عنده . قال القرطبي : أي إنهم يعلمون أنهم مخلوقون من نطفةٍ ثم من علقةٍ ثم من مضغةٍ كما خلق سائر جنسهم ، فليس لهم فضلٌ يستوجبون به الجنة ، وإنما تستوجب بالإيمان والعمل الصالح ورحمة الله تعالى . وقيل : كانوا يستهزئون بفقراء المسلمين ويتكبرون عليهم. فقال﴿ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ من القذر ، فلا يليق بهم هذا التكبر . وقال قتادة في هذه الآية : إنما خلقت يا بن آدم من قذر فاتق الله. وروي أن مطرف بن عبد الله بن الشخير رأى المهلب ابن أبي صفرة يتبختر في مطرف خز وجبة خز فقال له : يا عبد الله ما هذه المشية التي يبغضها الله ؟! فقال له : أتعرفني ؟ قال نعم ، أولك نطفة مذرة ، وآخرك جيفة قذرة ، وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة .انتهى.

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ الفاء استئنافية ، واللام زائدة لتأكيد القسم كقولك (لا والله ما قلت كذا) ولو أنك قلت (والله ما قلت كذا) لكان قسماً كافياً لكنك أتيت باللام لتأكيد القسم . وقيل مزيدة للتنبيه ونظيره قوله تعالى ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ ﴾ من (٨) سورة هود وقوله ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ﴾ سورة

هود وقيل (لا) للرد على الكفار في أكاذيبهم أي (لا ، ليس الأمر كما يقولون) ثم استأنف فقال (أقسم برب المشارق والمغارب) وقيل هي للنفي أي الأمر أوضح من أن يحتاج إلى أن أقسم على شيءٍ فضلاً عن أن أقسم بهذا الأمر العظيم وهي المشارق والمغارب ، وقيل هي لام القسم نفسها (فلأقسم) لكن أشبعت فتحتها فتولدت منها ألف (فلا أقسم)

وقوله ﴿ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ ﴾ جاءت المشارق والمغارب هنا مجموعة ، وقد جاء ذكرها في القران بالإفراد والتثنية والجمع ففي الإفراد جاءت في قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾من (١١٥) سورة البقرة وقوله ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ من (١٤٢) سورة البقرة وقوله ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾سورة الشعراء وقوله ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ ﴾سورة المزمل وفي التثنية جاءت في قوله تعالى ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ ﴾ سورة الرحمن وفي الجمع جاءت في قوله تعالى ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ سورة المعارج وذكرت المشارق مفردة في قوله تعالى ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ ﴾سورة الصافات والأخير لا إشكال فيه لأنه اكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالتها عليه في لغة العرب الذين نزل القران بلغتهم كقوله تعالى ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ ﴾ من (٨١) سورة النحل يعني والبرد ، ولأن الشروق أكثر نفعاً للناس من الغروب ، حيث هو محل طلب معايشهم وقضاء أعمالهم . قال بن جماعة : وخص المشارق هنا بالذكر لأنها مطالع الأنوار والضياء والحرص على ذلك لمظنة الانبساط والمعاش ، ولأن المغارب يفهم من ذلك عند ذكر المشارق لكل عاقل . انتهى. وقال بن عادل في اللباب : ولهذه الدقيقة استدل إبراهيم عليه السلام بالمشرق فقال ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ ﴾ من (٢٥٨) سورة البقرة . انتهى.

وقد اختلف المفسرون فقال بعضهم المراد بالإفراد الجهة أي جهة المشرق وجهة المغرب ، وهو قول قتادة وعكرمة ، قال عكرمة : وجه الليل ووجه النهار. يعني جهتهما . واختاره البغوي والطاهر بن عاشور والراغب الأصفهاني.

وقيل : المراد الجنس أي جنس المشرق والمغرب ، وعليه فيشمل كل مشرقٍ ومغرب . وهو قول بن كثير والزحيلي ، واختلف قول الشنقيطي فقال مرة : المراد الجنس . وقال في موضعٍ آخر : المراد الجهة . وكذلك

العثيمين فإنه قال : الإفراد للجنس الشامل للواحد والمتعدد أي مشرق كل شارق ومغرب كل غارب . وقال في موضعٍ آخر: أما قوله ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ فباعتبار الناحية ، لأن النواحي أربع : مشرقٌ ومغربٌ وشمالٌ وجنوب .

قلت : يمكن الجمع بين القولين فإن الله جل وعلا هو رب جهة المشرق والمغرب ورب الجهات كلها ، وهو رب كل شارقٍ وغارب .

والمراد بالتثنية : الفرق بين مطلع الشمس ومغربها في الصيف عنه في الشتاء ، فإن شروقها وغروبها في الشتاء في أقصى جنوب الكرة الأرضية ، وأما في الصيف ففي أقصى شمالها . قال بن عباسٍ ومجاهد وقَتَادَةَ وعكرمة: مَشْرِقُ الشِّتَاءِ وَمَغْرِبُهُ ، وَمَشْرِقُ الصَّيْفِ وَمَغْرِبُهُ. ونحوهم قال بن زيدٍ ومقاتل فإنهم قالوا : أطول مشرقٍ ومغربٍ في السنة وأقصر مشرقٍ ومغربٍ في السنة .انتهى. ومعلومٌ أن الأطول في الصيف والأقصر في الشتاء . قال الطبري : مَشْرِقَ الشِّتَاءِ ، وَمَشْرِقَ الصَّيْفِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الشَّمْسَ تَطْلُعُ فِي الشِّتَاءِ مِنْ مَشْرِقٍ ، وَفِي الصَّيْفِ مِنْ مَشْرِقٍ غَيْرِهِ ، وَكَذَلِكَ الْمَغْرِبُ تَغْرُبُ فِي مَغْرِبَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ .انتهى. واختاره البغوي وبن جماعة والراغب الأصفهاني والعثيمين .

وقيل : هُوَ مَطْلَعُ الشَّمْسِ وَمَغْرِبِهَا ، وَمَطْلَعُ الْقَمَرِ وَمَغْرِبُهُ . وهو مرويٌ عن بن عباس .

واعترض الطاهر بن عاشور على هذا القول حيث قال : تثنية المشرقين والمغربين باعتبار أن الشمس تطلع في فصلي الشتاء والربيع من سمت ، وفي فصلي الصيف والخريف من سمتٍ آخر ، وبمراعاة وقت الطول ووقت القصر وكذلك غروبها ، وهي فيما بين هذين المشرقين والمغربين ينتقل طلوعها وغروبها في درجاتٍ متقاربة فقد يعتبر ذلك فيقال : المشارق والمغارب كما في قوله تعالى﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ومن زعم أن تثنية المشرقين لمراعاة مشرق الشمس والقمر وكذلك تثنية المغربين لم يغص على معنى كبير .انتهى.

وجمع بينها بن كثير فقال : يعني مشرقي الصيف والشتاء ، ومغربي الصيف والشتاء . للشمس والقمر .انتهى. وقال الشنقيطي : يَعْنِي مَشْرِقَ الشِّتَاءِ ، وَمَشْرِقَ الصَّيْفِ وَمَغْرِبَهُمَا ، كَمَا عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ . وَقِيلَ : مَشْرِقَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَمَغْرِبَهُمَا .

والمراد بالجمع : قيل باعتبار تعدد مطالع الشمس ومغاربها في السنة ، وذلك لأن للشمس ثلاثمائة وستين مشرقاً ، وثلاثمائة وستين مغرباً في السنة ، تطلع كل يومٍ وتغرب في محلٍ مختلفٍ عن مكان طلوعها وغروبها

بالأمس . وهو قول بن عباس وعكرمة وقتادة واختاره البغوي والطبراني والشوكاني والجزائري والطاهر بن عاشور والزحيلي . قال بن عباس : للشمس كل يومٍ مطلع تطلع فيه ومغرب تغرب فيه غير مطلعها بالأمس وغير مغربها بالأمس . وقال قتادة : الْمَشَارِقُ ثَلاَثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ مَشْرِقًا ، وَالْمَغَارِبُ ثَلاَثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ مَغْرِبًا فِي السَّنَةِ . قَالَ : وَالْمَشْرِقَانِ : مَشْرِقَا الشِّتَاءِ ، وَمَشْرِقَا الصَّيْفِ . وَالْمَغْرِبَانِ : مَغْرِبَا الشِّتَاءِ ، وَمَغْرِبَا الصَّيْفِ . وَالْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ : الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ .ذكره الصنعاني . وعن عكرمة عن بن عباسٍ قال : إِنَّ الشَّمْسَ تَطْلُعُ مِنْ ثَلاَثِمِائَةٍ وَسِتِّينَ مَطْلَعًا ، تَطْلُعُ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ مَطْلَعٍ لاَ تَعُودُ فِيهِ إِلَى قَابِلٍ ، وَلاَ تَطْلُعُ إِلاَّ وَهِيَ كَارِهَةٌ . تَقُولُ : رَبِّ لاَ تُطْلِعْنِي عَلَى عِبَادِكَ فَإِنِّي أَرَاهُمْ يَعْصُونَكَ ، قَالَ : أَوَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ حَتَّى تَجُرَّ وَتُجْلَدَ . قَالَ عِكْرِمَةُ : فَقُلْتُ لَهُ : يَا مَوْلاَهُ وَتُجْلَدُ الشَّمْسُ؟ فَقَالَ : عَضَضْتَ بِهَنِ أَبِيكَ ، إِنَّمَا اضْطَرَّهُ الرَّوِيُّ إِلَى الْجَلْدِ .انتهى. وقد روى عكرمة عن بن عباسٍ أن النبي صلى الله عليه وسلم صَدَّقَ قول أمية بن أبي الصلت حين قال :

رَجُلٌ وَثَوْرٌ تَحْتَ رِجْلِ يَمِينِهِ وَالنَّسْرُ لِلْأُخْرَى وَلَيْثٌ مُرْصَدُ

والشَّمْسُ تَطْلُعُ كُلَّ آخِرِ لَيْلَةٍ ... حَمْرَاءَ مَطْلَعُ لَوْنِها مُتَوَرِّدُ

تأبى فَلا تَبْدُو لَنا فِي رِسْلِها ... إلا مُــعَــذَّبَةً وَإلا تُجْلَــدُ

رواه أحمد وبن خزيمة والدارمي وضعفه الألباني في ظلال الجنة وشعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند ويشهد لضعفه إنكار بن عباسٍ لجلد الشمس وقال : إنما اضطره الرويُّ إلى الجلد . يعني رواية الشعر.

وقيل : هو باعتبار تعدد الشارق والغارب كالشمس والقمر والكواكب والنجوم فإن لكلٍ منها شروقٌ وغروب في كل يوم . واختاره السعدي والجلالين .

وقال بن كثير وذلك باختلاف مطالع الشمس وتنقلها في كل يومٍ وبروزها منه إلى الناس. وقال في موضع آخر : وسخر الكواكب تبدو من مشارقها وتغيب في مغاربها .انتهى

وقال الشنقيطي : أَيْ : مَشَارِقِ الشَّمْسِ وَمَغَارِبِهَا . وَقِيلَ : مَشَارِقِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ وَمَغَارِبِهَا .

وقال العثيمين : أما جمع المغارب والمشارق فباعتبار مشرق كل يوم ومغربه ، لأن الشمس كل يومٍ تشرق من غير المكان الذي أشرقت منه بالأمس... أو باعتبار الشارقات والغاربات لأنها تشمل الشمس والقمر والنجوم وهذه لا يحصيها إلا الله عز وجل .انتهى.

وقيل : هو باعتبار تعدد الأقطار فإن الشمس كل لحظةٍ تشرق على قطرٍ وتغرب على آخر . قال ابن عرفة : إما على أن الأرض كروية فتعدد المشرق والمغرب ظاهر لأن كل موضعٍ مغربٌ لقومٍ مشرقٌ لآخرين ، وإن قلنا : إنها بسيطة فهو مغربٌ واحدٌ ومشرقٌ واحدٌ لكنها تتعدد بالفصول فمشرق الصيف غير مشرق الشتاء .انتهى. وقال القاسمي : يعني مشرق كل يومٍ من السَّنة ومغربه ، أو مشرق كل كوكبٍ ومغربه ، أو الأقطار التي تشرق فيها الشمس وتغرب .انتهى.

قلت : يمكن الجمع بين الأقوال فإن الله رب الجميع .

وقوله ﴿ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ جواب القسم ﴿ إِنَّا ﴾ تأتي للواحد المعظم نفسه ولا أحد أعظم من الله جل وعلا ﴿ لَقَٰدِرُونَ ﴾ أي مستطيعون ﴿ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ أي نهلكهم ونأتي بقومٍ آخرين أفضل منهم ديناً وطاعةً وخلقا كما قال تعالى ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾ من (٣٨) سورة محمد وقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ سورة المائدة وهذا قول الطبري والقرطبي والبغوي ، وقال بن كثير : أي: يوم القيامة نعيدهم بأبدانٍ خيرٍ من هذه فإن قدرته صالحة لذلك .انتهى. ولا شك أن القول الأول أرجح لأن الآية سيقت في مقام الذم والاستبدال لا في مقام البعث والإعادة . وقوله ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ أي لا يفوتنا أحدٌ ولا يعجزنا شيء .

﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ ﴾ أي اتركهم يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في دنياهم . قال في لسان العرب : أَصْل الخَوْض المشيُ في الماء وتحريكُه ثم استعمل في التلبس بالأَمر والتصرف فيه وفي الحديث (رُبَّ مُتَخَوِّضٍ في مال اللّه تعالى) أَي رُبَّ متصرف في مال اللّه تعالى بما لا يرضاه اللّه . والتَّخَوُّضُ تفعُّل منه ، وقيل هو التخليط في تحصيله من غير وجهه كيف أَمكن . وفي حديثٍ آخر (يَتَخَوَّضُون في مال اللّه تعالى) والخَوْضُ

اللَّبْسُ في الأَمر ، وقد خاضَ فيه ، وفي التنزيل العزيز ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ وخاضَ القومُ في الحديث وتَخاوَضُوا أَي تفاوضوا فيه .انتهى. وقال بن فارس : الخاء والواو والضاد أصلٌ واحد يدلُّ على توسُّطِ شيء ودُخولٍ . يقال خُضْتُ الماءَ وغيرَه. وتخاوَضوا في الحديثِ والأمرِ أي تفاوَضُوا وتداخَل كلامُهم .انتهى. فهو يطلق على تداخل كلام الناس والغالب أنه يكون في الكلام الباطل ولذلك قال أكثر أهل اللغة : والخَوْضُ من الكلام ما فيه الكذب والباطل . قاله الخليل في العين وبن سيده في المحكم والأزهري في تهذيب اللغة والزبيدي في تاج العروس وبن منظور في لسان العرب ، ولذلك نجد أكثر الآيات إن لم يكن كلها ذكرت الخوض في موضع الذم كقوله تعالى ﴿ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ ﴾من (٦٩) سورة التوبة وقال تعالى﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾سورة المدثر وقال تعالى﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾سورة التوبة وقال تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾سورة الأنعام وقال تعالى﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ ﴾في سورة الزخرف وفي هذه السورة وقد قال أكثر المفسرين : أي اتركهم يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في دنياهم . فجعلوه في الأباطيل .

وقوله تعالى ﴿ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ أي يوم القيامة الذي وعدناهم أن يكون عذابهم فيه .

﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا ﴾ في ذلك اليوم يخرجون من القبور فيسرعون إلى الداعي .

﴿ كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ تمثيلٌ لهم في ابتدارهم الداعي حين يخرجون من قبورهم ، باستباقهم في الدنيا إلى آلهتهم أيهم يستلمها أولاً . ومعنى يوفضون : ينطلقون مسرعين . قال الحسن : كانوا يبتدرون إذا طلعت الشمس إلى نصبهم التي كانوا يعبدونها من دون الله لا يلوي أولهم على آخرهم . ذكره القرطبي. وهذا على القول بأن معنى النصب أي الأنصاب وهي الأصنام أو الأوثان كما قال تعالى ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ﴾من (٣) سورة المائدة وهو قول الحسن البصري وبن زيد .

وقيل معنى النصب : شيء منصوب علم أو راية وهو قول الكلبي . وقال بن عباس وقتادة وأبو العالية وسفيان ومقاتل : إلى علمٍ يسعون . وقال الضحاك : إلى علم ينطلقون .

وقال مجاهد ويحيى بن أبي كثير : إلى غايةٍ يستبقون . وهذا يشمل القولين .

قال في المعجم الوسيط (النصب) العلم المنصوب ، وعلامة تنصب عند الحد أو الغاية ، وما كان ينصب ليعبد من دون الله جمعه أنصاب . انتهى.

قال البغوي : قرأ ابن عامر وحفص﴿ نُصُبٍ ﴾ بضم النون والصاد ، وقرأ الآخرون بفتح النون وسكون الصاد يعنون إلى شيء منصوب ، يقال : فلان نُصْبَ عيني . وقال الكلبي: إلى عَلَمٍ وراية . ومن قرأ بالضم ، قال مقاتل والكسائي : يعني إلى أوثانهم التي كانوا يعبدونها من دون الله . انتهى. وقال بن كثير : وقد قرأ الجمهور (نَصْب) بفتح النون وإسكان الصاد وهو مصدر بمعنى المنصوب . وقرأ الحسن البصري﴿ نُصُبٍ ﴾ بضم النون والصاد وهو الصنم ، أي : كأنهم في إسراعهم إلى الموقف كما كانوا في الدنيا يهرولون إلى النصب إذا عاينوه يوفضون يبتدرون أيهم يستلمه أول. وهذا مروي عن مجاهد ويحيى بن أبي كثير ومسلم البَطين وقتادة والضحاك والربيع بن أنس وأبي صالح وعاصم بن بَهْدَلة وابن زيد وغيرهم .انتهى. وقال الطبراني : قرأ زيدُ بن ثابت وأبو الرجاءِ وأبو العاليةِ والحسن وابن عامرٍ ﴿ إِلَىٰ نُصُبٍ ﴾ بضمَّتين ومعناهُ : الأصنامُ التي كانوا ينصِبونَها ويعبُدونَها ويَذبَحُونَ تَقرُّباً إليها .انتهى.

وقيل النصب بمعنى الشر والبلاء كقوله تعالى ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾سورة ص وهذا على قراءة عمرو بن ميمون وأبو رجاء وغيرهما بضم النون وإسكان الصاد . ذكر ذلك القرطبي في تفسيره . لكن هذا المعنى بعيد إذ لا يدل عليه سياق الآيات والعلم عند الله تعالى . والتمثيل في الآية يدل على المعنى الأول إذ لو كان المعنى إلى علم يسعون أو ينطلقون لاستغنى عن قوله ﴿كَأَنَّهُمۡ ﴾ ولقال ﴿ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعًا ...إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ﴾ فلما جاء ب﴿كَأَنَّهُمۡ ﴾ دلَّ على أنه تمثيلٌ وتشبيه لهم بحالهم في الدنيا عندما كانوا يستبقون إلى أصنامهم وأوثانهم ، وكأنه أراد أن يجازيهم بعذابٍ من جنس فعلهم . فإن قيل : يمكن أن يكونوا في الدنيا يلعبون بالاستباق إلى علمٍ أو راية فشبههم بحالهم ذلك . قلنا : إن حصل ذلك منهم فهو نادرٌ أو قليل ، والقران يمثل بالمعروف عند الجميع أو الأغلب ، والعلم عند الله تعالى .

والطبري يرى أن المراد بالعلم في كلام السلف الصنم فقال : وَكَأَنَّ مَنْ فَتَحَهَا يُوَجِّهُ النَّصْبَ إِلَى أَنَّهُ مَصْدَرٌ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ : نَصَبْتُ الشَّيْءَ أَنْصُبُهُ نَصْبًا . وَكَأَنَ تَأْوِيلُهُ عِنْدَهُمْ : كَأَنَّهُمْ إِلَى صَنَمٍ مَنْصُوبٍ يُسْرِعُونَ سَعْيًا وَأَمَّا مَنْ ضَمَّهَا مَعَ الصَّادِ فَإِنَّهُ يُوَجِّهُهُ إِلَى أَنَّهُ وَاحِدُ الأَنْصَابِ ، وَهِيَ آلِهَتُهُمُ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا .انتهى.

ولذلك نَسَبَ بن كثير القول بأن المراد الصنم إلى جملةٍ من السلف مع أن المذكور عنهم أو عن أكثرهم : إلى علم يسعون أو يستبقون أو ينطلقون كما تقدم .

وقيل النُصُب ليست هي الأصنام ولكنها حجارةً تنصب ويقرب لها قال محمد رشيد رضا في المنار : وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَالنُّصُبُ : الْأَوْثَانُ مِنَ الْحِجَارَةِ ، جَمَاعَةُ أَنْصَابٍ كَانَتْ تُجْمَعُ فِي الْمَوْضِعِ مِنَ الْأَرْضِ ، فَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يُقَرِّبُونَ لَهَا ، وَلَيْسَتْ بِأَصْنَامٍ ، وَكَانَ ابْنُ جَرِيجٍ يَقُولُ فِي صِفَتِهِ ، وَذَكَرَ سَنَدَهُ إِلَيْهِ : النُّصُبُ لَيْسَتْ بِأَصْنَامٍ ، الصَّنَمُ يُصَوَّرُ وَيُنْقَشُ ، وَهَذِهِ حِجَارَةٌ تُنْصَبُ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ حَجَرًا ، مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ الثَّلَاثُمِائَةِ مِنْهَا بِخُزَاعَةَ ، فَكَانُوا إِذَا ذَبَحُوا نَضَحُوا الدَّمَ عَلَى مَا أَقْبَلَ مِنَ الْبَيْتِ ، وَشَرَحُوا اللَّحْمَ ، وَجَعَلُوهُ عَلَى الْحِجَارَةِ . قَالَ الْمُسْلِمُونَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يُعَظِّمُونَ الْبَيْتَ بِالدَّمِ ، فَنَحْنُ أَحَقُّ أَنْ نُعَظِّمَهُ ، فَكَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَكْرَهْ ذَلِكَ فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿ **لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ** ﴾من (٣٧) سورة الحج ثُمَّ أَيَّدَ ابْنُ جَرِيرٍ قَوْلَ ابْنِ جُرَيْجٍ بِمَا رَوَاهُ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ ، وَمِنْهُ قَوْلُ مُجَاهِدٍ : النُّصُبُ : حِجَارَةٌ حَوْلَ الْكَعْبَةِ تَذْبَحُ عَلَيْهَا أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ وَيُبَدِّلُونَهَا إِذَا شَاءُوا بِحِجَارَةٍ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْهَا . وَقَوْلُ قَتَادَةَ : وَالنُّصُبُ حِجَارَةٌ كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَعْبُدُونَهَا وَيَذْبَحُونَ لَهَا فَنَهَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ . وَقَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَنْصَابٌ كَانُوا يَذْبَحُونَ وَيُهِلُّونَ عَلَيْهَا .انتهى. والأوثان أشمل من الأصنام فكل ما عبد من دون الله فهو وثن كمن يعبد الشمس والقمر والنجوم والبقر والقبور ونحو ذلك هؤلاء يعبدون أوثاناً وليست بأصنام ، وإنما الأصنام هي التماثيل أو الصور التي تكون على شكل إنسان أو حيوان وتنصب للعبادة .

وأهل اللغة يرون أنه لا فرق بين النُّصُب والنَّصْب في المعنى ، بل بعضهم يرى أن نُصُب جمع نَصْب مِثْلُ سُقُفٍ جَمْعُ سَقْفٍ ، وقال الزجاج النُّصُبُ جمع واحدها نِصابٌ قال وجائز أَن يكون واحداً وجمعه أَنْصاب . وقيل النُّصُب جمع نَصِيبةٍ كسفينة وسُفُن وصحيفةٍ وصُحُفٍ وهو قول الليث . قال الزبيدي : قالَ الأَعْشَى :

وذَا النُّصُبَ المَنْصُوبَ لا تنْسُكَنَّهُ لِعاقِبةٍ واللَّهَ ربَّكَ فاعْبُدَا

أَي : إِيّاكَ وذا النُّصُبَ . وقال الفَرّاءُ : كأَنّ النُّصُبَ الآلهةُ الّتي كانت تُعْبَدُ من أَحجارٍ. قال الأَزهريّ : وقد جَعَل الأَعْشَى النُّصُب واحداً . والنَّصْبُ واحِدٌ وهو مصدرٌ . وجمعُه الأَنصابُ . انتهى من تاج العروس.

والمقصود أن النُّصُب والنُّصْب والنَّصْب كلها يراد بها ما نصب فعبد من دون الله . ويراد بها العلم المنصوب . ويراد بها الداء والبلاء والشر . قال الزبيدي : وفي الصَّحاح : النَّصْبُ ، أَي : بفتح فسكون : ما نُصِبَ فعُبَدَ من دُون الله تعالَى كالنُّصْبِ بالضَّمِّ فسكون ، وقد يُحرَّكُ . وزاد في نسخةٍ مِنْهُ : مثل : عُسْر وعُسُر . انتهى من تاج العروس . وقوله (وقد يحرك) يعني الصاد يحرك بالضم وقد بينه في المثال (عُسْر وعُسُر) وقال بن منظور : والنَّصْبُ والنُّصُبُ العَلَم المَنْصُوب وفي التنزيل العزيز ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ قرئ بهما جميعاً وقيل النَّصْبُ الغاية والأَول أَصح . وقال أيضاً : والنَّصْبُ والنُّصْبُ والنُّصُبُ الداءُ والبَلاءُ والشرُّ وفي التنزيل العزيز ﴿ مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴾ والنَّصِبُ المريضُ الوَجِعُ وقد نَصَبه المرض وأَنْصَبه . وقال: قال الفراء : والنَّصْبُ والنُّصُبُ كلُّ ما عُبِدَ من دون اللّه تعالى والجمع أَنْصابٌ . انتهى من لسان العرب. وقال بن قتيبة : والنُّصْب الشر قال الله عزّ وجلّ﴿ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴾ والنُّصُبُ ما نُصِب قال الله عزّ وجلّ ﴿كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ وهو النُّصْب أيضاً ، والنَّصَب التَّعَب قال الله ﴿ لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ﴾. انتهى. وقال في المصباح المنير : وَالنُّصُبُ بِضَمَّتَيْنِ حَجَرٌ نُصِبَ وَعُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَجَمْعُهُ أَنْصَابٌ ، وَقِيلَ النُّصُبُ جَمْعٌ وَاحِدُهَا نِصَابٌ ... وَالنَّصْبُ وِزَانُ فَلْسٍ لُغَةٌ فِيهِ ، وَقُرِئَ بِهِمَا فِي السَّبْعَةِ ، وَقِيلَ الْمَضْمُومُ جَمْعُ الْمَفْتُوحِ مِثْلُ سُقُفٍ جَمْعُ سَقْفٍ . وَمَسَّهُ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ بِالسُّكُونِ أَيْ بِشَرٍّ .انتهى. وقال الميداني في البلاغة العربية ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾ بِنُصْبٍ : هذه قراءة جمهور القرّاء وقرأ أبو جعفر المدني : بِنُصُبٍ . وقرأ يعقوب البصري : بِنَصَبٍ . وهي لغاتٌ عربيّة للكلمة والمعنى فيها جَمِيعاً : بِتَعَبٍ وإعْيَاءٍ ومَشَقَّة .انتهى.

(والنَّصَب) هو التعب والمشقة والإرهاق والجهد . قال بن منظور : النَّصَبُ الإِعْياءُ من العَناءِ والفعلُ نَصِبَ الرجلُ بالكسر نَصَباً أَعْيا وتَعِبَ .انتهى. وقال الزبيدي : نَصِبَ أي أصابه الإعياء والتعب ، والنَّصَبُ : التَّعَب ، وقيلَ : المَشقَّةُ . وعَيْشٌ ناصِبٌ فيه كَدٌّ وجَهْدٌ . قال اللَّهُ تَعَالَى ﴿ فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ﴿٧﴾ ﴾سورة الشرح قالَ قَتادةُ : إِذا فرغتَ من صلاتك فانْصَب في الدُّعاءِ . قال الأَزهريّ : هو من نَصِب ، يَنْصَب ، نَصباً : إِذا تَعِبَ وقيلَ : إِذا فَرَغْت من الفَرِيضة فانْصَبْ في النّافِلَةِ . وقرأ زَيْدُ بْنُ عليَ ﴿ فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ﴿٧﴾ ﴾ بكسر الصّاد والمعنى واحدٌ .انتهى من تاج العروس.

و (نُصْب) يأتي بمعنى (نَصَب) كما ذكر الميداني ، وقال الطبري : اختلفت القرّاء في قراءة قوله ﴿ بِنُصُبٍ ﴾ فقرأته عامة قرّاء الأمصار خلا أبي جعفر القارئ ﴿ بِنُصُبٍ ﴾ بضم النون وسكون الصاد ، وقرأ ذلك أبو جعفر : بضم النون والصاد كليهما ، وقد حُكي عنه بفتح النون والصاد ، والنُّصْب والنَّصَب بمنزلة الحُزْن والحَزَن ، والعُدْم والعَدَم ، والرُّشْد والرَّشَد ، والصُّلْب والصَّلَب . وكان الفرّاء يقول : إذا ضُمّ أوّله لم يثقل ، لأنهم جعلوهما على سِمَتين : إذا فتحوا أوّله ثقّلوا ، وإذا ضمّوا أوّله خففوا. انتهى . وقال البغوي ﴿ بِنُصُبٍ ﴾ بمشقة وضر. قرأ أبو جعفر (بنُصُبٍ) بضم النون والصاد ، وقرأ يعقوب بفتحهما ، وقرأ الآخرون بضم النون وسكون الصاد ، ومعنى الكل واحد .انتهى.

وقال بن أبي زمنين في تفسيره : والنُّصْب والنَّصَب واحد مثل حُزْن وحَزَن وهو العياء والتعب . انتهى .

وقيل هما مختلفان ولكل واحدٍ معنى ، قال أبو عبيدة : النُّصْب الشر والبلاء . والنَّصَب التعب والإعياء .ذكره القرطبي في تفسيره ، وقال الطبري : وقال بعض أهل العلم بكلام العرب من البصريين : النَّصُب من العذاب وقال : العرب تقول : أنصبني : عذّبني وبرّح بي. قال : وبعضهم يقول : نَصَبَني ، واستشهد لقيله ذلك بقول بشر بن أبي خازم :

تَعَنَّاكَ نَصْب مِن أُمَيْمَةَ مُنْصِبُ... كَذِي الشَّجْوِ لَمَّا يَسْلُه وسيَذْهَبُ

وقال : يعني بالنَّصْب : البلاء والشرّ ؛ ومنه قول نابغة بني ذُبيان :

كِلِيني لِهَمّ يا أمَيْمَةَ ناصِبِ... وَلَيْلٍ أُقاسِيهِ بَطيءِ الكَوَاكِب

انتهى . وقال في الصحاح : والنُصْبُ الشرّ والبلاء . وقال بن منظور : والنَّصْبُ والنُّصْبُ والنُّصُبُ الداءُ والبَلاءُ والشرُّ ونحوه قال بن سيده في المحكم والمحيط الأعظم .

﴿ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ ﴾ خاضعةً منكسرةً مغضوضةً متطامنةً أبصارهم نظرهم إلى الأرض من الخوف والفزع .

﴿ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٌۖ ﴾ تغشاهم الذلة ، فالرهق هنا بمعنى الغشيان يقال : رَهِقَه الأمرُ : أي غَشِيَه .

﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ٤٤ ﴾ ذلك يوم القيامة الذي وعدهم الرسل أنه آتٍ فكذبوا .

أولاً / في قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ دليل على أن الصلاة المكتوبة لا تترك بحال ، فإن كل عبادة عملية يجوز أن تتركها في أوقات ، فالحج والصيام والجهاد تسقط عن غير المستطيع ، والزكاة تسقط عن غير الواجد ، لكن الصلاة لا تسقط بحال ، فيصليها الصحيح والمريض والمقيم والمسافر لا تسقط .

ثانياً / من صفات المؤمنين أنهم يحفظون الأمانات والعهود كما قال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ وذلك يشمل أمانات الدين وهي الفرائض التي افترضها الله على عباده والعهود التي أخذها عليهم من القيام بالتوحيد والعبادة كما قال تعالى ﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴿٧٢﴾ ﴾ سورة الأحزاب وقال تعالى ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدۡنَآۛ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ سورة الأعراف وقال تعالى ﴿ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾ سورة المائدة ويشمل الأمانات والعهود التي مع العباد فيلزم الوفاء بها وهي من صفات عباد الله المؤمنين وأما الغدر والخيانة فهي من صفات المنافقين والكافرين .

ثالثاً / من صفات المؤمنين أنهم يقومون بالشهادة ويؤدونها على وجهها سواءً كانت في الدين كما قال تعالى ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَاتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ سورة المائدة فأمرهم أن يؤدوا الشهادة في الدين بالحكم بما علموه من كتاب الله وكانوا أمنةً عليه . وكذلك الشهادات على المعاملات الدنيوية كالبيع والشراء والمظالم والنكاح ونحو ذلك فيؤديها كما سمعها وشاهدها .

رابعاً / ينبغي الحرص على تحصيل المال من الحلال ، وإنفاقه في وجوه البر وخاصةً ما وجب منها كالزكاة والنفقة على العيال والأهل والقرابة ، وينبغي تفقد أحوال القرابة والجيران فربما كان أحدهم محروماً وهو الذي يعمل فلا يكسب شيئاً ويتعفف عن السؤال أو تَلِفَ ماله ، فمثل هذا ينبغي أن يتفطن له أهل الخير حتى يقوموا له بالواجب ، ولذلك ذكره الله في كتابه وجعل له حقاً معلوماً في المال .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة نوح

سورة نوح مكية وآياتها (٢٨)

سميت السورة بهذا الاسم لأنها من أولها إلى آخرها تتحدث عن قصة نوح عليه السلام مع قومه وهي السورة الوحيدة التي جاءت جميع آياتها في شأن قصة نبي وأما بقية السور فيذكر فيها مواعظ وأحكام وفوائد خارج القصة حتى سورة يوسف فإنها ختمت بذكر جملة من الفوائد خارج القصة وأما هذه السورة فجميع آياتها في شأن قصة نوح عليه السلام ويشبهها سورة الفيل لكنها من قصار المفصل وهذه من طوال المفصل .

وقد قيل في مناسبة السورة لما قبلها أنه لما قال تعالى في سورة المعارج ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾سورة المعارج عقبه بذكر قصة نوح وفيها إغراق جميع الكفار واستبدالهم بخيرٍ منهم وهم المحمولون مع نوحٍ عليه السلام في السفينة وذريتهم من بعدهم كما قال تعالى ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ﴿٣﴾ ﴾سورة الإسراء وقال تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ ﴾من (٥٨) سورة مريم فوقعت موقع الاستدلال على آية المعارج وإثبات قدرة الله جل وعلا على الاستبدال بمن هو خير .

وقيل في تناسب آيات السورة أنها افتتحت بالنذارة من العذاب في قوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١﴾ ﴾ وختمت بوقوع العذاب في قوله تعالى ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ﴿٢٥﴾ ﴾ لما لم يقبلوا الدعوة و لم يخشوا مما أنذروا .

وقد تحدثت السورة عن قصة نوح عليه السلام وصبره على دعوة قومه وتحمله لاستكبارهم وعنادهم وتنويعه لهم في أساليب الدعوة بين الترغيب والترهيب والإعلان والإسرار وبيان نعم الله على العباد وبيان عظيم قدرته ثم بيان استكبار قومه وعصيانهم وعدم قبولهم للدعوة فكان الغرق والعذاب هو نهايتهم ثم ختمت بدعوة نوح على الكافرين جميعاً بالهلاك ودعوته للمؤمنين جميعاً بالمغفرة .

قال تعالى ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١ ﴾ يخبر تعالى عن قصة إرساله لنوح عليه السلام بالنذارة إلى قومه قبل وقوع العذاب عليهم ، لأنهم كانوا مشركين يعبدون الأصنام كما سيأتي في ثنايا السورة ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢ ﴾ من البيان وهو التوضيح . أي أنذركم عذاب الله وأبين لكم الدين الحق . أو أبيِّن لكم النذارة . قال الطبري : قد أبنت لكم إنذاري إياكم . وقال في سورة هود : يُبِين لكم عما أرسل به إليكم من أمر الله ونهيه .انتهى . وقال البغوي : أنذركم وأبين لكم رسالة الله بلغةٍ تعرفونها .انتهى.

﴿ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣ ﴾ ونذارتي إليكم هي لأجل أن تفردوا الله بالعبادة وتتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه وتطيعوني لأن طاعة الرسول طاعة لمن أرسله كما قال تعالى ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾من (٨٠) سورة النساء

﴿ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ ﴾ فإذا فعلتم ذلك ، وقبلتم ما أمرتكم به وعملتم به ، فإن الله تعالى سوف يغفر لكم عن ذنوبكم . لأن (من) هاهنا ليست للتبعيض بل هي بمعنى (عن) وذلك لأن الإسلام يهدم ما كان قبله من الذنوب . وقيل بل هي للتبعيض ، وذلك لأنهم قد يحدثوا ذنوباً بعد إيمانهم ، فهم موعودون بالمغفرة للذنوب التي قبل الإيمان وتلك بعض الذنوب لا كلها . وقيل يغفر لكم ما سوى حقوق المخلوقين ، وقال ابن شجرة : يغفر لكم من ذنوبكم ما استغفرتموه منها . وهو يصح على الذنوب التي بعد الإسلام وأما التي قبله فإنه يهدمها كلها ولا يشترط أن يستغفر من كل واحدٍ منها على حده . وقيل قد تضمن يغفر معنى يخلص أو يخرج أي يخلصكم من ذنوبكم ويخرجكم منها وهو قول زيد بن أسلم . وقد ذكر الشيخ مصطفى العدوى أن القائلين بالتضمين هم القائلين أنها بمعنى (عن) فإنهم ضمنوا (يغفر) معنى (يصفح) فكان المعنى (يصفح لكم عن ذنوبكم) والله أعلم . وقيل (من) زائدة ولكن القول بزيادتها في الإثبات قليلٌ عند العرب وقد روي عن بعضهم : قد كان من مطر . يعني : قد كان مطر . وهو مذهب الأخفش واختاره السدي وأبو عبيدة في الآية ، والأكثرية على أنه يشترط أن يسبق (من) نفي أو شبهه كنهيٍ واستفهام فمثال النفي (ما جاء من رجل) ومثال النهي (لا تضرب من أحد) ومثال الاستفهام (هل جاءك من أحد؟) وقيل (من) هنا لبيان الجنس كقولك : اجتنب النذل من الناس . يعني جنس الأنذال . ولكن لم يرد قبلها ما تبينه فلم يذكر قبلها ذنبٌ حتى تدل على مغفرة جنسه . وقيل هي لابتداء الغاية كقولك : سافرت

من الرياض . وهو بعيد لأن مغفرة الذنوب هو الغاية كلها لا بدايتها . وقيل هي للبدل : أي بدل عقوبة ذنوبكم . والعلم عند الله تعالى .

تنبيه : في القران يمتنع وجود حرف زائد إذ يدل على أنه قد جاء في القران ما لا فائدة فيه وهذا يتره عنه كلام الرب جل وعلا . ولذا لابد أن يذكر لكل حرفٍ فائدة ، ولذلك ينبغي لمن يقول بزيادة (من) هاهنا أن يقول أن (من) زائدة إعراباً جاءت لتأكيد المعنى وتقويته . أي يغفر لكم ذنوبكم كلها .

﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فلا يهلككم بالعقوبة بل يعافيكم ويؤخركم إلى منتهى آجالكم .

﴿ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ أي بادروا بالطاعة قبل أن يأتيكم الموت ، فإن الموت إذا جاء لن يؤخر لكم حتى تتمكنوا من التوبة . وقيل : أي بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة والعذاب ، فإنه إذا جاء أمر الله وعذابه فلن يستطيع أحدٌ دفعه وتأخيره .

ولكن قوم نوحٍ عليه السلام لم يقبلوا الدعوة وأصروا على كفرهم وتكذيبهم ، ولذلك اشتكى نوحٌ عليه السلام إلى ربه جل وعلا ما لقيه من تعنت قومه ومكابرتهم وتكذيبهم وبعدهم عن الحق ، وإنما وقعت منه الشكوى عليه السلام بعد أن جاهدهم بكل الصور على مدى ألف عام إلا خمسين عاماً وبين ذلك لربه جل وعلا فقال ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ ﴾ أي واصلت الدعوة لهم بالليل والنهار ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ ﴾ من قبول الحق وإعراضاً عن سماع الدعوة ﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ أي دعوتهم لأسباب المغفرة وهي الإيمان والتوبة ﴿ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾ لئلا يسمعوا ما أقول . ﴿ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ ﴾ تغطوا بها من العناد والمكابرة والاستهزاء . قيل تغطوا بها لئلا يروه فجمعوا بين إغلاق الآذان والعيون ليغلقوا منافذ وصول الدعوة ، وقيل تغطوا بها ليتنكروا له فلا يعرفهم فيدعوهم ، وهذا يدل على أنه عليه السلام كان يكثر من التصدي لدعوتهم . وقيل فعلوا ذلك ليبينوا له شدة إعراضهم فيتركهم . ﴿ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾ وأصروا على شركهم وتكبروا عن طاعة ربهم . والإصرار على الأمر الثبات والإقامة عليه . وإتيانه بالمصدر في الاستكبار يدل على أن قومه قد بلغوا الغاية في الاستكبار . قال الرازي ﴿ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ أي عظيماً بالغاً إلى النهاية القصوى .

وبعد أن ذكر نوحٌ عليه السلام لربه جل وعلا التوقيت الزماني لدعوته وأنه كان يدعوهم في الليل والنهار ثنى بطريقة الدعوة نفسها وأنه قد نوَّع في أساليبها فقال ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ﴾ وهذا يفيد أنه قد دعاهم خفيةً ثم دعاهم جهرةً فإن ثم تفيد التأخير والتعقيب ، والمعنى ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ بعد أن دعوتهم سراً ويؤيد هذا أنه قدم الليل في وقت الدعوة ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ ﴾ والليل من طبعه الخفاء . قال الألوسي وقوله ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ يشعر بمسبوقية الجهر بالسر وهو الأليق بمن همه الإجابة لأنه أقرب إليها لما فيه من اللطف بالمدعو .انتهى. وهذا الجهر والخفاء في الدعوة نفسها كما كانت دعوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم خفيةً لمدة ثلاث سنوات ثم أُمِرَ بالجهر بها في قوله تعالى ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ سورة الحجر وهكذا دعوة نوحٍ عليه السلام كانت في الخفاء ثم جهر بها ، وأما في الخطاب الدعوي فكذلك نوَّع لهم ما بين الإعلان والإسرار فقال ﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ ﴾ فالإعلان يكون في المجامع والأندية والأسواق ونحوها يرفع صوته بالدعوة ، قال مجاهد ﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ ﴾ صحت . والإسرار يكون في الدور وبينه وبين كل رجلٍ على حده . قال مجاهد ﴿ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ ﴾ : النجاء نجاء لرجل .

وقيل بل المراد بقوله ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ ﴾ كلها في الخطاب الدعوي وأنه بدأ بالخطاب السري فلم ينفع فثنى بالجهر فلم ينفع فثلث بالجمع بين السر والإعلان . قال الشيخ وهبة بن مصطفى الزحيلي : والمراد بالآيات أنه كان لدعوته ثلاث مراتب : بدأ بالمناصحة في السر ليلاً ونهاراً ففروا منه ، ثم ثنّى بالمجاهرة لأن النصح بين الملأ تقريع وتغليظ فلم يؤثر ، ثم جمع بين الأمرين : الإسرار والإعلان ، كما يفعل المجتهد المتحير في التدبير فلم ينفع . ومعنى ثُمَّ الدلالة على تباعد الأحوال وتفاوت درجة الأسلوب ، لأن الجهار أغلظ من الإسرار ، والجمع بين الأمرين أغلظ من إفراد أحدهما وهذا مشابه لمراحل الدعوة التي قام بها النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في مكة وجزيرة العرب ، فكان موقف كفار قريش مماثلاً لموقف قوم نوح .انتهى من التفسير المنير.

وبعد أن ذكر أساليب الدعوة ووقتها شرع في ذكر جملة من الأقوال التي قالها لهم وأولها التوبة إلى الله والاستغفار من الذنوب الحائلة بين العبد وبين ربه ولا شك أن أعظم الذنوب الشرك .

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾ من الشرك والكفر والذنوب كلها ، والنداء باسم الربوبية يشعر بالحاجة إلى الرب جل وعلا مع كثرة فضل الرب وإنعامه على العبيد فإن الرب هو المربي بالنعم . وفي الآية دليل على أنهم كانوا يقرون بتوحيد الربوبية فلم ينفعهم لـــمَّا أنكروا توحيد الألوهية . ثم رغبهم في المسارعة بالتوبة والاستغفار فقال ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ ﴾ صيغة مبالغة أي كثير المغفرة لمن تاب من ذنوبه واستغفر .

﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ ﴾ أي يترل عليكم المطر كثير الدرور أي متتابعاً كلما دعت الحاجة إليه . والعرب تطلق على المطر السماء كما قال قائلهم :

إذا نزل السماء بأرض قومٍ رعيناه وإن كانوا غضابا

يعني إذا نزل المطر رعينا نبته .

وعن الشعبي قال : خرج عمر بن الخطاب يستسقي فما زاد على الاستغفار ثم رجع . فقالوا يا أمير المؤمنين ما رأيناك استسقيت ، فقال : لقد طلبت المطر بمجاديح السماء التي يسترل بها المطر ، ثم قرأ ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ ﴾ وقوله : مجاديح السماء . جمع مجدح وهو نجمٌ من النجوم ، قيل: هو الدبران . وقيل : هو ثلاثة كواكب كالأثافي ، وهو عند العرب من الأنواء الدالة على المطر ، فجعل الاستغفار مشبهاً بالأنواء مخاطبةً لهم بما يعرفونه لا قولاً بالأنواء ، وجاء بلفظ الجمع لأنه أراد الأنواء جميعها التي يزعمون أن من شأنها المطر . وانظر النهاية في غريب الحديث والأثر (١ / ٢٤٣)

﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ ﴾ أي يعطيكم . قال في تاج العروس : الإمداد : الإعطاءُ والإغاثَةُ ، يقال : مَدَّه مِدَاداً وأَمَدَّه : أَعطاه .انتهى. ويأتي المدد بمعنى الزيادة ومنه ﴿ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾ من (٢٧) سورة لقمان أي يزيده . والزيادة تكون على شيءٍ موجود ، والإعطاء يكون لشيءٍ مفقود . فمن لا مال ولا ولد له فإن الله يعطيه ، ومن كان ذو مالٍ وولد فإن الله يزيده . فشمل فضله الجميع .

وقوله ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ ﴾ أي ويرزقكم ببساتين فيها من أنواع الثمار اليانعة . ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ أي مياهاً جارية على وجه الأرض ، يعني تستفيدون منها في الشرب وفي سقي تلك البساتين وعطاء الله لا حدَّ له وفضله لا منتهى له .

وقد روى الربيع بن صبيح أن رجلاً أتى الحسن فشكا إليه الجدوبة ، فقال له الحسن : استغفر الله ، وأتاه آخر فشكا إليه الفقر ، فقال له : استغفر الله ، وأتاه آخر فقال : ادع الله أن يرزقني ولداً ، فقال له : استغفر الله ، وأتاه آخر فشكا إليه جفاف بساتينه فقال له : استغفر الله . فقلنا : أتاك رجالٌ يشكون أبواباً ويسألون أنواعاً فأمرتهم كلهم بالاستغفار ، فقال : ما قلت من ذات نفسي في ذلك شيئاً إنّما اعتبرت فيه قول الله سبحانه حكاية عن نبيّه نوح عليه السلام إنّه قال لقومه ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ وهذا دليلٌ على أن الاستغفار يجلب الأرزاق والخير في الدنيا مع ما فيه من مغفرة الذنوب في الآخرة فجمع الله لأهله بين سعادة الدنيا والآخرة . قال قتادة: علم نبي الله صلي الله عليه وسلم أنهم أهل حرص على الدنيا فقال : هلموا إلى طاعة الله فإن في طاعة الله درك الدنيا والآخرة . ذكره القرطبي .

﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ اختلف العلماء في معنى هذه الآية على أقوال :

القول الأول / ما لكم لا تعظّمون الله . أو مالكم لا تخافون عظمة الله . وهو معنى قول بن عباسٍ ومجاهد وعكرمة والضحاك . قال القرطبي : قال الوالبي والعوفي عن بن عباس : ما لكم لا تعلمون لله عظمة . وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد : مالكم لا ترون لله عظمة . وعن مجاهد والضحاك : ما لكم لا تبالون لله عظمة . قال قطرب: هذه لغة حجازية وهذيل وخزاعة ومضر يقولون :لم أرج :لم أبال. والوقار: العظمة. والتوقير: التعظيم .انتهى. وذكر بن جرير عن سعيد بن جبير عن بن عباس أنه قال : ما لكم لا تعظمون الله حقّ عظمته .انتهى. وذكره الثعلبي في الكشف والبيان من قول سعيد وذكر عن الكلبي أنه قال : لا تخافون للّه عظمة .انتهى. وقد فصل بعض المفسرين بينهما فجعلهما قولان لكن تعظيم الله يقتضي الخوف منه لعظمته وإلا لم يكن معظماً لله .

القول الثاني / مالكم لا ترجون أن يعظّمكم الله . أو مالكم لا تكونون على حالٍ تأملون فيها تعظيم اللّه إياكم في دار الثواب. يعني لإيمانكم وطاعتكم . قال القرطبي : قال قتادة : ما لكم لا ترجون لله عاقبة . كأن المعنى ما لكم لا ترجون لله عاقبة الايمان. وقال ابن كيسان : ما لكم لا ترجون في عبادة الله وطاعته أن يثيبكم على توقيركم خيرا .انتهى. وقال الشيخ وهبة الزحيلي :لم يجز الرازي تفسير الرجاء بالخوف لأن الرجاء في اللغة ضد الخوف ، ورجح تفسير الزمخشري وهو مالكم لا تأملون للّه توقيراً أي تعظيماً ، والمعنى : ما لكم لا تكونون على حالٍ تأملون فيها تعظيم اللّه إياكم .انتهى.

القول الثالث / مالكم لا تخشون لله عقاباً وترجون منه ثواباً . رواه سعيد بن جبير عن بن عباس وهو قول أبي العالية وعطاء ابن أبي رباح .

القول الرابع / أن الوقار الثبات ، ومنه قوله تعالى ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾من (٣٣) سورة الأحزاب أي اثبتن . ومعناه : مالكم لا تثبتون وحدانية اللّه ، وأنه إلهكم الذي لا إله لكم سواه ، وهو قول ابن بحر .

وذكر الثعلبي والماوردي عن الحسن أنه قال : لا تعرفون للّه حقاً ولا تشكرون له نعمة . وعن ابن زيد : لا ترون لله طاعة. .انتهى. ولا شك أن حمل الآية على كل المعاني التي تحتملها أولى من اطراح بعضها .

تنبيه : إنكار الرازي لمجيء الرجاء بمعنى الخوف في لغة العرب ليس بصحيح بل قد جاء ومنه قول أبي ذؤيب الهُذَلِيّ : إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا... وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ نُوبٍ عَوَاسلِ

أي لم يخف لسعها .

وقد ذكر المفسرون أن معنى قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾من (٧) سورة يونس أي لا يخافون لقاءنا يوم القيامة . وكذا قوله تعالى﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾من (١٤) سورة الجاثية أي لا يخافون أيام الله . وقد ذكر الطبري بسنده عن مجاهد قال : الرجاء : الطَّمَعُ وَالْمَخَافَةُ .انتهى. وقال البغوي : قال الفرَّاء : الرجاء بمعنى الخوف ، لغة تهامة .انتهى. وقال القرطبي : قال قطرب : هذه لغة حجازية وهذيل وخزاعة ومضر يقولون : لم أرج : لم أبال .انتهى.

ولما أمر بتعظيمه جاء بآيةٍ تدل على عظمته وهي كيفية خلق الإنسان فقال ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾ جمع طَوْرٌ وهي المراحل التي مرَّ عليها الإنسان في أثناء خلقه فطور النطفة وطور العلقة وطور المضغة ...الخ وهي المبينة في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾سورة المؤمنون والمعنى أن الذي خلقكم على هذه الأطوار ينبغي أن تعظموه حق التعظيم فإن الذي قدر على خلقكم على هذه الأطوار قادرٌ على إعادة خلقكم وبعثكم ومحاسبتكم ولذا قال في سورة المؤمنون بعد هذه الآيات ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

وقيل : أَطْواراً أي صبياناً ، ثم شباباً ، ثم شيوخاً .

وقيل: أطواراً أي أنواعاً : صحيحاً وسقيماً ، وبصيراً وضريراً ، وغنياً وفقيراً ، وأميراً ومأموراً ونحو ذلك .

وقيل : المراد اختلافهم في الأخلاق والافعال .

ورجح في أضواء البيان الأول بدلالة أن الآية في قضية الخلق وهي الإيجاد الأول وما بعد الإيجاد الأول صفات عارضة ، والإيجاد الأول أقوى دليل على القدرة على البعث الذي سيقت لأجله الآيات ، وهو الذي يجاب به على الكفرة ومنه قوله تعالى ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾سورة عبس

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ ﴾ بعضها فوق بعض . وعبَّر بالرؤية لأن الحقيقة المتيقنة كالرؤية في حصول العلم بمدلولها . وكان المشركون يقرون أن الله خلق سبع سماواتٍ طباقا .

﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾ اختلف أهل التفسير في هذه الآية على أقوال :

القول الأول / أن الشمس والقمر وجوههما إلى السماء وأقفيتهما إلى الأرض وأنهما ينيران لأهل السماء كما ينيران لأهل الأرض وهو رواية قتادة عن عبد الله بن عمرو بن العاص وهو مرويٌ عن بن عباس وعطاء والحسن وقال عكرمة : يضيء نور القمر فيهن كلهن كما لو كان سبع زجاجات أسفل منها شهاب أضاءت كلهن فكذلك نور القمر في السموات كلهن لصفائهن .انتهى من الدر المنثور . وقال الطبراني : فالقمرُ وإنْ كان في السَّماء الدُّنيا فإنَّما يلِي السَّمواتِ منه يُضِيءُ لهم وما يلِي الأرضَ منه يضيءُ لأهلِ الأرض .انتهى. وقال الفراء : والمعنى : جعل الشمس والقمر نوراً في السموات والأرض .انتهى. وممن قال به الجزائري في أيسر التفاسير .

القول الثاني / أن فيهن بمعنى معهن أي أن الله خلق الشمس والقمر مع خلق السماوات السبع لينيرا لأهل الأرض وهو مرويٌ عن بن عباس وهو قول الضحاك ومقاتل بن سليمان والكلبي وقطرب .

القول الثالث / أن العرب قد يطلقون العموم ويريدون البعض كما تقول : أتاني بنو تميم وأتيت بني تميم والمراد بعضهم ، وهو قول الأخفش وقال ابن كيسان : إذا كان في إحداهن فهو فيهن .انتهى. فهو كقوله تعالى ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾من (١٣٠) سورة الأنعام وإنما كان الرسل من الإنس . وقوله

تعالى ﴿ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴿٢٢﴾ ﴾ سورة الرحمن وإنما يخرجان من البحر المالح . كذا قال بعض المفسرين وأنكره آخرون وقالوا من الجن رسل كالإنس ، ومن البحر العذب يخرج اللؤلؤ والمرجان كالمالح ، وعدم إخراج الناس لهما من البحر العذب لا يعني عدم وجودهما فيه فكم في اليابسة من الخزائن والناس يمرون عليها أو بقربها و لم يطّلعوا عليها و لم يخرجوها .

وقوله﴿ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ﴿١٦﴾ ﴾ أي كالسراج الذي يضيء فينير المكان . و لم يوصف القمر بأنه سراج بل نور لأنه لا ينبعث منه الضوء كالسراج ، وإنما يعكس الضوء المنبعث عليه من الشمس فينير .

﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴿١٧﴾ ﴾ أي خلق أصلكم وهو آدم عليه السلام من تراب الأرض . قال مقاتل : أول خلقكم من تراب الأرض . وقال بن جريج : خلق آدم من أديم الأرض كلها . وقال الطبري : والله أنشأكم من تراب الأرض فخلقكم منه إنشاء . وذكر الرازي وجهاً آخر وهو أنه تعالى أنبت الكل من الأرض لأنه تعالى إنما يخلقنا من النطف وهي متولدة من الأغذية المتولدة من النبات المتولد من الأرض .

و﴿ نَبَاتٗا ﴾ ليس مصدر أنبت وإنما مصدر نبت لكنه جعل مصدراً ل﴿ أَنۢبَتَكُم ﴾ لعلةٍ بلاغية . قال الألوسي ﴿ نَبَاتٗا ﴾ اسم من أنبت عومل معاملة المصدر فوقع مفعولاً مطلقا ل ﴿ أَنۢبَتَكُم ﴾ للتوكيد ، و لم يجر على قياس فعله فيقال : إنباتاً ، لأن نباتاً أخف فلما تسنى الإتيان به لأنه مستعملٌ فصيح لم يعدل عنه إلى الثقيل كمالاً في الفصاحة .انتهى. وقيل هو مصدر محمول على المعنى لأن معنى ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴿١٧﴾ ﴾ أي جعلكم تنبتون نباتاً . قاله الخليل والزجاج كما ذكره القرطبي . قال الزمخشري : نُصِبَ بأنبتكم لتضمنه معنى نبتم .نقله عنه بن حيان. وقيل انتصب مصدراً بإضمار فعل فنبتم والتقدير أنبتكم فنبتم نباتاً ذكره بن حيان والرازي .

﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا ﴾ عند الموت فتقبرون فيها . ﴿ وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴿١٨﴾ ﴾ يوم القيامة للبعث والحساب.

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ﴿١٩﴾ ﴾ كالبساط وهو الفراش يعني مبسوطةً سهلةً ممهدةً مهيأةً للعيش فيها . قال الطبراني : أي فَرَشَها وبسَطَها لكم كَهَيئَةِ البساطِ .انتهى. وقيل ﴿ بِسَاطٗا ﴾ من البسط وهو السعة قال تعالى ﴿ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ من (٢٧) سورة الشورى أي لو وسع عليهم ، وهو قول الراغب الأصفهاني ، وعليه يكون المعنى : جعل لكم الأرض واسعة . ولا تعارض بين المعنيين والسياق يحتملهما .

﴿ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾ السلك الإدخال ، ومنه قوله تعالى ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ ﴾ سورة المدثر أي ما أدخلكم في سقر . وعُبِّرَ به عن المسير على الأرض لأن السائر على الأرض قد مشى بين جبالها وسهولها وأوديتها فكان كالداخل فيها . وقوله﴿ مِنْهَا ﴾ يجوز أن يتعلق بتسلكوا فيكون للتبعيض أي لتسلكوا بعضها لأنه ليس كل الأرض تستطيعون السير عليها لوعورتها ، ويجوز أن يكون حالاً أي لتسلكوا حال كونها سبلاً فجاجاً . وقوله ﴿ سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ أي طرقاً واسعة . ففجاجاً صفة لسبل ، ويمكن أن تكون بدلاً منها لأن السبل الطرق والفجاج الطرق الواسعة أو التي تكون بين جبلين . وعن بن عباسٍ قال﴿ سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ طرقاً مختلفة . وقال قتادة : طرقاً وأعلاماً . وقال بن كامل : طرقاً واسعة . وقال بن جرير : طُرُقًا صِعَابًا مُتَفَرِّقَةً .

فالخلاف في الفجاج وأما السبل فهي جمع سبيل وهو الطريق زاد الراغب الذي فيه سهولة كما قال في تاج العروس ، وأما الفجاج فهي جمع فج ، وقد اختلف أهل اللغة فيه على سبعة أقوال :

الأول / الطريق . وهو قول الأخفش .

الثاني / الطريق الواسع . وهو قول الفراء .

الثالث / الطريق الواسع بين جبلين . وهو قول أبي إسحاق والليث وبن شميل . قال في تهذيب اللغة : قال أبو إسحاق : والفج الطريق المنفرج في الجبال خاصّة . وقال ابنُ شميل : الفَجُّ كأنّهُ طريقٌ وربَّما كان طريقاً بَيْنَ حرفين مُشْرِفَيْنِ عليه ، إنما هو طريقٌ عريضٌ وربما كان ضيّقاً بين جبليْنِ أو فأوَيْنِ ، وينْقادُ ذلك يومين أو ثلاثة ، إذا كان طريقاً أو غير طريقٍ : وإذا لم يكن طريقاً فهو أريضٌ كثيرُ العُشبِ والكَلأ .انتهى

الرابع / الطريق الواسع في جبل أو في قُبُلِ جبل وهو قول أبي الهيثم .

الخامس / الطريق الضيق الطويل بين جبلين . وهو معنى قول ابن شميل .

السادس / الطريق المنخفض . وهو قول ثعلب .

السابع/ الطريق البعيد . وهو قول أبي الهيثم .

وبهذا يتبين لك مترلة حبر الأمة وترجمان القران بن عباسٍ رضي الله عنهما في تفسير القران فإن قوله : طرقاً مختلفة . يجمع لك كل تلك الأقوال . ما بين سعتها في الصحارى والقفار ، وضيقها بين الجبال ، وانخفاضها في الأودية ، وارتفاعها في السهول وفي قُبُلِ الجبال ، وَبُعْدها في المسافات .

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ ﴾ شكا نوحٌ عليه السلام إلى ربه عصيان قومه ، وأن كل أساليب الدعوة التي اتخذها معهم لم تنفعهم ، وأنهم اتبعوا من نهاهم عن الاستجابة لدعوة التوحيد والطاعة من أشرافهم أهل الأموال والأولاد الذين لم تزدهم أموالهم وأولادهم إلا ضلالاً وهلاكاً .

قال القرطبي : قرأ أهل المدنية والشام وعاصم ﴿ وَوَلَدُهُۥٓ ﴾ بفتح الواو واللام. الباقون (وُلْده) بضم الواو وسكون اللام .انتهى.

﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ ﴾ قال مجاهد : عظيماً . وقال بن زيد : كَبِيراً كَهَيْئَةِ قَوْلِهِ ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ ﴾سورة النبأ قال بن جرير : وَالْكُبَّارُ : هُوَ الْكَبِيرُ كَمَا قَالَ ابْنُ زَيْدٍ ، تَقُولُ الْعَرَبُ : أَمْرٌ عَجِيبٌ وَعُجَابٌ بِالتَّخْفِيفِ وَعُجَّابٌ بِالتَّشْدِيدِ ، وَرَجُلٌ حُسَانٌ وَحَسَّانٌ ، وَجُمَالٌ وَجُمَّالٌ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ وَكَذَلِكَ كَبِيرٌ وَكُبَّارٌ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ .انتهى . وقال القرطبي : أي كبيراً عظيماً ... واختلف في مكرهم ما هو؟ فقيل : تحريشهم سفلتهم على قتل نوح . وقيل : هو تعزيرهم الناس بما أوتوا من الدنيا والولد حتى قالت الضعفة : لولا أنهم على الحق لما أوتوا هذه النعم . وقال الكلبي : هو ما جعلوه لله من الصاحبة والولد. وقيل : مكرهم كفرهم. وقال مقاتل : هو قول كبرائهم لاتباعهم ﴿ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ ﴾ .انتهى. فجعل مقاتل تفسيرها ما بعدها ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ ﴾ وهي الدعوة إلى الضلال والشرك فإن هذه أسماء معبوداتهم التي يعبدونها من دون الله . قال بن عباسٍ رضي الله عنهما : أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ . رواه البخاري . ثم توارث المشركون هذه الأصنام قال بن عباسٍ : صَارَتِ الأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدُ أَمَّا وُدٌّ كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ وَأَمَّا سُوَاعٌ كَانَتْ لِهُذَيْلٍ ، وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجُرُفِ عِنْدَ سَبَا ، وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ ، وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لآلِ ذِي الْكَلاَعِ . رواه البخاري. وقال أبو عثمان النهدي : رأيت يغوث

وكان من رصاص ، وكانوا يحملونه على جملٍ أحرد ، ويسيرون معه ولا يهيجونه حتى يكون هو الذي يبرك فإذا برك نزلوا وقالوا : قد رضي لكم المترل ، فيضربون عليه بناءً يترلون حوله .ذكره القرطبي.

قال الطبري : وَاخْتَلَفَتِ الْقَرَأَةُ فِي قِرَاءَةِ قَوْلِهِ ﴿ وَدًّا ﴾ فَقَرَأَتْهُ عَامَّةُ قَرَأَةِ الْمَدِينَةِ (وُدًّا) بِضَمِّ الْوَاوِ . وَقَرَأَتْهُ عَامَّةُ قَرَأَةِ الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ ﴿ وَدًّا ﴾ بِفَتْحِ الْوَاوِ .انتهى. وقال القرطبي : قرأ نافع وَلا تَذَرُنَّ وُدًّا بضم الواو. وفتحها الباقون .انتهى.

﴿ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا ﴾ أي أضل كبراؤهم بمكرهم كثيراً من أتباعهم ، فهي معطوفة على قوله تعالى ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ ﴾ وقيل معطوفه على الأصنام المذكورة في الآية التي قبلها أي أن الأصنام أضلت كثيراً أي ضلَّ بسببها الكثير من الناس كقول إبراهيم عليه السلام ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ من (٣٦) سورة إبراهيم ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ ﴾ دعوة نوح عليه السلام على قومه لَّما يئس منهم وأخبره ربه أنه لن يؤمن منهم أحدٌ بَعْدُ فخشي أن يضلوا من آمن فدعا عليهم . قال بن بحر ﴿ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴾ إلا عذاباً . واستشهد بقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ سورة القمر قال قتادة في آية القمر : في عناءٍ وعذاب . وقيل في حيدةٍ عن الحق وبعد عنه ، ونارٌ مسعرة عليهم . وقال الطبراني في آية نوح : لا تُزِدهُم إلاَّ خُسراناً وهلاكاً . وقال غيره : ضياعاً وهلاكاً . وقال القاسمي : خذلاناً واستدراجاً . وقال الزحيلي : حيرةً وبعداً عن الصواب وقيل فتنةً بالمال والولد ذكره الماوردي احتمالاً ، وقيل ضلالاً في أمر دنياهم وترويج مكرهم . قال الألوسي: الضلال مستعارٌ لعدم الاهتداء إلى طرائق المكر الذي خشي نوحٌ غائلته في قوله﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ ﴾ أي حل بيننا وبين مكرهم ولا تزدهم إمهالاً في طغيانهم علينا إلا أن تضللهم عن وسائله ، فيكون الاستثناء من تأكيد الشيء بما يشبه ضده ، أو أراد إبهام طرق النفع عليهم حتى تنكسر شوكتهم وتلين شكيمتهم نظير قول موسى عليه السلام ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾ من (٨٨) سورة يونس وليس المراد بالضلال الضلال عن طريق الحق والتوحيد لظهور أنه ينافي دعوة نوحٍ قومه إلى الاستغفار والإيمان بالبعث فكيف يسأل الله أن يزيدهم منه. ويجوز أن يكون الضلال أطلق على العذاب المسبب عن الضلال أي في عذاب يوم القيامة وهو عذاب الإهانة والآلام . ويجوز أن تكون جملة معترضة وهي من كلام الله تعالى لنوح فتكون الواو اعتراضية ويُقَدَّر قولٌ محذوف : وقلنا لا تزد الظالمين . والمعنى : ولا تزد في دعائهم فإن ذلك لا يزيدهم إلا ضلالاً ، فالزيادة منه تزيدهم كفراً وعناداً . وبهذا يبقى الضلال

مستعملاً في معناه المشهور في اصطلاح القرآن ، فصيغة النهي مستعملة في التأييس من نفع دعوته إياهم .انتهى.

وأصل الضلال في اللغة الضياع والهلاك . قال في الصحاح : ضَلَّ الشيءُ يَضِلُّ ضَلالاً ، أي ضاع وهلَك .انتهى. ومنه : أَضلَلْتُ بعيري إذا ذهبَ منك ، وضللت المسجد والدَّارَ إذا لم تهتدِ لهما. وأَضْلَلْتُ فُلاناً إذا وَجَّهْتُه لِلضَّلالِ عن الطَّرِيق. وفي الهلاك قالوا منه قولهم : وقعوا في وادي تُضُلِّلَ ، إذا وَقعوا في مَضلَّةٍ فهلكوا.

قال بن فارس : الضاد واللام أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على معنىً واحد ، وهو ضَياع الشيء وذهابُهُ في غيرِ حَقِّه. يقال ضَلَّ يَضِلّ ويَضَلّ لغتان. وكلُّ جائرٍ عن القصد ضالٌّ. والضَّلاَل والضَّلالَة بمعنى. ورجلٌ ضِلِّيل ومُضلَّل إذا كان صاحبَ ضَلاَلٍ وباطل .انتهى.

وقال في تاج العروس : الضَّلَّةُ بالْفَتْحِ : الحَيْرَةُ ، وقد ضَلَّ ضَلَّةً ، إذا تَحَيَّرَ ، قالَهُ ابنُ السِّيدِ . والضُّلُّ بالضَّمِّ : اسْمٌ مِنْ ضَلَّ إذا ضَاعَ وهَلَكَ ، نَقَلَهُ الجَوْهَرِيُّ . انتهى.

وقال الكسائي : هو الباطل . نقله في تاج العروس وقال : يُقالُ لِلْباطِلِ : ضُلٌّ بِتَضْلاَلٍ .انتهى.

وقيل أصله الغيبة والخفاء. قال بن الأعرابي : أصل الضلال الغيبوبة ، يقال: ضل الناسي إذا غاب عنه حفظ الشيء. قال ومعنى ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ سورة طه أي لا يغيب عنه شيء ، ولا يغيب عن شيء . وقال الزجاج والنحاس : لا يضل عنه علم شيءٍ من الأشياء ولا معرفتها ، ولا ينسى ما علمه منها. ذكر ذلك القرطبي . وقال بن عباس : لا يخطي ، وقال مجاهد : هما بمعنىً واحد. وقوله ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ من (١٠) سورة السجدة أي إذا غبنا في الأرض واختفينا يعني تحللت أجسادنا وصارت تراباً . ومنه يقال للبهيمة الضائعة ضالة لغيبتها عن صاحبها واختفاءها منه ، ويطلق على الناسي ضال لغيبة المحفوظ عنه ومنه ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾من (٢٨٢) سورة البقرة

وفي الشرع ما يضاد الهدى والرشاد . قالَ الرَّاغِبُ : الضلال هوَ العُدُولُ عن الطريقِ المُسْتَقِيمِ وقال غيره : سُلُوكُ طَرِيقٍ لا يُوَصِّلُ إلى المَطْلُوبِ . ومنه قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾سورة الكهف

وقد يكون العدول عن الصراط المستقيم هو عدولٌ عن أصله بالكفر والشرك ، وهذا لا يقع إلا من الكفار والمشركين ، وقد يكون عدولاً عن بعض أجزاءه وهذا يكون من عموم الناس حتى من الأنبياء والصالحين ومن ذلك قول الله تعالى ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ سورة الضحى وقال موسى عليه السلام ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ سورة الشعراء فالمراد الانحراف القليل عن الطريق الموصل إلى الله تعالى . وهو واقع من عموم الناس ولا بد ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم (استقيموا ولن تحصو) أي لن تطيقوا وقال (سددوا وقاربوا) فالمطلوب السير على الصراط فمن انحرف عنه قليلاً يعني بالوقوع في الخطأ والذنب بادر بالتوبة والاستغفار والرجوع إلى طريق الله تعالى .

﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ ﴾ أي بسبب خطيئاتهم أهلكوا بالغرق في الدنيا ودخول النار في الآخرة فلم يجدوا من يدفع عنهم العذاب ويمنعهم من الله .

وقيل ﴿ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا ﴾ أي عذاب القبر وهو قول القشيري ، وقيل ﴿ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا ﴾ في الدنيا عذبوا بالغرق والحرق معاً وقد رواه الثعلبي عن الضحاك كما ذكر القرطبي قال وأنشد أبو بكر بن الأنباري :

الخلق مـــجتمع طوراً ومفترق ... والحادثات فنون ذات أطوار

لا تعجبن لأضداد إن اجتمعت ... فـــالله يجمع بين الماء والنار

انتهى . قلت : وقد رأينا من مقاطع تسونامي إندونيسيا وهو الغرق الذي اصابهم قبل سنوات صوراً لرجالٍ متفحمين كأنهم قد أحرقوا بالنار . وقالوا في ذلك الوقت عن أسبابه الحسية أنها ناتجة عن زلزالٍ أو بركانٍ ثار في البحر فارتفع البحر فأغرقهم . ومعلومٌ أن البركان يثور بالحمم النارية البركانية المنصهرة في باطن الأرض فلعلها تجري مع الماء فيجتمع الغرق والحرق والله على كل شيءٍ قدير .

قال الطبري : واختلفت القراء في قراءة قوله ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ ﴾ فقرأته عامة قراء الأمصار غير أبي عمرو ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ ﴾ بالهمز والتاء ، وقرأ ذلك أبو عمرو (مما خطاياهم) بالألف بغير همز . والقول عندنا أنهما قراءتان معروفتان فبأيتهما قرأ القارئ فهو مصيب . انتهى.

وقال القرطبي : (ما) صلة مؤكدة ، والمعنى من خطاياهم . وقال الفراء : المعنى من أجل خطاياهم ، فأدت ما هذا المعنى . قال : و(ما) تدل على المجازاة . وقراءة أبي عمرو (خطاياهم) على جمع التكسير ، الواحدة

خطية. قال : وقرى (خَطِيئاتِهِمْ)(وخطياتهم) بقلب الهمزة ياء وإدغامها. وعن الجحدري وعمرو بن عبيد والأعمش وأبي حيوة وأشهب العقيلي (خطيئتهم) على التوحيد ، والمراد الشرك . انتهى.

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ ﴾ دعا نوحٌ عليهم السلام على الكافرين بالفناء فقال ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي لا تترك على الأرض ﴿ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ ﴾ أي من يسكن الديار وهو قول السدي والقتبي وقيل ﴿ دَيَّارًا ﴾ فيعال من الدوران أصله ديوارا فقلبت الواو ياء وأدغمت في الياء الأخرى. والمراد لا تذر من يدور في الأرض فيذهب ويجيء والمعنى على كلٍ أي لا تبقي منهم أحداً .

ثم علل سبب دعاءه عليهم فقال ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ ﴾ أي تتركهم ﴿ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ ﴾ أي يكونون سبباً في انحراف من آمن عن طريق الهدى إلى طريق الكفر ﴿ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ أي لا يأتي لهم ولدٌ إلا كان مثلهم في الفجور والكفر ، فلا فيهم خيرٌ يرتجى ، ولا منهم شرٌ يكتفى . وكان نوحٌ عليه السلام قد جرَّبهم طويلاً ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً فما وجد منهم إلا ما ذكر عنهم .

ثم دعا لنفسه ولوالديه وللمؤمنين جميعاً بالمغفرة فقال﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ ﴾ قال القرطبي : دعا لنفسه ولوالديه وكانا مؤمنين. وهما: لمك بن متوشلخ وشمخى بنت أنوش ذكره القشيري والثعلبي. وحكى الماوردي في أسم أمه منجل. وقال سعيد بن جبير: أراد بوالديه أباه وجده. وقرأ سعيد بن جبير (لوالدِي) بكسر الدال على الواحد .انتهى. ﴿ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا ﴾ قال بن عباسٍ والضحاك ومقاتل : مَسْجِدِي. وعن ابن عباسٍ وجويبر : ديني . وعن ابن عباسٍ : مترلي ، حكاه الماوردي. ورجحه بن كثير . ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ دعوة لعموم المؤمنين والمؤمنات ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي الكافرين أو المشركين ﴿ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾ ﴾ قال مجاهد والسدي : خسارا . وقال السدي : هلاكا .

أولا / صبر نوح عليه السلام على الدعوة وقد ذكر الطبري بسنده عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ : كَانُوا يَضْرِبُونَ نُوحًا حَتَّى يُغْشَى عَلَيْهِ ، فَإِذَا أَفَاقَ قَالَ : رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ.

ثانياً / في قوله تعالى ﴿ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ حثٌ على اغتنام العمر والمبادرة بالعمل الصالح والتوبة من الذنوب قبل حلول الأجل لأنه إذا حلَّ الأجل الذي كتبه الله للعبد فلن يؤخر عنه حتى يتمكن من التوبة والعمل للآخرة وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك) رواه الحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (١٠٧٧)

ثالثاً / في قصة نوحٍ عليه السلام تسلية للدعاة الذين يبذلون قصارى جهدهم في هداية الناس ودلالتهم على الخير ثم لم يجدوا آذاناً صاغية ولا قلوباً واعية بل وجدوا الأذية وربما التهديد والوعيد كما قال تعالى في سورة الشعراء ﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾ومع ذلك لم ينثني عن دعوتهم و لم يتضجر حتى جاءه الخبر اليقين من ربه ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾سورة هود فعند ذلك يئس منهم ودعا عليهم .

رابعاً / أن التنويع في الدعوة وأساليبها منهجٌ نبوي فنوحٌ عليه السلام كان يتلمس الأوقات المناسبة في الليل والنهار ، ويتلمس الحالة المناسبة للمدعو بين الجهر والإسرار ، وكان يذكر نعم الله عليهم ويعدد لهم آلائه ويعظم ربه ويدعوهم إلى الاستغفار والتوبة ويذكرهم بقرب الأجل وأنه لا مجال للتوبة بعد الموت ويذكر لهم ما سيربحونه في الدنيا والآخرة إن هم تركوا الشرك والكفر وأفردوا ربهم بالطاعة والعبادة من حصول الأمطار والإمداد بالأموال والأولاد وغير ذلك من نعم الدنيا مع ما سيربحونه في الآخرة ، والمقصود أن التنويع في الدعوة مطلبٌ شرعي فينبغي للداعية تعلمه والحرص عليه مع المدعوين لعل الله أن ينفعهم به .

خامساً / أن نصر الله لأوليائه قريب وفرجه عاجل ومهما استبعده المؤمن فهو أقرب مما يظن ولن يحصل له هلاكٌ ولا ضياع ولا هزيمة ما دام مع الله جل وعلا ، ولكن الله جل وعلا جعل الدنيا دار ابتلاء وامتحان فلابد من الصبر والتحمل ومكابدة المشآق والأتعاب النفسية والجسدية مع دوام اليقين بقرب فرج الله وليس هذا خاص بمقابلة الأعداء بل حتى ما يصيبه من البلاء في نفسه وولده وماله فيوقن أن الله سيشافيه وسيرد ولده وماله عليه ويعوضه من فقد ذلك خيراً . فإن ظنَّ بربه غير ذلك كان نصيبه الخسران في الدنيا والآخرة وقد جاء في الحديث القدسي (أنا عند ظن عبدي بي) متفق عليه وعند أحمد بزيادة (فليظن بي ما شاء) صحح إسناده شعيب الأرنؤوط وعند الطبراني وغيره بلفظ (أنا عند ظن عبدي بي ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر) صححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (١٩٠٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الجن

سورة الجن مكية وآياتها (٢٨)

سميت هذه السورة بهذا الاسم لأنها تحدثت في مجملها عن قصة الجن الذين استمعوا للوحي وامنوا به ، والجن عالمٌ غيبي نؤمن بوجودهم كما جاء في الكتاب والسنة ، وأنهم خلقوا من نار كما قال تعالى ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ سورة الحجر وقال تعالى ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾ سورة الرحمن وخلقهم متقدمٌ على خلق البشر قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ سورة الحجر وهم مكلفون كالبشر ، وقد أرسل الله لهم رسلاً منهم كالبشر كما قال تعالى ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ من (١٣٠) سورة الأنعام وقيل ليس منهم رسل وإنما يتبعون للرسول البشري ، وظاهر الآية يدل على أن منهم رسل ، فمن نفى هذا الظاهر فعليه الدليل ، وقد أُرسل النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى الجن والانس كآفة ، فمنهم من آمن ، ومنهم من كفر ، كما سيأتي في هذه السورة والشيطان من الجن كما قال تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ من (٥٠) سورة الكهف فإبليس وذريته يقال لهم شياطين وأبالسة وكذلك من سار على نهجهم من الجن والانس وهم الذين يأمرون بالخبث والشر ويفعلونه . وذهب بعض أهل العلم إلى أن إبليس هو أب الجن كما أن آدم أبو البشر وهو قول الحسن وبن زيد ورجحه بن تيمية . وذهب بن عباس وبن المسيب وقتادة وآخرون إلى أنه من الملائكة من قبيلةٍ منهم يقال لهم الجن . ولا شك أن ظاهر الآية يدل على الأول وهو أنه وذريته بعض الجن فمن مال بها عن ظاهرها فعليه الدليل . والجن مراتب ، قال بن عبد البر : الجن عند أهل الكلام والعلم باللسان على مراتب : فإذا ذكروا الجن خالصاً قالوا جني ، فإذا أرادوا أنه مما يسكن مع الناس قالوا عامر والجمع عمّار ، فإن كان مما يعرض للصبيان قالوا أرواح ، فإن خبث وتعرض قالوا شيطان ، فإن زاد على ذلك فهو مارد ، فإن زاد على ذلك وقوي أمره قالوا عفريت والجمع عفاريت . ذكره عمر الأشقر في عالم الجن .

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد للناس﴿ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ نزل علي الوحي ب ﴿ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ يعني لقراءة النبي صلى الله عليه وسلم للقران ، والنفر عند أهل اللغة ما بين الثلاثة إلى العشرة ﴿ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ ﴾ تعجبوا منه ولعلهم تعجبوا من بلاغة لفظه وشمول أحكامه . قال الطبراني : أي بَليغاً ذا عَجَبٍ يُعجَبُ من بلاغتهِ وحُسنِ نَظْمِهِ . انتهى. وقال القرطبي : أي في فصاحة كلامه. وقيل: عجباً في بلاغة مواعظه. وقيل: عجباً في عظم بركته. وقيل: قرآناً عزيزاً لا يوجد مثله. وقيل: يعنون عظيما .انتهى ﴿ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ ﴾ يدل على الأمر الصائب وهو الإيمان والتوحيد وطاعة الله جل وعلا . وقال السعدي : الرشد : اسم جامع لكل ما يرشد الناس إلى مصالح دينهم ودنياهم .انتهى. ﴿ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ﴾ صدقنا به ﴿ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ ﴾ أي نفرده بالعبادة ولا نشرك معه غيره ، والآيات تدل على سرعة استجابة الجن للحق لما سمعوه ، وفيه دعوة إلى كفار قريش للاقتداء بالجن ، وفيه تصبير للنبي صلى الله عليه وسلم وأنه مهما كذبك الناس فإن الله سيرسل لك من يقبل دعوتك ممن كتب الله لهم الهداية والفلاح ولو كانوا من غير الانس . وظاهر الآيات يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يشعر بالجن واستماعهم له وقبولهم لدعوته حتى جاءه الوحي بذلك ، وهو الذي أكده بن عباسٍ فقد جاء في الصحيحين عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ بن عَبَّاسٍ قَالَ مَا قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى الْجِنِّ وَمَا رَآهُمُ انْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ فَقَالُوا : مَا لَكُمْ ؟ فَقَالُوا : حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ . قَالَ : مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلاَّ شيءٌ حَدَثَ فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَانْظُرُوا مَا هَذَا الأَمْرُ الَّذِي حَدَثَ فَانْطَلَقُوا فَضَرَبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا يَنْظُرُونَ مَا هَذَا الأَمْرُ الَّذِي حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ قَالَ فَانْطَلَقَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بِنَخْلَةَ وَهْوَ عَامِدٌ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ وَهْوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلاَةَ الْفَجْرِ فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ تَسَمَّعُوا لَهُ فَقَالُوا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ فَهُنَالِكَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ ﴿ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ ﴾ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى نَبِيِّهِ صلى الله عليه وسلم ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الْجِنِّ .

وهذا لا يتعارض مع ما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّهُ كَانَ يَحْمِلُ مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم إِدَاوَةً لِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ فَبَيْنَمَا هُوَ يَتْبَعُهُ بِهَا فَقَالَ (مَنْ هَذَا ؟) فَقَالَ أَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ فَقَالَ (ابْغِنِي أَحْجَارًا أَسْتَنْفِضْ بِهَا ، وَلاَ تَأْتِنِي بِعَظْمٍ وَلاَ بِرَوْثَةٍ) فَأَتَيْتُهُ بِأَحْجَارٍ أَحْمِلُهَا فِي طَرَفِ ثَوْبِي حَتَّى وَضَعْتُ إِلَى جَنْبِهِ ثُمَّ

انْصَرَفْتُ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مَشَيْتُ فَقُلْتُ مَا بَالُ الْعَظْمِ وَالرَّوْثَةِ ؟ قَالَ (هُمَا مِنْ طَعَامِ الْجِنِّ وَإِنَّهُ أَتَانِي وَفْدُ جِنِّ نَصِيبِينَ وَنِعْمَ الْجِنُّ فَسَأَلُونِي الزَّادَ فَدَعَوْتُ اللَّهَ لَهُمْ أَنْ لاَ يَمُرُّوا بِعَظْمٍ وَلاَ بِرَوْثَةٍ إِلاَّ وَجَدُوا عَلَيْهَا طَعَامًا) وروى مسلم عَنْ عَامِرٍ قَالَ سَأَلْتُ عَلْقَمَةَ هَلْ كَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ شَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لَيْلَةَ الْجِنِّ ؟ قَالَ فَقَالَ عَلْقَمَةُ أَنَا سَأَلْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ فَقُلْتُ هَلْ شَهِدَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لَيْلَةَ الْجِنِّ؟ قَالَ : لاَ ، وَلَكِنَّا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ذَاتَ لَيْلَةٍ فَفَقَدْنَاهُ فَالْتَمَسْنَاهُ فِي الأَوْدِيَةِ وَالشِّعَابِ فَقُلْنَا اسْتُطِيرَ أَوِ اغْتِيلَ – قَالَ – فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إِذَا هُوَ جَاءٍ مِنْ قِبَلِ حِرَاءٍ ، قَالَ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَدْنَاكَ فَطَلَبْنَاكَ فَلَمْ نَجِدْكَ فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ . فَقَالَ (أَتَانِى دَاعِي الْجِنِّ فَذَهَبْتُ مَعَهُ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ) قَالَ فَانْطَلَقَ بِنَا فَأَرَانَا آثَارَهُمْ وَآثَارَ نِيرَانِهِمْ وَسَأَلُوهُ الزَّادَ فَقَالَ (لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا وَكُلُّ بَعَرَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ) فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم (فَلاَ تَسْتَنْجُوا بِهِمَا فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ) رواه مسلم

فإن هذا وقع بعد استماعهم الأول وأنهم رجعوا للنبي صلى الله عليه وسلم يتعلمون منه ويستمعون له أو جاءوا بمن قبل دعوتهم ليسمعوا من النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة . قال الحافظ البيهقي : وهذا الذي حكاه ابن عباس رضي الله عنهما إنما هو في أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلمت حاله ، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم ، ثم بعد ذلك أتاه داعي الجن فقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى الله عز وجل كما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه . ذكره بن كثيرٍ في تفسيره . وهذه الآيات كقوله تعالى ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ سورة الأحقاف قال الطبراني : فاستجابَ لهم جماعةٌ من الجنِّ فجاءوا بهم إلى النبيِّ صلى الله عليهم وسلم ، فأقرَأهُم القرآنَ فآمَنُوا به .انتهى. والمقصود أن الاستماع الأول وقع من غير علم النبي صلى الله عليه وسلم بهم حتى جاءه الوحي بذلك ثم اجتمع بهم بعد ذلك .

﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ ﴾ قال بن عباسٍ وقتادة والسدي وبن زيد : تعالى أمر ربنا . وعن بن عباسٍ : فعله وأمره وقدرته . وعنه وعن قتادة : تعالت عظمته . وقال مجاهد وعكرمة : جلاله .

وعن مجاهد : ذكره . وعن قتادة : تَعَالَى جَلاَلُهُ وَعَظَمَتُهُ وَأَمْرُهُ . وقال : تَعَالَى أَمْرُ رَبِّنَا تَعَالَتْ عَظَمَتُهُ . وقال الحسن : غناه . وقال أبو جعفر : كان كلاماً من جهلة الجن . يعني أنهم يقصدون بالجد أبا الأب . قال الطبري : وَأَوْلَى الأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ : عُنِيَ بِذَلِكَ : تَعَالَتْ عَظَمَةُ رَبِّنَا وَقُدْرَتُهُ وَسُلْطَانُهُ .انتهى. والمقصود أنهم عظَّموا الرب جل وعلا ونزهوه عن اتخاذ الصاحبة والولد .

والجَدُّ في لغة العرب يطلق على معانٍ عدة منها :

أولاً / أبو الأب وأبو الأم وإن علا . قال بن منظور : قال ابن عباس : لو علمت الجن أَن في الإِنس جَدًّا ما قالت ﴿ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ معناه أَن الجن لو علمت أَن أَبا الأَب في الإِنس يدعى جَدًّا ما قالت الذي اخبر الله عنه في هذه السورة عنها .انتهى من لسان العرب .

ثانياً / العظمة ، يقال جدَّ في عيني يعني عظم . قال أنس : كان الرجل منا إذا قرأ البقرة وآل عمران جَدَّ فينا يعني عَظُمَ . وفسَّر بعضهم هذه الآية وحديث (وتبارك اسمك وتعالى جدك) قالوا : أي عظمتك .

ثالثاً / الحظ والغنى وفي حديث القيامة (وإِذا أَصحابُ الجَدِّ مَحْبُوسُونَ) أَي ذوو الحَظّ والغِنَى في الدنيا . وفي حديث (ولا ينفع ذا الجد منك الجد) أي لا ينفع ذا الغنى عندك غناه قاله في الصحاح . وقيل أَي من كان له حظ في الدنيا لم ينفعه ذلك منه في الآخرة قاله بن سيده وبن منظور .

والجِدُ بالكسر الاجتهاد في الأمر ، وضد الهزل .

والجُدَّةُ الطريقة والجمع جُدَد ومنه قوله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ ﴾من (٢٧) سورة فاطر أَي طرائق تخالف لون الجبل قاله في لسان العرب . ويطلق على ساحل البحر والنهر جُدَّة ومنه سميت مدينة جُدَّة اشتقاقاً من هذا المعنى .

قال بن فارس : الجيم والدال أصولٌ ثلاثة : الأوَّل العظمة ، والثانية الحَظ ، والثالث القَطْع .

فالأوّل العظمة قال الله جلّ ثناؤُه إخباراً عمّن قال ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ ويقال جَدَّ الرجُل في عيني أي عَظُم قال أنسُ بنُ مالكٍ : كان الرجلُ إذا قرأ سورةَ البقرة وآلِ عِمرانَ جَدَّ فينا . أي عَظُم في صُدورِنا.

والثاني : الغِنَى والحظُّ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في دعائه (لا يَنْفَع ذا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ) يريد لا ينفَعُ ذا الغنى منك غِناه ، إنّما ينفعه العملُ بطاعتك . وفلان أجَدُّ من فلانٍ وأحَظُّ منه بمعنىً .

والثالث : يقال جَدَدت الشيءَ جَدّاً ، وهو مجدودٌ وجَديد ، أي مقطوع ... وليس ببعيدٍ أنْ يكون الجدُّ في الأمرِ والمبالغةُ فيه من هذا ؛ لأنّه يَصْرِمه صَرِيمةً ويَعْزِمُه عزيمة... ومن هذا الباب الجَدَّاءُ : الأرض التي لا ماء بها ، كأنّ الماءَ جُدّ عنها ، أي قطِع . ومنه الجَدُود والجَدّاءُ من الضَّان ، وهي التي جَفَّ لبنُها ويَبِس ضَرْعُها. ومن هذا الباب الجِداد والجَداد وهو صِرَام النَّخل. وجادَّةُ الطَّريق سَواؤُه كأنّه قد قُطِع عن غيره ، ولأنه أيضاً يُسْلَك ويُجَدُّ. ومنه الجُدّة. وجانبُ كلِّ شيءٍ جُدّة .انتهى من معجم مقاييس اللغة .

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ ﴾ قال مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي : إبليس . وهذا يدل على أن إبليس ليس أبوهم وإلا لقالوا عنه عبارةً غير هذه . وقيل المراد : أي المشرك منا . قال قتادة : عصاه سفيه الجن كما عصاه سفيه الإنس . والشطط التعدي كما قال الطبري . وقال بن زيد : ظلماً كبيرا .

﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ كانوا يظنون أن ما يقوله الانس والجن من نسبة الصاحبة والولد لله وأنواع الشرك والكفر حق حتى سمعوا القران فعلموا أنه كذب ، وأن ما كان يقوله إبليس على الله من نسبة الصاحبة والولد وأنواع الكفر ظلمٌ وتعدي وكذب ولذلك سموه السفيه وهو كذلك .

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ كان أهل الجاهلية إذا نزل أحدهم في وادٍ قال أعوذ بعزيز هذا الوادي من سفهاء قومه ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾ قال بن عباس : فزادهم ذلك إثماً . وقال سعيد بن جبير : كفراً . وقال مجاهد : زاد الكفار طُغْيَانًا. وعنه : زاد الجن طغياناً . وقال قتادة : إِثْماً ، وَازْدَادَتِ الْجِنُّ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ جَرَاءَةً . وقال إبراهيم : ازْدَادُوا عَلَيْهِمْ جَرَاءَةً . وقال الربيع بن أنس : فَيَزِيدُهُمْ ذَلِكَ رَهَقًا وَهُوَ الْفَرَقُ. وقال عبد الرحمن بن زيد : زَادَهُمُ الْجِنُّ خَوْفاً .

وهو من اختلاف التنوع لا التضاد فالجن ازدادت عليهم جراءةً فخوفتهم لأجل أن يستمروا في شركهم والاستعاذة بهم من دون الله فيقعوا في الإثم ، ووقع الجن في الطغيان فقالوا : سدنا الجن والانس كما نقل ذلك القرطبي عن مجاهد ولا شك أن من دعا إلى عبادة نفسه من دون الله أو رضي بذلك أنه من الطواغيت.

والرهق في لغة العرب يطلق على السفه والخفة وركوب الشر والظلم وغشيان المحارم ويطلق على الأمر المعسر فيقال : لا ترهقني لا أرهقك الله ، أي لا تعسرني لا أعسرك الله . وأرهق فلانٌ فلاناً كلفه بما لا يطاق . وقوله تعالى ﴿ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ ﴾ سورة المدثر أي سأكلفه ما لا يطيق من العذاب . وقوله ﴿ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ﴾ من (٢٦) سورة يونس أي لا يغشى . وقوله ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ قال أبو عمرو : الرهق هنا الخفة والعربدة وركوب الشر . وقال الفراء : الظلم . وقال الأزهري : اسمٌ من الإرهاق : وهو أَن تَحْمِلَ الإِنْسانَ على مالا يُطِيقُه . وقيل غشيان المحارم . ذكر هذه الأقوال الزبيدي في تاج العروس . وعن أبي عبيدة : السفه والطغيان وعن الزجاج : الذلة والضعف . وعن الخليل : فزادوهم عظمة . قلت : لعله يريد التكبر والعتو . وليس هو عكس قول الزجاج فإن الزجاج يريد الانس الذين استعاذوا بالجن وقول الخليل على الجن المستعاذ بهم .

ويطلق الرهق على العجلة ومنه (إن في سيف خالد رهقا) أي عجلة . وعلى الخوف كما قال أبو عمرو الشيباني و لم أجد من قال ذلك غيره من أهل اللغة . ويطلق على الكذب ومنه قول النضر :

حَلَفَتْ يَمِيْناً غيرَ ما رَهَقٍ باللهِ رَبِّ مُحَمَّدٍ وبِلالِ

أي غير كاذبة . ويطلق على غير ذلك .

وهذه الآية يمكن أن تكون من قول الجن معطوفةً على ما قبلها ، ويمكن أن تكون من قول الله جل وعلا إخباراً عن حال الإنس والجن ، وهكذا الآية بعدها ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ ﴾ يحتمل أن تكون من قول الجن ويكون المعنى : وأن الرجال من الانس الذين كانوا يستعيذون بالجن ظنوا كما ظن الرجال من الجن أن لن يبعث الله رسولاً ، ويحتمل أن تكون من قول الله تعالى ويكون المعنى : وأن الجن ظنوا كما ظننتم يا معشر المشركين من الانس أن لن يبعث الله رسولاً يدعوا إلى التوحيد والإيمان والطاعة . وفيه توجيه لهم إلى الإيمان بالرسول كما آمنت به الجن حين علموا برسالته واستمعوا لقراءته . وقيل المراد إنكار البعث والحساب على الاحتمالين . قال بن أبي زمنين : يجحدون البعث .

ثم عاد الكلام إلى الجن فقالوا ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ ﴾ أي ارتقينا إليها وطلبنا أخبارها كما كنا نفعل من قبل . قال الماوردي : فيه وجهان : أحدهما : طلبنا السماءَ ، والعرب تعبر عن الطلب باللمس تقول جئت ألمس الرزق وألتمس الرزق . الثاني : قاربنا السماء ، فإن الملموس مقارَب .انتهى. ﴿ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا

وَشُهُبًا ﴿٨﴾ ﴾ الحرس جمع حارس ومرادهم الحفظة من الملائكة الذين وكلوا بحفظ السماء من مسترقي السمع من الجن ، ووصفوا الملائكة الحفظة بالشدة أو وصفوا الحراسة بالشديدة فلا مجال لاختراقها . والشهب جمع شهاب وهو النجم الحارق الذي كان يرسل عليهم فيحرقهم . ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ﴾ أي كنا نقعد في مواضع من السماء الدنيا نسترق السمع ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ ﴾ فمن يريد استراق السمع الآن منا يجد معداً له شهاباً يترصده ليحرقه . قال الفراء : أي شهاباً قد أرصد له ليرجم به . وذلك وقع بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأما قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام فلم يكن في السماء حراسٌ ولا شهبٌ حارقة . وقيل بل كان يرمى بالشهب قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ولكن بعد مبعثه زيد فيها وشددت الحراسة فعن معمر قلت للزهري : أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية ؟ قال : نعم. قلت : أرأيت قوله تعالى ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ﴾ قال : غلظت وشدد أمرها . وروى الإمام مسلم عن ابْنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ : أخبرني رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النبي صلى الله عليه وسلم مِنَ الأَنْصَارِ أَنَّهُمْ بَيْنَمَا هُمْ جُلُوسٌ لَيْلَةً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم رُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم (مَاذَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا رُمِيَ بِمِثْلِ هَذَا) قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ كُنَّا نَقُولُ وُلِدَ اللَّيْلَةَ رَجُلٌ عَظِيمٌ وَمَاتَ رَجُلٌ عَظِيمٌ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم (فَإِنَّهَا لاَ يُرْمَى بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ ، وَلَكِنْ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ ، ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ هَذِهِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ قَالَ الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِحَمَلَةِ الْعَرْشِ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ فَيُخْبِرُونَهُمْ مَاذَا قَالَ – قَالَ – فَيَسْتَخْبِرُ بَعْضُ أَهْلِ السَّمَوَاتِ بَعْضاً حَتَّى يَبْلُغَ الْخَبَرُ هَذِهِ السَّمَاءَ الدُّنْيَا فَتَخْطَفُ الْجِنُّ السَّمْعَ فَيَقْذِفُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ وَيُرْمَوْنَ بِهِ فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ وَلَكِنَّهُمْ يَقْرِفُونَ فِيهِ وَيَزِيدُونَ) . انتهى . والقرف الخلط : أي يخلطون فيها من الكذب ويزيدون .

ووجد في أشعار العرب القدماء ذكر انقضاض الكواكب ومن ذلك قول بشر بن أبي حازم :

والعير يرهقها الغبار وجحشها ** ينقض خلفها انقضاض الكوكب

وقال عوف بن الجزع : فرد علينا العير من دون إلفه . . . أو الثور كالدري يتبعه الدم

قال أوس بن حجر : فانقض كالدري يتبعه . . . نقع يثور تخاله طنبا

وذكر الرازي : أن الفلاسفة المتقدمين تكلموا في أسباب انقضاض هذه الشهب مما يدل على حدوثها قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم

وقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾من (٥) سورة الملك يدل على أنها خلقت لأجل ذلك منذ ابتداء خلقها .

وقوله تعالى ﴿ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ ﴾ يدل على أنها كانت موجودة لكنها ملئت بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، فالحادث هو الملء .

ولا يعارض هذا قوله تعالى﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ﴾ فإنه لقلة الشهب وقلة من يحترق منهم بها تجرئوا على استراق السمع . والعلم عند الله تعالى

﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾ هذا من لطيف العبارة والتأدب مع الله جل وعلا فنسبوا الشرَّ إلى غير فاعل ونسبوا إرادة الرشد إلى الله ، فالخير والرشد ينسب إلى الله جل وعلا فعلاً وتقديراً ، والشر لا ينسب إلى الله فعلاً لكن تقديراً ، فالله لا يفعل الشر لكن المخلوقات الشريرة هي التي فعلت الشر ، والله قدَّر وجوده ووقوعه وأقدرها على فعله وإيقاع الضرر به ، فكل ذلك بتقدير الله لا بفعله فلا ينسب الشر إليه وإنما ينسب إلى من فعلة كالشياطين والسحرة والسباع والسوام ونحو ذلك ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول (لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ) رواه مسلم

وهذا يدل على أن هؤلاء الجن من أهل العلم والإيمان وليسوا من جهلة الجن كما قال أبو جعفر فهم يعلمون ما يقولون ويتأدبون مع رب العباد ويقرون بالتوحيد والطاعة ونبذ الشرك فمثل هؤلاء لا يقال عنهم جهلة ويكفيهم شرفاً رؤية النبي صلى الله عليه وسلم والإيمان به .

وإنما كان قولهم هذا قبل رؤية النبي صلى الله عليه وسلم وبعد رؤيتهم التشديد في الحراسة ورمي الشهب فاضطربوا لذلك فلا يدرون أكان ذلك لأجل عذابٍ سيكون على أهل الأرض ، أم أن الله جل وعلا قد أراد بأهل الأرض خيراً ، ولعلهم لما سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ القران وعلموا أن الأمر كان لمبعثه عليه الصلاة والسلام تيقنوا أن الله قد أراد بأهل الأرض خيراً فسابقوهم إلى الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم .

وهذا معنى قول بن زيد ورجحه الطبري وقال الكلبي ومقاتل وبن جريج : لا ندري هل يطيعوا هذا الرسول فيرشدهم الله جل وعلا أو يعصوه فيهلكهم . وعليه فيكون قولهم هذا بعد رؤية النبي صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ أخبر الجن عن حالهم قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم وأنه كان منهم صالحون متقيدون بالأوامر والنواهي ، ومنهم من كان دون ذلك يفرط في الطاعات ويرتكب المحرمات . وقيل المراد بقولهم ﴿ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ أي مشركون وكفرة . وقولهم ﴿ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ ﴾قال بن عباس وعكرمة وقتادة : أهواء شتى . وقال السدي : فرقاً شتى . وقال مقاتل : مللاً شتى . وقال الضحاك : أديانا مختلفة . وقال بن عباسٍ ومجاهد وسفيان وبن زيد : مسلم وكافر .

والطرائق في اللغة : جمع طريقة ، والمراد طريقة الرجل ومذهبه . يقال: ما زال فلانٌ على طَريقَةٍ واحدةٍ ، أي على حالةٍ واحدةٍ .

والقَدُّ في اللغة القطع مطلقاً وقيل القطع طولاً وقدَّه شقه طولاً ومنه قولهم : ضَرَبه بالسَّيْفِ فقَدَّه بنصفينِ . أي قطعه طولاً فجعل جسده نصفين . وقطَّه قطعه عرضاً وروي أن علياً رضي الله عنه إذا اعتَلَى قَدَّ ، وإذا اعْتَرَضَ قَطَّ . والقديد اللحم يقطع طولاً ثم يملح ويبس في الشمس وفي حديث الذي جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ترعد فرائصه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم (هون عليك فإني لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد) رواه بن ماجة والطبراني والحاكم وصححه الألباني . قال الرازي في مختار الصحاح : القَدُّ الشق طولا ..والتقطيع ...والقِدَّة بالكسر الطريقة والفِرقة من الناس إذا كان هوى كل واحدٍ على حدة يقال : كنا طرائق قِدَداً . انتهى. فجعل هذا القول كأنه مثالٌ تقوله العرب عند تفرقها والعلم عند الله تعالى . وقال الزبيدي : القِدَّةُ الفرقة والطريقة من الناس إذا كان هَوَى كُلِّ واحدٍ عَلَى حِدَةٍ ومنه قوله عزّ وجلّ ﴿ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴾قال الفراء : فِرَقاً مُخْتَلِفَةً أَهْوَاؤهَا . وقال الزّجّاج : قِدَداً : مُتفرِّقين مُسلِمينَ وغيرَ مُسلمينَ . قال : وقولُه ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ﴾ هاذا تفسير قولهم ﴿ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴾ وقال غيرُه : قِدَداً جمع قِدَّة . وصار القَوْمُ قِدَداً : تَفرَّقَتْ حالاتُهم وأَهواؤُهم (وقد تَقَدَّدُوا) تَفَرَّقُوا قِدَداً وتَقَطَّعُوا . انتهى من تاج العروس . وقال الطبري : القِدد : جمع قدّة ، وهي الضروب والأجناس المختلفة .انتهى من تفسيره .

﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ ﴾ أي تيقنا بقدرة الله علينا ، وأنا لن نعجزه إن أراد بنا أمراً ، ولن نعجزه في طلبنا إن هربنا بل سيدركنا ولن نفوته أبداً ، فليس لنا مفرٌ ولا ملجأ منه إلا إليه .

فالظن هنا بمعنى اليقين لا بمعنى الشك كقوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ سورة البقرة أي يتقنون .

﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ ﴾ أي لما سمعنا النبي صلى الله عليه وسلم يتلوا القران الذي فيه الهداية إلى الله آمنا بالله جل وعلا ، ومن يؤمن بالله فلا يخاف نقصاً من حسناته ولا ظلماً بزيادةٍ في آثامه . قال بن كثير : قال ابن عباسٍ وقتادة وغيرهما : فلا يخاف أن يُنقص من حسناته أو يحمل عليه غير سيئاته ، كما قال تعالى ﴿ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾من (١١٢) سورة طه

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ﴾ جمع قاسط وهو الظالم الجائر عن طريق الحق والعدل ، أي ظالمون لأنفسهم وهم المشركون والكافرون ، أي منا مسلمون ومنا كافرون . وأما المقسط فهو العادل كما قال تعالى ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ من (٤٢) سورة المائدة فالقِسط بكسر القاف العدل وبفتحها الظلم ، وقيل لفظهما واحد لكنهما من الأضداد قَسَط يقسط قسطاً فهو قاسط أي ظالم . وقَسَطَ وأقسط يقسط قسطاً فهو مقسط أي عادل . ففي العَدْلِ لُغَتَانِ : قَسَطَ وأَقْسَطَ ، وفي الجَوْر لغةٌ واحِدَةٌ قَسَطَ بغيرِ أَلِف . ذكره في تاج العروس ، والعلم عند الله تعالى . قال بن عباس ﴿ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ﴾ العادلون عن الحق . وقال مجاهد : الظالمون . وقال قتادة وبن زيد : الجائرون .

﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ ﴾ التحري : طَلَبُ ما هو أَحْرى بالاستعمال في غالب الظنّ . وفلانٌ يَتَحَرَّى الأمر ، أي يتوخّاه ويقصِده . والرشد الهداية والاستقامة . يقال : أرشده الله ، أي هداه ودله على الطريق الصحيح . قال الزبيدي : رَشِدَ : اهتدى وأصاب وجه الأمر والطريق .انتهى. والمعنى : توخوا وقصدوا طريق الرشاد ، وهو طريق الحق والهداية والاستقامة ، الموصلة لرضى الله جل وعلا وجنته .

﴿ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ﴾ الظالمون الجائرون عن طريق الحق ﴿ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾ أي وقوداً لها تسعر بهم .

﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ ﴾ لو أن الكفار استقاموا على الطريق الصحيح وهو طريق الهداية والإسلام لأسقيناهم ماء كثيراً ﴿ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ لنبتليهم ونختبرهم به هل يشكرون أم يكفرون . والخطاب لكفرة الجن يدل على ذلك سياق الآيات . وقيل بل لكفار قريشٍ والمشركين من الانس لأن الترغيب بالانتفاع بالماء الغدق إنما يليق بالإنس لا بالجن فهم سريعي التنقل ويدركون الماء أينما كان .

بخلاف الانس الذين يصعب عليهم التنقل وحمل الماء الكثير . والأمر الآخر أن الآية نزلت بعدما حبس الله المطر عن أهل مكة سبع سنين كما هو مرويٌ عن بن عباسٍ رضي الله عنهما فناسب أن يذكر لهم الإنعام بالماء الغدق بعد انقطاعه . وقيل بل الآية تشمل كفار الجن والانس فكلهم مكلفون ومختبرون . وليس المراد مجرد الماء بل ما ينتجه من خيرات ، قال الرازي : في المراد بالماء الغدق في هذه الآية ثلاثة أقوال : أحدها أنه الغيث والمطر . والثاني وهو قول أبي مسلم أنه إشارة إلى الجنة كما قال ﴿ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ وثالثها أنه المنافع والخيرات جعل الماء كناية عنها لأن الماء أصل الخيرات كلها في الدنيا .انتهى. وعند السيوطي في الدر إلى عمر رضي الله عنه ومجاهد ﴿ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ﴾ لأعطيناهم مالاً كثيراً . وقال قتادة : لأوسعنا لهم من الدنيا . وقال الحسن : لو استقاموا على طاعة الله وما أمروا به لأكثر الله لهم من الأموال حتى يغتنوا بها . وعن الربيع بن أنس : عيشاً رغداً . وعن بن عباس ﴿ غَدَقٗا ﴾ كثيراً جارياً . انتهى.

﴿ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا ١٧ ﴾ ومن أعرض عن القران فلم يقبله أو أعرض عن عبادة الله وتوحيده وطاعته أدخله الله عذاباً يزداد مع الأيام فقوله ﴿ صَعَدٗا ﴾ من الصعود وهو الارتفاع ، فالعذاب يرتفع عليه ولا ينقص . قال الحسن : لا يزداد إلا شدة . وقيل : لأنه يتصعد المعذب أي يعلوه ويغلبه فلا يطيقه. وقيل الصعد المشقة تقول : تصعدني الأمر أي شق علي . وعليه يكون المعنى : ندخله عَذاباً صَعَداً أي شاقاً . قال بن عباسٍ وقتادة : صعوداً من عذاب الله لا راحة فيه. وعن بن عباسٍ ومجاهد وعكرمة : مشقةً من العذاب . وقال بن زيد : العذاب المتعب .

﴿ وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ١٨ ﴾ اختلفوا في المراد بالمساجد في هذه الآية فقيل هي المساجد المعروفة التي تقام فيها الصلوات ، يعرض بما يفعله المشركون عند المسجد الحرام من دعاء وعبادة غير الله جل وعلا وكذلك ما يفعله اليهود والنصارى في دور العبادة عندهم من الشرك والكفر ، فأمر الله المؤمنين أن لا يفعلوا كفعلهم بل يخلصوا العبادة لله وحده في هذه المساجد . قال قتادة : كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله ، فأمر الله المؤمنين أن يخلصوا لله الدعوة إذا دخلوا المساجد ، وأراد بها المساجد كلها . ذكره البغوي . وعليه يكون المعنى : وأن المساجد إنما بنيت لذكر الله وعبادته وحده فلا تعبدوا معه غيره فيها .

وقيل المراد بالمساجد الأرض كلها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً) وهو قول الحسن . وعليه يكون المعنى : أينما كنتم في الأرض فصلوا فإنها مسجد ولا تعبدوا مع الله غيره . يشهد لذلك ما روي عن سعيد بن جبيرٍ أنه قال : قالت الجن كيف لنا أن نأتي المساجد ونشهد معك الصلاة ونحن ناءون عنك؟ فنزلت ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ ﴾ وعن الأعمش قال : يقول : صلوا لا تخالطوا الناس . وعن بن عباسٍ قال : لم يكن يوم نزلت هذه الآية في الأرض مسجد إلا المسجد الحرام ومسجد إيليا بيت المقدس.

وقيل أراد بالمساجد مواضع السجود كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (أمرت أن أسجد على سبعة أعظم: على الجبهة وأشار بيده على أنفه ، واليدين ، والركبتين ، وأطراف القدمين) متفق عليه وهو قول سعيد بن المسيب وطلق بن حبيب وعطاء . والمعنى : فلا تسجدوا عليها لغيره .

وقيل المراد بالمساجد الصلوات وهو قول الحسن أيضاً كما نقله القرطبي يقال سجدت سجوداً ومسجداً أي صليت صلاة ومنه قوله تعالى ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ ﴾سورة الشعراء قال مجاهد وقتادة : أي المصلين . وعليه يكون المعنى : وأن الصلوات لله فلا تصلوا لغيره .

والمقصود إخلاص العبادة لله ، وأن لا يشرك معه في عبادته غيره .

﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ ﴾ لَّما قام النبي صلى الله عليه وسلم يدعوا الناس إلى عبادة الله وحده اجتمع المشركون من الجن والانس على حرب النبي صلى الله عليه وسلم وعداوته وتعاونوا على ذلك ، قال البخاري قال بن عباسٍ ﴿لِبَدًا ﴾ أَعْوَانًا . وروى بن جرير عن قتادة قال : تلبدت الإنس والجنّ على هذا الأمر ليطفئوه ، فأبى الله إلا أن ينصره ويمضيه ويظهره على من ناوأه . وقال بن زيد : تظاهروا عليه بعضهم على بعض . وقال الحسن : لما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا إله إلا الله ، ويدعو الناس إلى ربهم ، كادت العرب تلبد عليه جميعاً . قال القرطبي : قيل المعنى كاد المشركون يركبون بعضهم بعضاً حرداً على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وقيل هو إخبارٌ من الله جل وعلا أن الجن لَّما رأوا النبي صلى الله عليه وسلم يصلي ويقرأ القران كاد يركب بعضهم بعضاً حتى كادوا يسقطون عليه حرصاً على الاستماع إليه . وهو قول الزبير بن العوام رضي الله عنه وقيل كادوا يركبونه وهو مرويٌ عن بن عباسٍ والضحاك ومقاتل ، قال بن عباسٍ : كَادُوا يَركَبُونَه مِنَ الحِرصِ لَمَّا سَمِعُوه يَتْلُو الْقُرْآنَ . رواه بن جرير . وهذا القول يمكن أن يكون هو نفس قول الزبير بن العوام

ولذلك جعله بن كثير قولاً واحداً ، ويمكن أنهم أرادوا دخول الجني في الانسي فيقال ركبه جنِّي وهو ما يسمى بالمس ، ويمكن أن يدخل في الشخص الواحد أكثر من جنِّي فيقال تلبدوا عليه أي اجتمعوا . وكلمة كاد تدل على عدم الفعل ، تقول : كاد أن يسقط . معناه أنه لم يسقط ، فهم لم يركبوا النبي صلى الله عليه وسلم و لم يسقطوا عليه و لم يمسوه بسوءٍ ولا يستطيعون ذلك لأن الله يعصمه منهم ، هذا لو كانوا كفاراً ، فكيف وهم مؤمنون لاشك أنهم أبعد عن أذية النبي صلى الله عليه وسلم .

وقيل بل تعجب الجن من صلاة الصحابة رضي الله عنهم خلف النبي صلى الله عليه وسلم قيامهم خلفه وركوعهم وسجودهم معه فقالوا لقومهم هذا القول ، وهو مرويٌ عن بن عباسٍ وسعيد بن جبير .

ورجح الطبري الأول لسياق الآيات وأنه لما أمر الله جل وعلا بأن لا يعبد معه غيره بقوله ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾ بيَّن في الآية بعدها قلة المستجيبين وعداوتهم لمن أمر بتوحيد الله . وقال بن كثيرٍ بعد ذكره القول الأول : وهو مروي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقول ابن زيد واختيار ابن جرير وهو الأظهر لقوله بعده ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾ أي قال لهم الرسول لَّما آذوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه ليبطلوا ما جاء به من الحق واجتمعوا على عداوته ﴿ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى ﴾ أي: إنما أعبد ربي وحده لا شريك له ، وأستجير به وأتوكل عليه ﴿ وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴾

وعند أهل العربية تدل كلمة (لبد) على الكثرة والاجتماع قال بن فارس : اللام والباء والدال كلمةٌ صحيحة تدلُّ على تكرُّسِ الشَّيءِ بعضِه فوقَ بعض ... وصار النَّاس عليه لُبَداً ، إذا تجمَّعوا عليه .انتهى. وقال بن سيده : واللِّبْدَةُ ، واللُّبْدَةُ : الجَماعَةُ من النّاسِ يُقِيمُونَ وسائِرُهُم يَظْعُنُونَ ، كأَنَّهُم بَتَجمُّعِهم تَلَبَّدُوا .انتهى. وقال الزبيدي : قال الأَزهريُّ : المعنى أَنَّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لَّما صلَّى الصُّبْح بِبَطْنِ نَخْلَةَ كادَ الجنُّ لَّما سَمِعُوا القرآنَ وتَعَجَّبُوا منه أَن يَسْقُطُوا عليه ، أَي كالجَرَادِ .انتهى.

وتدل أيضاً على التداخل والالتصاق ، قال بن منظور : تَلَبَّد الشعَر والصوف والوَبَر والتَبَدَ تداخَلَ ولَزِقَ وكلُّ شعر أَو صوف مُلْتَبِدٍ بعضُه على بعض فهو لِبْد ولِبْدة ولُبْدة .انتهى. وقال أيضاً : لَبَّدَ شعَرَه أَلزقه بشيءٍ لَزِج أَو صمغ حتى صار كاللِّبد وهو شيء كان يفعله أَهل الجاهلية إِذا لم يريدوا أَن يَحْلِقُوا رؤُوسهم في الحج وقيل لَبَّد شعره حلقه جميعاً .انتهى. وقال الزبيدي : كلُّ شَيءٍ أَلْصَقْتَه بشيءٍ إلصاقاً شديداً فقد لَبَّدْته . انتهى. ولبد بالمكان إذا لزمه فلم يفارقه كأنه التصق به .

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾ أي لم أجيء بأمرٍ منكر حتى تتلبدوا عليَّ هذا التلبد يا معشر المشركين ، إنما جئت بإفراد الله بالعبادة وترك الشرك وهذا ما افعله . وإن قيل الخطاب للجن المؤمنين فمعناه تعليمهم العقيدة الصحيحة حتى يتمسكوا بها . وقد قُرِأتْ﴿ قُلْ ﴾ بالألف . قال الطبري : اختلفت القرّاء في قراءة قوله ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى ﴾ فقرأته عامة قرّاء المدينة والبصرة وبعض الكوفيين على وجه الخبر (قال) بالألف ، ومن قرأ ذلك كذلك جعله خبراً من الله عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أنه (قال) فيكون معنى الكلام : وأنه لما قام عبد الله يدعوه تلبدوا عليه ، قال لهم ﴿ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ وقرأ ذلك بعض المدنيين وعامة قرّاء الكوفة على وجه الأمر من الله عزّ وجلّ لنبيه صلى الله عليه وسلم : قل يا محمد للناس الذين كادوا يكونوا عليك لبدا ، إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا . والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان معروفتان ، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب .انتهى.

﴿ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ ﴾ أي ليس بيدي الضر والنفع إنما هو بيد الله وحده . فلا أستطيع أن أدفع عنكم ضراً نزل بكم ، ولا أقدم لكم رشداً منعتم منه . قيل الضر العذاب والرشد النعيم ، وقيل الضر الكفر والرشد الهدى ، وقيل غير ذلك .

﴿ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾ أي لا يستطيع أحدٌ أن يمنعني من الله إن أراد أن يعذبني ، ولن أجد ملجأً ألجأ إليه فراراً من عذابه ، فقدرته فوق كل شيء ، وعلمه وإحاطته شملت كل شيء ثم لَّما بيَّن لهم ما لا يقدر عليه ، بيَّن لهم ما يقدر عليه فقال ﴿ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ﴾ أي أستطيع أن أبلغكم رسالات ربي ، وأما الرشد والخذلان فبيد الله وحده . وقيل المعنى أي لن يمنعني من عذاب الله أحد ، ولن أجد من دونه ملتجئاً ، إلا أن أبلغكم ما أمرت بتبليغه لكم من الرسالة ، فكأنه يقول لهم : لن ينجيكم من عذاب الله إلا أن تقوموا بتوحيده وطاعته وتجتنبوا معصيته كما أفعل أنا . وعلى الأول أملك أن أبلغكم رسالات ربي وفيها الرشد والأمن والنجاة لمن تمسك بها ، وأما من أعرض عنها فسيدركه العذاب والضر ولذلك قال ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ فيخالف ما أمر الله به ورسوله من التوحيد ونبذ الشرك ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ ﴾ أي مستقرين فيها لا يخرجون منها أبداً ، وهذا يدل على أن المراد الشرك والكفر .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ ﴾ من العذاب في الدنيا أو الآخرة ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾ فحينئذٍ سيعلم المشركون من هو الذي كان أنصاره ضعفاء قليلون أهو محمدٌ صلى الله عليه وسلم أم هم . وهذا يؤيد ما رجحه الطبري وبن كثير في قوله تعالى ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ ﴾ من أن المراد تلبد المشركين ضد النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته .

﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ ﴾ أي لا أدري أهو قريبٌ ما توعدون من العذاب أو الساعة أم يجعل لذلك ربي غايةً تطول مدتها .

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ فإن الله وحده هو الذي يعلم الغيب ، ولا يطلع عليه أحد من الخلق ﴿ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ فإن الله يطلعهم على ما يشاء من الغيب عن طريق الوحي . ﴿ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ حفظةً من الملائكة بين يدي الرسول وخلفه يحفظونه من الشياطين والجن وهو قول بن عباس وقتادة وبن زيد وإبراهيم النخعي . وقال السدي : يحفظون الوحي فما جاء من الله قالوا إنه من عند الله ، وما ألقاه الشيطان قالوا إنه من الشيطان . وقال سعيد بن جبير والفراء : يحفظون جبريل إذا نزل بالوحي من السماء . قال سعيد بن جبير : ما نزل جبريل عليه السلام بشيءٍ من الوحي إلا ومعه أربعة حفظةٍ من الملائكة . وقال الضحاك : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا بُعِثَ إِلَيْهِ الْمَلَكُ بِالْوَحْيِ بُعِثَ مَعَهُ مَلاَئِكَةٌ يَحْرُسُونَهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ، أَنْ يَتَشَبَّهَ الشَّيْطَانُ عَلَى صُورَةِ الْمَلَكِ .

وقال بن كثير ﴿ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ هذا يعم الرسول الملكي والبشري .﴿ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ يختصه بمزيد معقبات من الملائكة يحفظونه من أمر الله ، ويساوقونه على ما معه من وحي الله .انتهى. وهذا هو الراجح فإن الآية تحمل على كل المعاني التي تحتملها ، ومعلومٌ أن الرسول البشري يتلقى الوحي عن طريق الرسول الملكي ، فكلاهما يطلعهما الله على ما يشاء من الغيب ، ثم يحفظ الله غيبه عن الشياطين بحفظةٍ يحفظون الرسول الذي اطلعه على الغيب .

قال الزحيلي : والآية دليل على إبطال الكهانة والتنجيم والسحر لأن أصحابها يدّعون علم الغيب من غير دليل .انتهى.

﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ قال بن عباسٍ ومجاهد : ليعلم من كذب الرسل أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم . وقال قتادة ومقاتل : ليعلم نبي الله أن الرسل قد بلغت عن الله . وقال سعيد بن جبير : ليعلم محمد أن قد بلغت الملائكة رسالات ربهم . وقال الزجاج : أي ليعلم الله أن رسله قد أبلغوا رسالاته ، كقوله ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ سورة آل عمران قال القرطبي : المعنى : ليعلم الله ذلك علم مشاهدة كما علمه غيباً .انتهى. وقال ابن قتيبة : أي ليعلم الجن أن الرسل قد بلغوا ما نزل عليهم و لم يكونوا هم المبلغين باستراق السمع عليهم . قال القرطبي : وقرأ بن عباس ومجاهد وحميد ويعقوب بضم الياء أي ليعلم الناس أن الرسل قد أبلغوا .انتهى.

وقول الزجاج هو الأقرب إلى السياق ، والله جل وعلا يعلم الغيب والشهادة ولكن هو كالتحريض على فعل الشيء أي جاهدوا واصبروا وبلغوا رسالات ربكم حتى يشاهدها الله منكم . وقد رجحه الجزائري والجلالين وقال بن كثير : ويحتمل أن يكون الضمير عائدًا إلى الله عز وجل ، وهو قول حكاه ابن الجوزي في (زاد المسير) ويكون المعنى في ذلك : أنه يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من أداء رسالاته ، ويحفظ ما بُيِّن إليهم من الوحي ؛ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، ويكون ذلك كقوله ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ من (١٤٣) سورة البقرة وكقوله ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾ سورة العنكبوت إلى أمثال ذلك ، مع العلم بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعا لا محالة ولهذا قال بعد هذا ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ انتهى.

﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ علم بكل ما عندهم ﴿ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ أحصى عدد كل شيء . قال بن عباس : أحصى ما خلق ، وعرف عدد ما خلق ، فلم يَفُتْه علم شيءٍ ، حتى مثاقيل الذر والخردل .ذكره البغوي.

من فوائد السورة :

أولاً / وجود الجن ، وأنهم مكلفون ، ومحاسبون يوم القيامة .

ثانياً / أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرسلٌ إلى الثقلين الجن والإنس .

ثالثاً / أن من الجن مؤمنون يتبعون الهدى ويعملون به ويدعون إليه .

رابعاً / أن من الجن قومٌ فطناء أذكياء ذو علمٍ وأدبٍ وحسن خلق يتضح ذلك من سرعة إيمانهم وأدبهم في خطابهم .

خامساً / أن الله جل وعلا لَّما أراد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم منع الشياطين من استراق السمع وجعل في السماء رصداً وشهباً تحرق من أراد استراق السمع منهم وذلك حمايةً للوحي والرسالة .

سادساً / بيان أن النافع الضار هو الله جل وعلا وأن النبي صلى الله عليه وسلم وهو أفضل الخلق لا يملك ضراً ولا نفعاً لأحد فكيف بمن دونه ، وفيه ردٌ على عبَّاد الأولياء والصالحين الذين يعبدونهم ويتقربون إليهم ويدعونهم من دون الله رجاء جلب الخير منهم أو دفع الضر ، وهذا هو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله .

سابعاً / أن علم الغيب قد انفرد الله به ويطلع رسله على ما يشاء منه بالوحي فمن زعم بعد انقطاع الوحي علم شيء من الغيب فقد كذَّب الله وهو كافر ومن صدَّقه كافرٌ مثله لأن تصديقه تكذيبٌ لله ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم (من أتى عرافاً أو كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد) رواه أحمد والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٥٩٣٩)

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة المزمل

سورة المزمل مكية وآياتها (٢٠)

قال السيوطي : أخرج ابن الضريس عن بن عباسٍ قال : كان أول ما نزل من القرآن ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ﴾ ثم (المزمل) ثم (المدثر). وأخرج أبو داود والبيهقي في السنن عن ابن عباس قال : بت عند خالتي ميمونة فقام النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم يصلي من الليل فصلى ثلاث عشرة ركعة منها ركعتا الفجر فحزرت قيامه في كل ركعة بقدر ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴾ . وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة والبيهقي في "سُنَنِه" عن سعد بن هشام قال : قلت لعائشة : أنبئيني عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : ألست تقرأ هذه السورة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴾ قلت : بلى . قالت : فإن الله قد افترض قيام الليل في أول هذه السورة فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم وأمسك الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهراً ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فريضة. وأخرج ابن أبي شيبة ، وعَبد بن حُمَيد ، وَابن أبي حاتم ومحمد بن نصر والطبراني والحاكم وصحه والبيهقي في "سُنَنِه" عن ابن عباس قال : لما نزلت أول المزمل كانوا يقومون نحوا من قيامهم في شهر رمضان حتى نزل آخرها وكان بين أولها وآخرها نحواً من سنة. انتهى من الدر المنثور .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ ﴾ أي المتزمل المتلفف بثيابه وهو قول بن عباسٍ وقتادة وإبراهيم النخعي ومقاتل ورجحه الطبري . وعن ابن عباسٍ وعكرمة : زملت هذا الأمر فقم به . أي حملت . قال القرطبي : في أصل الْمُزَّمِّلُ قولان : أحدهما / أنه المحتمل ، يقال : زُمِّلَ الشيء إذا حمله ، ومنه الزاملة لأنها تحمل القماش .

الثاني / أن المزمل هو المتلفف يقال : تزمل وتدثر بثوبه إذا تغطى . انتهى.

﴿ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ ﴾ كان هذا في أول الإسلام قبل فرضية الصلوات الخمس فرض الله عليهم قيام الليل وخيرهم بين أربع خيارات إما أن يقوموا الليل كله إلا قليلاً أو يقوموا نصف الليل أو ينقصوا من نصف الليل قليلاً أو يزيدوا عليه قليلاً ، وهو قول الأخفش أن قوله تعالى ﴿ نِّصۡفَهُۥٓ ﴾ أي أو نصفه كما يقال: أعطه درهماً درهمين ثلاثة : يريد : أو درهمين أو ثلاثة. وقيل:

إن نِصْفَهُ بدل من قوله ﴿ قَلِيلًا ﴾ أي قم الليل إلا نصفه ، فيكون مخيراً بين ثلاث : بين قيام النصف أو ينقص منه أو يزيد عليه .

فقاموا سنة ثم خفف الله عنهم كما تقدم عن بن عباسٍ وعائشة ، وقال سعيد بن جبير : قاموا عشر سنين . ولعله يرى أن التخفيف كان لَّما فرضت الصلوات الخمس ، وفرضية الصلوات الخمس كانت في السنة العاشرة من البعثة ومعلومٌ أن سورة المزمل من أوائل ما نزل يعني في السنة الأولى من البعثة فبينهما عشر سنين وقال غيره إنما نزل التخفيف بالمدينة لقوله تعالى ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ و لم يفرض القتال إلا بالمدينة ، ويجاب بأن الله يعلم أنهم سيقاتلون قبل فرضية القتال ، والذي دلت عليه آية التخفيف وهي قوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ أن المراد تخفيف التطويل في قيام الليل بعد أن كان على الخيارات الأربع المتقدمة صار مطلقاً ليصلوا ما شاءوا ، فمن شاء أن يطيل أطال ، ومن شاء أن يقصر قصر ، ولا علاقة لذلك بالصلوات الخمس المفروضة . وقد أخذ النبي صلى الله عليه وسلم في خاصة نفسه بالأشد فكان يقوم حتى تتورم قدماه وهو بالمدينة وقد نزلت عليه سورة الفتح فقيل له : أَتَصْنَعُ هَذَا وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ . قَالَ (أَفَلاَ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورا) متفق عليه

﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ ﴾ قال بن عباسٍ وقتادة : بينه تبيينا . وقال الحسن : اقرأه قراءة بينة. وقال مجاهد : وَبَيِّنِ الْقُرْآنَ تَبْيِينًا ، بَعْضُهُ عَلَى أَثَرِ بَعْضٍ ، عَلَى تُؤَدَةٍ. وعنه : ترسل فيه ترسيلا . وقال سعيد بن جبير : فسره تفسيرا. وعن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت عن قراءة النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها. وعن أم سلمة رضي الله عنها أنها سُئلت عن قراءة النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت : كان يقطع قراءته آية آية . وعن أنسٍ رضي الله عنه أنه سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : كانت مداً ، ثم قرأ ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ يمد بسم الله ، ويمد الرحمن ، ويمد الرحيم . عن عبد الله بن عمرو، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (يقال لصاحب القرآن : اقرأ وارْقَ ورَتِّل كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها) وقال بن مسعودٍ رضي الله عنه : لا تنثروه نثر الدقل ، ولا تهذّوه هذّ الشعر ، قفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب ، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة. قال السيوطي : وأخرج ابن أبي شيبة عَن طاووس قال : سئل رسول الله صلى الله عليه

وسلم : أي الناس أحسن قراءةً ؟ قال (الذي إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله) وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن قال : مر رجلٌ من أصحاب النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم على رجلٍ يقرأ آيةً ويبكي ويرددها فقال : ألم تسمعوا إلى قول الله ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ ﴾ هذا الترتيل .انتهى من الدر.

ويستحب تحسين الصوت مع الترتيل فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (ليس منا من لم يتغن بالقران) وقال (زينوا القران بأصواتكم) وقال (ما أذن الله لشيءٍ ما أذن لنبيٍ حسن الصوت يتغنى بالقران يجهر به) وقال لأبي موسى الأشعري (لو رأيتني وأنا استمع لقراءتك البارحة لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود) فقال أبو موسى (لو علمت أنك تستمع لقراءتي يا رسول الله لحبرته لك تحبيرا)

﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ قال قتادة : ثَقِيلٌ وَاللَّهِ فَرَائِضُهُ وَحُدُودُهُ. وعن الحسن : العمل به ثقيل . وعنه : ثقيل في الميزان يوم القيامة. قال السيوطي : وأخرج أحمد وعَبد بن حُمَيد وَابن جَرِير وَابن نصر والحاكم وصححه عن عائشة أن النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته وضعت جرانها فما تستطيع أن تتحول حتى يسرى عنه وتلت ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ وأخرج أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : سألت النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله هل تحس بالوحي فقال : اسمع صلاصل ثم اسكت عند ذلك فما من مرة يوحي إلي إلا ظننت أن نفسي تقبض .انتهى من الدر. وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : أُنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفخذه على فخذي فثقلت عليَّ حتى خفت أن ترض فخذي . رواه البخاري . وعن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف يأتيك الوحي؟ فقال (أحياناً يأتيني في مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليَّ فَيَفْصِمُ عني وقد وَعَيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول) قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي صلى الله عليه وسلم في اليوم الشديد البرد ، فَيَفْصِمُ عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا. رواه البخاري . قال بن كثير : واختار ابن جرير أنه ثقيلٌ من الوجهين معاً كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كما ثقل في الدنيا ثقل يوم القيامة في الموازين .انتهى. وهو هنا ثلاثة أوجه : الأول ثقيلٌ عند إنزاله على النبي صلى الله عليه وسلم . والثاني : ثقيلٌ العمل بفرائضه وحدوده . والثالث : ثقيلٌ في الميزان يوم القيامة . وإنما ثقل لعظمه وكبير فائدته حتى أثقل لصاحبه ميزان حسناته . وقال القرطبي : قال قتادة: ثقيل والله فرائضه وحدوده. مجاهد: حلاله وحرامه. الحسن: العمل به. أبو العالية: ثقيلاً بالوعد والوعيد والحلال والحرام. محمد بن كعب: ثقيلاً على المنافقين. وقيل: على الكفار لما فيه من الاحتجاج عليهم والبيان

لضلالتهم وسب آلهتهم ، والكشف عما حرفه أهل الكتاب. السدي: ثقيل بمعنى كريم ، مأخوذ من قولهم: فلان ثقيل علي ، أي يكرم علي . الفراء : ثَقِيلاً رزيناً ليس بالخفيف السفساف لأنه كلام ربنا. وقال الحسين بن الفضل : ثقيلاً لا يحمله إلا قلبٌ مؤيدٌ بالتوفيق ، ونفس مزينة بالتوحيد. وقال ابن زيد : هو والله ثقيل مبارك كما ثقل في الدنيا يثقل في الميزان يوم القيامة. وقيل: ثَقِيلاً أي ثابتا كثبوت الثقيل في محله ، ويكون معناه أنه ثابت الاعجاز ، لا يزول إعجازه أبدا. وقيل : هو القرآن نفسه ، كما جاء في الخبر : أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته وضعت جرانها – يعني صدرها– على الأرض فما تستطيع أن تتحرك حتى يسرى عنه... وقيل: القول في هذه السورة: هو قول لا إله إلا الله . انتهى.

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا ٦ ﴾ نشأ بلغة الحبشة أي قام قاله بن مسعودٍ وابن عباس يعني من الكلمات المعربة . والمراد قيام الليل ، قال بن عباسٍ : قيام الليل بلسان الحبشة إذا قام الرجل قالوا : نشأ. وقيل ﴿ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ ﴾ أي ساعات الليل وأوقاته لأن أوقاته تنشأ شيئاً فشيئاً أولاً فأولا ، والمعنى أن القيام وقراءة القران في أوقات الليل أشد تأثيراً في القلب وأثبت للحفظ والفهم . قال بن كثير : أشد مواطأة بين القلب واللسان ، وأجمع على التلاوة .انتهى. قال قتادة : أَثْبَتُ فِي الْخَيْرِ وَأَحْفَظُ فِي الْحِفْظِ. وقال مجاهد : مُوَاطَأَةً لِلْقَوْلِ ، وَفَرَاغًا لِلْقَلْبِ. وقال الضحاك : قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ بِاللَّيْلِ أَثْبَتُ مِنْهُ بِالنَّهَارِ ، وَأَشَدُّ مُوَاطَأَةً بِاللَّيْلِ مِنْهُ بِالنَّهَارِ. وقال بن زيد : طُمَأْنِينَةً أَفْرَغُ لَهُ قَلْباً وَذَلِكَ أَنَّهُ لاَ يَعْرِضُ لَهُ حَوَائِجُ وَلاَ شَيْءٌ .

﴿ وَأَقۡوَمُ قِيلٗا ٦ ﴾ عَنِ الأَعْمَشَ قَالَ : قَرَأَ أَنَسٌ ﴿ وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ (وَأَصْوَبُ قِيلاً). قِيلَ لَهُ : يَا أَبَا حَمْزَةَ إِنَّمَا هِيَ ﴿ وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾. قَالَ أَنَسٌ : أَقْوَمُ وَأَصْوَبُ وَأَهْيَأُ وَاحِدٌ. ذكره بن جرير . وعن بن عباسٍ : أَدْنَى مِنْ أَنْ تَفْقَهُوا الْقُرْآنَ. وقال مجاهد : وَأَثْبَتُ قِرَأَةً. وقال قتادة : أَحْفَظُ لِلْقِرَاءَةِ. وقال بن زيد : أَقْوَمُ قِرَاءَةً ، لِفَرَاغِهِ مِنَ الدُّنْيَا..

واختلف في وقت﴿ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ ﴾ فقيل هي الليل كله ، وهو قول عمر وبن عباسٍ وابن الزبير ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وابن أبي نجيح وأبو ميسرة وابن زيد والضحاك . وعن حَاتِمُ بْنُ أَبِي صَغِيرَةَ قَالَ : قُلْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ : أَلاَ تُحَدِّثُنِي أَيُّ اللَّيْلِ نَاشِئَةٌ ؟ قَالَ : عَلَى الثَّبْتِ سَقَطْتَ : سَأَلْتُ عَنْهَا ابْنَ عَبَّاسٍ فَزَعَمَ أَنَّ اللَّيْلَ كُلَّهُ نَاشِئَةٌ . وَسَأَلْتُ عَنْهَا ابْنَ الزُّبَيْرِ ، فَأَخْبَرَنِي مِثْلَ ذَلِكَ .ذكره الطبري. وقال البغوي : روي عن علي بن الحسين أنه كان يصلي بين المغرب والعشاء ، ويقول : هذه ناشئة الليل .انتهى.

وقيل المراد ما بعد صلاة العشاء وهو قول مجاهد وقتادة والحسن وأبو مجلز وأبو رجاء وسالم وأبو حازم ومحمد بن المنكدر .

وقال ابن كيسان : هي القيام من آخر الليل .

وعن بن عباسٍ وعكرمة : هي القيام من أول الليل ، قال بن عباسٍ : ناشئة الليل كانت صلاتهم أوّل الليل ﴿ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا ﴾ يقول : هو أجدر أن تُحْصُوا ما فرض الله عليكم من القيام ، وذلك أن الإنسان إذا نام لم يدر متى يستيقظ . رواه الطبري .

قال بن جرير : وَقَوْلُهُ ﴿ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا ﴾ اخْتَلَفَتْ قَرَأَةُ الأَمْصَارِ فِي قِرَاءَةِ ذَلِكَ ، فَقَرَأَتْهُ عَامَّةُ قَرَأَةِ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ وَالْكُوفَةِ ﴿ أَشَدُّ وَطْئًا ﴾ بِفَتْحِ الْوَاوِ وَسُكُونِ الطَّاءِ . وَقَرَأَ ذَلِكَ بَعْضُ قَرَأَةِ الْبَصْرَةِ وَمَكَّةَ وَالشَّامِ (وِطَاءً) بِكَسْرِ الْوَاوِ وَمَدِّ الأَلِفِ عَلَى أَنَّهُ مَصْدَرٌ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ : وَاطَأَ اللِّسَانُ الْقَلْبَ مُوَاطَأَةً وَوِطَاءً . وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا أَنَّهُمَا قِرَاءَتَانِ مَعْرُوفَتَانِ صَحِيحَتَا الْمَعْنَى ، فَبِأَيَّتِهِمَا قَرَأَ الْقَارِئُ فَمُصِيبٌ .انتهى

﴿ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ٧ ﴾ أي متسعاً من الوقت لقضاء حوائجك . قال بن عباس وقتادة والضحاك : فَرَاغًا طَوِيلاً . وعن قتادة : فَرَاغًا وَبقيَّةً وَمُتَقَلَّبًا. وقال مجاهد : مَتَاعًا طَوِيلاً. وقال بن زيد : لِحَوَائِجِكَ فَافْرُغْ لِدِينِكَ بِاللَّيْلِ . وقال الطبري : إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَعَةً لِقَضَاءِ حَوَائِجِكَ وَنَوْمِكَ . وَكَانَ يَحْيَى بْنُ يَعْمُرَ يَقْرَأُ ذَلِكَ بِالْخَاءِ (سَبْخًا طَوِيلاً) قَالَ : وَهُوَ النَّوْمُ. وَالسَّبْحُ وَالسَّبْخُ قَرِيبَا الْمَعْنَى .انتهى. وقال السدي: تطوعاً كثيرا .

﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨ ﴾ أي أكثر من ذكر الله بأسمائه الحسنى وادعه بها مخلصاً له الدعاء والعبادة . وأصل التبتل الانقطاع إلى الله والاشتغال بعبادته عن أمور الدنيا ومنه سميت مريم البتول لانقطاعها إلى الله ، ويمكن أن يراد به ترك الدنيا بالكلية والإقبال على العبادة ، ومنه قيل للراهب متبتل لانقطاعه عن الناس وانفراده بالعبادة ، ولكن ليس هذا هو المعنى لنهي النبي صلى الله عليه وسلم عن التبتل والرهبنة ، وإنما المراد الإخلاص لله والانقطاع عن التعلق بمن سواه من الإلهة والمخلوقين قال بن عباسٍ ومجاهد والحسن والضحاك وأبو يحي المكي : أخلص لله إخلاصاً . وقال مجاهد : أخلص له المسألة والدعاء إخلاصاً . وقال مقاتل وقتادة ومعمر : أخلص له الدعاء والعبادة . وقال بن زيد : تفرغ لعبادته . قال القرطبي : معنى الآية : انقطع عن الأوثان والأصنام وعن عبادة غير الله ، وكذلك قال مجاهد : معناه : أخلص له العبادة ، و لم يرد

التبتل ، فصار التبتل مأموراً به في القرآن ، منهياً عنه في السنة ، ومتعلق الامر غير متعلق النهي فلا يتناقضان وإنما بُعِثَ ليبين للناس ما نزل إليهم ، فالتبتل المأمور به : الانقطاع إلى الله بإخلاص العبادة كما قال تعالى ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ من (٥) سورة البينة والتبتل المنهي عنه : هو سلوك مسلك النصارى في ترك النكاح والترهب في الصوامع ، لكن عند فساد الزمان يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر ، يفر بدينه من الفتن .انتهى.

﴿ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩ ﴾ قال القرطبي : قرأ أهل الحرمين وابن محيصن ومجاهد وأبو عمرو وابن أبي إسحاق وحفص ﴿رَبُّ﴾ بالرفع على الابتداء ، والخبر لا إِلهَ إِلَّا هُوَ. وقيل : على إضمار هُوَ. الباقون (ربِّ) بالخفض على نعت الرب تعالى في قوله تعالى﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ﴾ (ربِّ المشرق) .انتهى. وقال بن الجوزي : قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحفص عن عاصم ﴿ رَبُّ ﴾ بالرفع . وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم بالكسر .انتهى.

وقد اختلف المفسرون في قوله تعالى ﴿ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ ﴾ فقال بعضهم المراد الجهة أي جهة المشرق وجهة المغرب ، وهو قول قتادة وعكرمة ، قال عكرمة : وجه الليل ووجه النهار . يعني جهتهما . واختاره البغوي والطاهر بن عاشور والراغب الأصفهاني .

وقيل : المراد الجنس أي جنس المشرق والمغرب ، وعليه فيشمل كل مشرقٍ ومغرب . وهو قول بن كثير والسعدي والزحيلي ، واختلف قول الشنقيطي فقال مرة : المراد الجنس . وقال في موضعٍ آخر : المراد الجهة وكذلك العثيمين فإنه قال : الإفراد للجنس الشامل للواحد والمتعدد أي مشرق كل شارق ومغرب كل غارب . وقال في موضعٍ آخر : أما قوله ﴿ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ ﴾ فباعتبار الناحية ، لأن النواحي أربع : مشرقٌ ومغربٌ وشمالٌ وجنوب .

قلت : يمكن الجمع بين القولين فإن الله جل وعلا هو رب جهة المشرق والمغرب ورب الجهات كلها ، وهو رب كل شارقٍ وغارب .

والرب هو المالك المتصرف في ملكه ، والله جل وعلا هو رب كل شيء ، وإنما خصَّ المشرق والمغرب لأنه ذكر في الآيات قبلها الليل والنهار ، فناسب أن يذكر بعده الشروق والغروب الذي يتكون منه الليل والنهار

أو لأن أوقات الصلوات تعرف بشروق الشمس وغروبها ، وقيل بل المراد ما أشرقت عليه الشمس وما غربت وهو الكون كله ، قال بن بحر : رب العالَمِ بما فيه لأنهم بين المشرق والمغرب . ذكره الماوردي . وقال الطبري : ربّ المشرق والمغرب وما بينهما من العالم .انتهى.

﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لا معبود بحقٍ إلا رب المشرق والمغرب وهو الله جل في علاه .

﴿ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ اعتمد عليه وفوض أمورك إليه .

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ من التكذيب والاستهزاء والأذى . ﴿ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ ﴾ قال الطبري : اهجرهم في ذات الله . وقال القرطبي : أي لا تتعرض لهم ، ولا تشتغل بمكافأتهم . وقال القاسمي : بالإعراض عن مكافأتهم بالمثل . وقال الطبراني : لا جزع فيه . وقال الألوسي : فالهجر الجميل هو الذي يقتصر صاحبه على حقيقة الهجر ، وهو ترك المخالطة فلا يقرنها بجفاءٍ آخر أو أذى ، ولـــمَّا كان الهجر ينشأ عن بغض المهجور ، أو كراهية أعماله ، كان مُعَرَضاً لأن يتعلق به أذىً من سبٍ أو ضربٍ أو نحو ذلك . فأمر الله رسوله بهجر المشركين هجراً جميلاً ، أي أن يهجرهم ولا يزيد على هجرهم سباً أو انتقاماً. انتهى. وقال الرازي : والهجر الجميل أن يجانبهم بقلبه وهواه ويخالفهم في الأفعال مع المداراة والإغضاء وترك المكافأة . ونظيره ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ ﴾من (٦٣) سورة النساء ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾من (١٩٩) سورة الأعراف ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا ﴾من (٢٩) سورة النجم قال المفسرون : هذه الآية إنما نزلت قبل آية القتال ثم نسخت بالأمر بالقتال. وقال آخرون : بل ذلك هو الأخذ بإذن اللّه فيما يكون أدعى إلى القبول فلا يرد النسخ في مثله وهذا أصح .انتهى. قلت : إنما شرع القتال لإدخال الناس في الدين عندما يعلموا أن لأهله قوة وقدرة ومكانة وأنهم منصورون من عند الله ، ولم يشرع للانتقام ، كيف وقد عفى النبي صلى الله عليه وسلم عن كفار قريش على كثرة ما آذوه ، فليست هذه الآية منسوخةً بآية السيف كما يقولون ، بل هي باقية ما بقيت الدعوة أن يقابل المستهزئون بالإعراض والهجر مع الاستمرار في الدعوة دون إشغال الوقت بالرد عليهم ومكافأتهم بالمثل كما قال تعالى ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ سورة القصص

﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ ﴾ هذا من باب التهديد للمكذبين أي اتركني أتكفل بعقابهم .﴿ أُوْلِي النَّعْمَةِ ﴾ أصحاب الترف والنعيم في الدنيا . ﴿ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ ﴾ أعطهم مهلةً من الوقت قليلة حتى يأتيهم العذاب بعدها .

﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ ﴾ إن عندنا لهم قيوداً ونارا شديدة التأجج . قال الحسن ﴿ أَنكَالًا ﴾ قيوداً من نار . وعند عبد الرزاق الصنعاني : قال أبو عمران الجوني : قُيُودًا ، وَاللَّهِ لاَ تُحَلُّ أَبَدًا .

﴿ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ ﴾ وطعاماً يصيبهم بالغصة إذا أكلوه فيثبت في حلوقهم فلا يدخل إلى أجوافهم ولا يخرج من أفواههم . ومن طعامهم الغسلين والزقوم والضريع وهي شجرة ذات شوك قال الزجاج كالعوسج . قال بن عباسٍ : شوكٌ يأخذ بالحلق فلا يدخل ولا يخرج . رواه الطبري .

﴿ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ ﴾ قال مجاهد : مؤلماً موجعا . رواه الطبري .

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾ أي أن العذاب المذكور يكون لهم يوم القيامة يوم ترجف الأرض والجبال فتضطرب اضطراباً شديداً فتتزلزل حتى يحطم بعضها بعضاً وتندك كما قال تعالى ﴿ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ ﴾ وتكون الجبال بعد الدكدكة كالرمل السائل . قال بن عباس ﴿ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾ الرمل السائل . وقال : اللين إذا مسسته تتابع . وقال مجاهد : ينهال . وقال الكلبي : الكثيب من الرمل . والمهيل الذي إذا أخذت منه شيئاً اتبعك آخره . قال بن كثير : أي: تصير ككثبان الرمل بعد ما كانت حجارةً صماء ، ثم إنها تنسف نسفاً فلا يبقى منها شيء .انتهى. يشير إلى قوله تعالى ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ ﴾سورة طه

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ ﴾ يا كفار قريش ، وقيل يأيها الناس وهو أصح لأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث إلى الناس كآفة . أو يأيها الثقلين إذا قلنا أن الجن لا يدخلون في لفظ الناس . ﴿ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ ﴾ رسولاً يشهد عليكم عندي يوم القيامة بإجابة من أجاب وامتناع من امتنع منكم كما قال تعالى ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾سورة النساء ثم أشار إلى أنه ليس بأول رسول بل تقدمه رسل فقال ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ وهو موسى عليه السلام ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ ﴾ فلم يطعه وكذَّب بما جاء به من الحق ﴿ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾ قال بن عباسٍ ومجاهد وقتادة ﴿ وَبِيلًا ﴾ شديداً

فأغرقه الله في الدنيا وأحرقه في القبر ويوم القيامة كما قال تعالى ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ سورة الأعراف وقال تعالى ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ سورة غافر

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ﴾ لا يمكن للكافر المكذب بالبعث أن يتقي خطر يوم البعث الذي يشيب الأطفال من أهواله وأفزاعه . قال قتادة : كَيْفَ تَتَّقُونَ يَوْمًا ، وَأَنْتُمْ قَدْ كَفَرْتُمْ بِهِ ، وَلاَ تُصَدِّقُونَ بِهِ . وقيل : فية تقديم وتأخير ، أي كيف تتقون يوماً يجعل الولدان شيباً إن كفرتم . ولا شك أن المقصود دعوتهم إلى الإيمان وترك الكفر والحذر من يوم القيامة الذي يشيب لهوله الولدان .

﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ ﴾ في ذلك اليوم تتشقق السماء ، ذلك وعد الله ووعده كائن لا محالة

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ﴾ إن هذه الآيات التي ذكرناها عن يوم القيامة وأهوالها موعظة وعبرة لمن أراد أن يتعظ بها ويعتبر . ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ﴾ طريقاً يوصله إلى الله وهو الإيمان والعمل الصالح .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ ﴾ الله مطلعٌ على قيامك لصلاة الليل حيث يعلم أنك تقوم أقل من ثلثي الليل وأحياناً تقوم نصف الليل وأحياناً تقوم ثلثه . أي أنه كان يقوم بما أمره الله به في بداية السورة في قوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ وقال قتادة : أدنى من ثلثي الليل ، وأدنى من نصفه ، وأدنى من ثلثه . وأدنى هنا بمعنى أقل وهو قول مقاتل ، وقال الطبري أقرب وهو معنى قول الضحاك فإنه قال ﴿ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾ كذلك يقومون ثلثاً ونصفاً وثلثين . ويمكن أن يكون لاختلاف القراءات مدخلٌ في ذلك ، فقد قال الطبري : اختلف القرأة في قراءة ذلك فقرأته عامة قرأة المدينة والبصرة بالخفض (وَنِصْفِهِ وَثُلُثِهِ) بمعنى : وأدنى من نصفه وثلثه ، إنكم لن تطيقوا العمل بما افترض عليكم من قيام الليل فقوموا أدنى من ثلثي الليل ومن نصفه وثلثه . وقرأ ذلك بعض قرأة مكة وعامة قرأة الكوفة بالنصب بمعنى : إنك تقوم أدنى من ثلثي الليل وتقوم نصفه وثلثه . والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان صحيحتا المعنى فبأيتهما قرأ القارئُ فمصيب . انتهى.

﴿ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ قال الطبري : بالساعات والأوقات . وقال القرطبي : أي يعلم مقادير الليل والنهار على حقائقها ، وأنتم تعلمون بالتحري والاجتهاد الذي يقع فيه الخطأ . ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ ﴾ قال سعيد بن جبير والحسن وسفيان : أي لن تطيقوه . ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ من تقصيركم في ضبط القيام الذي أمرتم به في أول السورة . وقيل معنى التوبة هنا الرجوع أي رجع عليكم بالتخفيف والتيسير . ﴿ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ أي اقرءوا ما تيسر من القران في قيام الليل ، قال النبي صلى الله عليه وسلم (من قام بعشر آياتٍ لم يكتب من الغافلين ، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين) وقد ذهب الحسن إلى أنه لابد أن يقرأ بمائة آية والحديث يدفعه ، وقال مالك والشافعي يجزيه قراءة الفاتحة في الفريضة والنافلة ، وقال أبو حنيفة : يجزيه أن يقرأ بثلاث آياتٍ من أي القرآن ولا يلزمه أن يقرأ الفاتحة سواءً في الفريضة أو النافلة . والصحيح أن الفاتحة تلزم وما زاد مستحب لقول النبي صلى الله عليه وسلم (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب) قال النووي : تجب القراءة في الصلاة المفروضة بإجماع العلماء ثم قال مالك والشافعي وأحمد رحمهم الله وجماهير العلماء : تتعين قراءة الفاتحة في كل ركعة . وقال أبو حنيفة رضي الله عنه وجماعة : لا تتعين الفاتحة أبداً ، ولا تجب القراءة في الركعتين الأُخريين . والصواب الأول . وقال أيضاً : أما قراءة الفاتحة في صلاة النافلة فلابد منها واختلف أصحابنا في تسميتها فقال القفال : تسمى واجبة . وقال صاحبه القاضي حسين : تسمى شرطاً . وقال غيرهما : تسمى ركناً . وهو أظهر . وقال أيضاً : وأجمعوا على استحباب قراءة السورة بعد الفاتحة في ركعتي الصبح والأُوليين من باقي الصلوات واختلفوا في استحبابها في الثالثة والرابعة . انتهى من آداب حملة القران .

وقيل معنى الآية : صلوا ما تيسر عليكم من الليل . والصلاة تسمى قرءاناً كما قال تعالى ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ من (٧٨) سورة الإسراء أي صلاة الفجر .

وقيل المعنى : قراءة القران في غير الصلاة ، قال القرطبي : وفي قدر ما تضمنه هذا الأمر من القراءة خمسة أقوال : أحدها جميع القرآن لأن الله تعالى يسره على عباده قاله الضحاك. الثاني ثلث القرآن حكاه جويبر. الثالث مائتا آية قاله السدي. الرابع مائة آية قاله ابن عباس. الخامس ثلاث آيات كأقصر سورة قاله أبو خالد الكناني .انتهى.

﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ﴾ لا يستطيعون القيام لمرضهم . ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ يسافرون في الأرض ابتغاء رزق الله ، ويشق عليهم القيام في السفر . ﴿ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ منشغلين بقتال أعداء الله عن القيام . ﴿ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ كما تقدم ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ قال قتادة : فريضتان واجبتان لا رخصة لأحدٍ فيهما . ﴿ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ قال قتادة : أنفقوا في سبيل الله من أموالكم . وقال بن زيد : النوافل سوى الزكاة . قال مقاتل ﴿ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ طيبةً به نفسه . ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ ﴾ من أعمالٍ صالحة . ﴿ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ يزيدها الله من عنده الحسنة بعشر أمثالها ، ويضاعف الله لمن يشاء . ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ أي اطلبوا منه المغفرة لتقصيركم في عبادته ، واستغفروه لذنوبكم ، إن الله يغفر لمن استغفر ويرحم من تاب .

وقد ذهب الحسن إلى فرضية قيام الليل بما تيسر ، وكان أحمد يقول عن الذي لا يوتر بالليل : إنه رجل سوء. وذهب القشيري إلى أن قيام الليل فرضٌ على النبي صلى الله عليه وسلم دون أمته فهو في حقهم نافلة . وذهب الشافعي إلى عدم وجوب قيام الليل وأنه نافلة في حق النبي صلى الله عليه وسلم وفي حق أمته وهو الصحيح لقوله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾سورة الإسراء والخطاب الموجه للنبي صلى الله عليه وسلم يكون له ولأمته ما لم يدل الدليل على التخصيص به كما في بداية السورة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ ﴾ فالخطاب موجهٌ للنبي صلى الله عليه وسلم وفرضية القيام كانت عليه وعلى أمته بالإجماع ثم نسخت بآخر السورة ، وكذلك في قوله تعالى ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾ سورة الإسراء فهذه أوقات الصلوات الخمس له ولأمته والأدلة على ذلك كثيرة .

دروس سورة المزمل

أولاً / أن الله جل وعلا فرض قيام الليل في أول الإسلام لتتعود النفوس على بذل المشقة في سبيل الله خاصةً في تلك الأيام الصعبة التي كان الإسلام فيها مستضعفاً فيحتاج إلى ممارسة المشاق والتعود عليها ، وهكذا في أزمنة ضعف المسلمين وتكالب الأعداء وانتشار الفتن ينبغي على الصالحين أن يقوموا الليل بمثل ما في أول السورة ليعودوا نفوسهم على بذل المشاق في سبيل الله لتتخلص النفوس من الهوى والضعف وتتجنب الفتن .

ثانياً / أن ترتيل القران وتجويده وتحسين الصوت به كل ذلك مستحب وهو مما يحمس على الاستمرار وبذل المزيد من القراءة والحفظ ، ويعين على التدبر والفهم .

ثالثاً / أن التكاليف الشرعية لاشك أنها شآقة وثقيلة على النفوس ، لكن النفوس الزكية تتعود عليها وتألفها ويكون من ديدنها ، فإذا قصَّرت في شيءٍ منها شعرت بالحزن والضيق لتقصيرها فتعود سريعاً ، وأما النفوس السيئة فتكون التكاليف عليها أثقل من الجبال كما قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾سورة النساء وقال تعالى ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾سورة التوبة

رابعاً / أن القيام وقراءة القران في الليل أفضل منه في النهار لأنه أبعد عن الرياء وأبعد عن مشاغل النفوس من طلب المعيشة ونحو ذلك فيجتمع عليه قلبه ولسانه وجوارحه فيكون أدعى لتدبر القران وفهمه وحفظه .

خامساً / أنه ينبغي تفويض الأمور إلى الله والاعتماد عليه وعدم الركون إلى النفس والناس فالله وحده هو القادر على كل شيء فالناس كلهم بل والمخلوقات كلها التي تشرق عليها الشارقات وتغرب كلها بيده

وتحت سلطانه وقهره ففوض أمورك إليه واعتمد تجده نعم العون ونعم الوكيل ، ولا يعني هذا بذل ترك الأسباب بل بذل الأسباب مطلوبة وفي الحديث (اعقلها وتوكل)

سادساً / أنه ينبغي الصبر على أذى السفهاء والحمقى وهجرهم والإعراض عنهم ، لئلا يكون ذلك عائقاً عن المضي في الدعوة عند مجاراة السفهاء والحمقى وإشغال الوقت والعمر بالرد عليهم . قال أحدهم : لا تناقش السفهاء فيستدرجونك إلى مستواهم ثم يغلبونك بخبرتهم في النقاش السفيه . وقال الإمام الشافعي :

يخاطبني السفيه بكل قبحٍ فأكره أن أكون له مجيبا

يزيد سفاهةً فأزيد حلماً كعودٍ زاده الإحراق طيبا

وقال أيضاً :

إذا نطق السفيه فلا تجبه فخيرٌ من إجابته السكوت

فإن كلَّمته فرَّجت عنه وإن خليته كمداً يـــموت

سابعاً / أن ديننا الإسلامي دين رحمةٍ ويسر ، فالله جل وعلا قد جعل العمل مقروناً بالاستطاعة كما قال تعالى ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾من (١٦) سورة التغابن وقال تعالى ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾سورة البقرة وما خُيِّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن فيه إثما .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة المدثر

سورة المدثر مكية وآياتها (٥٦)

عن يحي بن أبي كثير قال : سألت أبا سلمة أي القران أُنزل قبل ؟ قال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ فقلت : أو ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ فقال: سألت جابر بن عبد الله أي القران أنزل قبل قال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ فقلت : أو ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ قال جابر : أحدثكم ما حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (جاورت بحراء شهراً فلمَّا قضيت جواري نزلت فاستبطنت بطن الوادي فنوديت فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي فلم أر أحداً ثم نوديت فنظرت فلم أر أحداً ثم نوديت فرفعت رأسي فإذا هو على العرش في الهواء – يعني جبريل عليه السلام – فأخذتني رجفةٌ شديدة فأتيت خديجة فقلت دثروني . فدثروني فصبوا عليَّ ماءً فأنزل الله عز وجل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ متفق عليه

وعن بن شهاب قال سمعت أبا سلمة قال أخبرني جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول (ثُمَّ فتر عني الوحي فترةً فبينا أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري قِبَلَ السماء فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعدٌ على كرسي بين السماء والأرض فجئثت منه حتى هويت إلى الأرض فجئت أهلي فقلت زملوني زملوني فأنزل الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ متفقٌ عليه .

وهذا يدل على أن رؤية النبي صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام على هذه الصفة كان بعد قصة مجيئه له في غار حراء . وهذا يدل على أن سورة المدثر كانت بعد نزول سورة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾. وأنه كان بينهما زمنٌ فتر فيه الوحي ، وتتابع الوحي بعد سورة المدثر ، ولذلك قال من قال من العلماء أنها أول ما نزل باعتبار تتابع الوحي بعدها ، و﴿ٱقۡرَأۡ﴾ أول ما نزل باعتبار أول الوحي المطلق . قال النووي في شرح مسلم على حديث عائشة رضي الله عنها في قصة نزول الوحي أول مرةٍ في غار حراء وقول النبي صلى الله عليه وسلم (ثم أرسلني فقال ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾) الآيات الخمس من سورة العلق . قال النووي : هذا دليل صريح في أن أول ما نزل من القران ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ وهذا هو الصواب الذي عليه الجماهير من السلف والخلف . وقال أيضاً : قوله إن أول ما نزل قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ ضَعِيف بل باطل ، والصواب أن أول ما نزل

على الإطلاق ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ﴾ كما صرَّح به في حديث عائشة رضي الله عنها ، وأما ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ﴾ فكان نزولها بعد فترة الوحي كما صرَّح به في رواية الزهري عن أبي سلمة عن جابر ، والدلالة صريحة فيه في مواضع منها قوله (وهو يحدث عن فترة الوحي) إلى أن قال : فأنزل الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ﴾ ومنها قوله صلى الله عليه وسلم (فإذا الملك الذي جاءني بحراء) ثم قال فأنزل الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ﴾ ومنها قوله (ثم تتابع الوحي) يعني بعد فترته . فالصواب أن أول ما نزل ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ وأن أول ما نزل بعد فترة الوحي ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ﴾ وَأَمَّا قول من قال من المفسرين : أول ما نزل الفاتحة فبطلانه أظهر من أن يذكر . انتهى .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ ﴾ المتلفف بثيابه المتغطي بها ، قيل لأجل النوم . قال إبراهيم النخعي : كان متدثراً في قطيفة . وقال بن عباس : يأيها النائم . وقيل المعنى : غشِّيت هذا الأمر وهو البعث والرسالة . قال عكرمة : دثِّرتَ هذا الأمر فقم به .

﴿ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ ﴾ أي خوِّف الناس عذاب الله . قال قتادة : أي أنذر الناس عذاب الله ووقائعه في الأمم وشدة نقمته . وقال بن جرير : قُمْ مِنْ نَوْمِكَ فَأَنْذِرْ عَذَابَ اللَّهِ قَوْمَكَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ، وَعَبَدُوا غَيْرَهُ .انتهى.

﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ ﴾ أي عظمه بإفراده بالعبادة وترك الشرك ، والإكثار من ذكره وشكره . قال الطبري : وَرَبَّكَ يَا مُحَمَّدُ فَعَظِّمْ بِعِبَادَتِهِ ، وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فِي حَاجَاتِكَ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الآلِهَةِ وَالأَنْدَادِ .انتهى

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ ﴾ أي نفسك طهرها من الذنوب والآثام ، وهو قول بن عباسٍ وعكرمة وعطاء وعامر والضحاك وقتادة وإبراهيم ، والعرب تقول لمن يتجنب الآثام : إنه لمطهر الثياب . ولمن يركبها : إنه لدنس الثياب . قال غيلان بن سلمة الثقفي : وَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ لاَ ثَوْبَ فَاجِرٍ ... لَبِسْتُ وَلاَ مِنْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ

وعن بن عباس : لا تلبس ثيابك من مكسبٍ غير طيب .

وعن مجاهد وأبي رزين : عملك فأصلح .

وعن محمد بن سيرين وعبد الرحمن بن زيد : اغسلها بالماء . قال بن زيد : كان المشركون لا يتطهرون فأمره أن يتطهر ويطهر ثيابه .

قال القرطبي : فيه ثمانية أقوال : أحدهما أن المراد بالثياب العمل. الثاني القلب. الثالث النفس. الرابع الجسم. الخامس الأهل. السادس الخلق. السابع الدين. الثامن الثياب الملبوسات على الظاهر. ثم ذكر أن الأول قول مجاهد وبن زيد وأبو رزين والسدي ومعناه : عملك فطهر . والثاني قلبك فطهر وهو قول بن عباس وسعيد بن جبير وقتادة ولهم فيه وجهان الأول تطهير القلب من الذنوب والثاني من الغدر . والثالث نفسك فطهر من الذنوب وهو قول بن عباس . والرابع جسمك فطهر من الذنوب . والخامس أهلك فطهر من الذنوب بالوعظ والتأديب وذكر عن الماوردي وجهان: أحدهما نساءك فطهر باختيار المؤمنات العفائف. الثاني الاستمتاع بهن في القبل دون الدبر ، في الطهر لا في الحيض. قال حكاه ابن بحر. والسادس خلقك فحسن وهو قول الحسن والقرظي . والسابع ودينك فطهر وهو قول الإمام مالك وفي الصحيحين (ورأيت الناس وعليهم ثياب ، منها ما يبلغ الثدي ، ومنها ما دون ذلك ، ورأيت عمر بن الخطاب وعليه إزار يجره) قالوا : يا رسول الله فما أولت ذلك؟ قال: الدين). قال سفيان بن عيينة : لا تلبس ثيابك على كذب ولا جور ولا غدر ولا إثم ، قاله عكرمة . قلت : فكأن معنى طهارة الدين أي من هذه الأمور . والثامن ملبوساتك فطهر وذكر فيها أربعة أوجه الأول وثيابك فأنق . والثاني وثيابك فشمِّر وقصِّر لأنه أبعد أن تصيبها النجاسة وهو قول الزجاج وطاوس . والثالث وثيابك فطهر من النجاسة بالماء وهو قول محمد بن سيرين وبن زيد والفقهاء . والرابع لا تكن ثيابك من مكسبٍ حرام وهو قول بن عباس . ثم ذكر قول بن العربي : ليس بممتنعٍ أن تحمل الآية على عموم المراد فيها بالحقيقة والمجاز .انتهى.

﴿ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ ﴾ قال أبو سلمة : الرجز الأوثان . روياه في الصحيحين . ورواه الطبري عن بن عباسٍ ومجاهد وعكرمة وقتادة والزهري وابن زيد . قال بن زيد : آلهتهم التي كانوا يعبدون أمره أن يهجرها فلا يأتيها ولا يقربها . وقال قتادة : إساف ونائلة وهما صنمان كانا عند البيت يمسح وجوههما من أتى عليهما فأمر الله نبيه أن يتجنبهما ويعتزلهما . انتهى.

وقال البخاري : يقال الرجز والرجس العذاب .انتهى. وقال بن عباسٍ وإبراهيم النخعي ﴿ وَٱلرُّجۡزَ ﴾ الإثم . وقال الضحاك : اهجر المعصية .

قال الطبري : اختلفت القرأة في قراءة ذلك فقرأه بعض قرأة المدينة وعامة قرأة الكوفة (والرِّجز) بكسر الراء وقرأه بعض المكيين والمدنيين ﴿ وَٱلرُّجۡزَ ﴾ بضم الراء ، فمن ضم الراء وجهه إلى الأوثان وقال معنى الكلام : والأوثان فاهجر عبادتها واترك خدمتها . ومن كسر الراء وجهه إلى العذاب وقال معناه : والعذاب فاهجر

أي ما أوجب لك العذاب من الأعمال فاهجر . والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان معروفتان فبأيتهما قرأ القارئُ فمصيب . انتهى. وقال القرطبي : قراءة العامة (الرِّجز) بكسر الراء. وقرأ الحسن وعكرمة ومجاهد وابن محيصن وحفص عن عاصم ﴿ وَٱلرُّجۡزَ ﴾ بضم الراء وهما لغتان مثل الذكر والذكر. وقال أبو العالية والربيع والكسائي: الرجز بالضم: الصنم، وبالكسر: النجاسة والمعصية. وقال الكسائي أيضا: بالضم: الوثن، وبالكسر: العذاب .انتهى.

قال البغا : الرجز في اللغة الذنب والإثم والعذاب ، والمراد به هنا الأوثان وسميت رجزاً لأنها سببه ، والهجر الترك ، والمعنى بالغ واستمر في تركك للأوثان .انتهى.

﴿ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ ﴾ أي لاَ تُعْطِ شيئاً لتأخذ أَكْثَرَ مِنْهُ وهو قول بن عباسٍ ومجاهد وعكرمة وإبراهيم والضحاك وقتادة وطاووس وضَمْرَةَ بْنِ حَبِيبٍ وَأَبِي الأَحْوَصِ ورجحه القرطبي .

وقال الحسن : لاَ تَمْنُنْ عَمَلَكَ تَسْتَكْثِرُهُ عَلَى رَبِّكَ. وقال الربيع بن أنس : لاَ يَكْثُرُ عَمَلُكَ فِي عَيْنِكَ ، فَإِنَّهُ فِيمَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَأَعْطَاكَ قَلِيلٌ . ورجح هذا القول الطبري .

وقال مجاهد : لاَ تَضْعُفْ أَنْ تَسْتَكْثِرَ مِنَ الْخَيْرِ ، قَالَ : تَمْنُنْ فِي كَلاَمِ الْعَرَبِ : تَضْعُفُ. مِنْ قَوْلِهِمْ : حَبَلٌ مَنِينٌ : إِذَا كَانَ ضَعِيفًا .

وقال بن زيد : لاَ تَمْنُنْ بِالنُّبُوَّةِ وَالْقُرْآنِ الَّذِي أَرْسَلْنَاكَ بِهِ تَسْتَكْثِرُهُمْ بِهِ ، تَأْخُذُ عَلَيْهِ عِوَضًا مِنَ الدُّنْيَا.

ومعلومٌ أن الآية تحمل على كل المعاني التي تحتملها ما لم يكن بينها تضاد ولا تضاد هاهنا .

﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧ ﴾ أي اصبر على ما تلاقي في سبيل الله من أذى ، وهو قول مجاهد وبن زيد ، وقال إبراهيم : اصْبِرْ عَلَى عَطِيَّتِكَ لِلَّهِ . وقيل اصبر على الأوامر والنواهي ، وقيل اصبر على البلاء ، وقيل اصبر على فراق الأهل والأوطان . والراجح شمول ذلك .

﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ ﴾ أي نفخ في الصور ، وهو قول بن عباسٍ ومجاهد وعكرمة والحسن والضحاك وقتادة والربيع وبن زيد ، فالناقور من أسماء الصور ، لأنه ينقر فيه الناقر أي يصوت فيه المصوت أي ينفخ فيه النافخ فالنقر في كلام العرب التصويت والمراد به هنا النفخ أي صوت النافخ وهو إسرافيل عليه السلام ، والناقور هو الصور أي القرن الذي يُنْفَخُ فيه .

﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ ﴾ قال بن عباسٍ وقتادة : شديد . والمعنى : فإذا نفخ في الصور وقامت القيامة فحينئذٍ يكون ذلك اليوم يومٌ شديدٌ فيه كربٌ ومشقة قال النبي صلى الله عليه وسلم (كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر أن ينفخ فينفخ ! قال المسلمون فكيف نقول يا رسول الله ؟ قال قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا) وعن بهز بن حكيم قال : أمَّنا زرارة بن أوفى رضي الله عنه في مسجد بني قشير فقرأ المدثر فلمَّا بلغ ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴾ خر ميتاً . رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد وحسنه الألباني موقوفاً في صحيح الترغيب والترهيب .

ثم هون على المؤمنين وذكر على من تكون تلك الشدة والعسر فقال ﴿ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ﴾ أي غير هينٍ على الكافرين .

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ هذه الآية وما بعدها إلى قوله تعالى ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ ﴾ أجمع المفسرون فيما اطلعت عليه من كتبهم أنها نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي ، قال السيوطي : أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل من طريق عكرمة عن ابن عباسٍ أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النَّبيّ صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن فكأنه رقَّ له فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال : يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوه لك فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قبله ، قال : قد علمت قريش أني من أكثرهم مالاً ، قال : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكرٌ أو أنك كارهٌ له . قال : وماذا أقول فو الله ما فيكم رجلٌ أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيده مني ولا بشاعر الجن والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله الذي يقول لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمرٌ أعلاه ، مغدقٌ أسفله ، وإنه ليعلوا وما يعلى ، وإنه ليحطم ما تحته ، قال : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه ، قال : فدعني حتى أفكر ، ففكر ، فلما فكر قال : هذا سحرٌ يؤثر يأثره عن غيره فنزلت ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ وأخرجه ابن جرير وأبو نعيم في الحلية وعبد الرزاق وَابن المنذر عن عكرمة مرسلاً .انتهى من الدر المنثور. وقال البغوي وغيره من المفسرين : لما أُنْزِلَ على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾ سورة غافر قام النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد والوليد بن المغيرة قريبٌ منه يسمع قراءته ، فلما فطن النبي صلى الله عليه وسلم لاستماعه لقراءته أعاد قراءة الآية ، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه بني مخزوم فقال : لقد سمعت من محمد آنفًا كلامًا ما هو من كلام

الإنس ولا من كلام الجن ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يُعلى ، ثم انصرف إلى منزله فقالت قريش: سحره محمد ، صبأ والله الوليد ، والله لتصبون قريش كلهم ، وكان يقال للوليد: ريحانة قريش . فقال لهم أبو جهل: أنا أكفيكموه ، فانطلق فقعد إلى جنب الوليد حزينًا ، فقال له الوليد : مالي أراك حزينًا يا ابن أخي؟ قال : وما يمنعني أن لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك النفقة يعينونك على كبر سنك ويزعمون أنك زيَّنت كلام محمد وتدخل على ابن أبي كبشة وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهم ، فغضب الوليد فقال: ألم تعلم قريش أني من أكثرهم مالاً وولدًا ، وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام فيكون لهم فضلٌ من الطعام؟ ثم قام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه ، فقال لهم : تزعمون أن محمدًا مجنون فهل رأيتموه يخنق قط؟ قالوا : اللهم لا . قال: تزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه قط تكهن؟ قالوا : اللهم لا . قال: تزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه ينطق بشعر قط؟ قالوا : اللهم لا . قال: تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئًا من الكذب؟ قالوا: لا . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى الأمين قبل النبوة من صدقه فقالت قريش للوليد: فما هو؟ فتفكر في نفسه ثم نظر ثم عبس فقال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله ومواليه وولده؟ فهو ساحر وما يقوله سحر يؤثر .انتهى وذُكِرَ عن مجاهد وغيره أن ذلك كان يوم دار الندوة ، يعني حين اجتمعت قريش قبل موسم الحج وتشاوروا في أمر النبي صلى الله عليه وسلم وأنهم لابد أن يتفقوا فيه على قولٍ واحد قبل مقدم وفود الحج وكان قبل ذلك متفرقين فيه منهم من يقول هو شاعر ومنهم من يقول كاهن ومنهم من يقول ساحر ومنهم من يقول كذاب ومنهم من يقول غير ذلك ففكر الوليد وقدَّر وعبس وبسر ثم قال قولته اللعينة هو سحرٌ يؤثر .

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ صيغة تهديد أي اتركني أنا أتعامل مع هذا الذي خلقته وحيداً لا مال له ولا ولد ، ثم أنعمت عليه . وهو قول مجاهد . وقيل وحيد ترجع إلى الله أي ذرني وحدي معه فأنا أنتقم منه وقيل ذرني ومن انفردت بخلقه ، ولا شك أن الأول أولى وأنه يعود على الوليد لأنه قال بعد ذلك ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ ﴾ أي بعد أن كان وحيداً لا أولاد له ولا أموال رزقته وجعلت له أموالاً وأولاداً . وقوله ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ ﴾قال بن عباسٍ وسعيد بن جبير ومجاهد : كان له من المال ألف دينار . وقال سفيان أربعة الآف دينار . وعنه : ألف ألف . وقال النعمان بن سالم : أرض . وقال عمر وعطاء : غلة شهرٍ بشهر . وقال مقاتل : كان له بستانٌ بالطائف لا ينقطع خيره صيفاً ولا شتاءً . قال :

فالمدود الذي لا ينقطع كقوله تعالى ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ سورة الواقعة يعني لا ينقطع .انتهى. وقال القشيري : الأظهر أنه إشارة إلى ما لا ينقطع رزقه بل يتوالى كالزرع والضرع والتجارة.

﴿ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ ﴾ أي غير غائبين عنه . قال مجاهد : كان له من الولد عشرة . وقال الضحاك والسدي : اثني عشر . وقال سعيد بن جبير وأبو مالك : ثلاثة عشر . وهذا من أكبر النعم على العبد أن يكون أولاده عنده يخدمونه ويرعونه ولا يتفرقون في طلب المعايش ونحو ذلك فينشغل باله عليهم ويكون في همٍ حتى رجوعهم .

﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ﴾ قال مجاهد وسفيان ومقاتل : بسطت له من المال والولد بسطا .

﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ ﴾ ثم يأمل أن أزيده من المال والولد والخير . ﴿ كَلَّآ ﴾ أي لن أزيده بَعْدُ . قال مجاهد : فما زال يرى النقصان في ماله وولده حتى هلك . ثم ذكر سبب حرمانه فقال ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ ﴾ أي كان لبيناتنا وحججنا على الناس من الكتب والرسل عنيدا . قال بن عباسٍ : جحودا . وقال قتادة : كفوراً بآيات الله جحوداً بها . وقال مجاهد : معانداً للحق مجانبا . وعن أبي مالك وسفيان : مشاقاً . وهو أقرب فإنه لم يكتف بالتكذيب والجحود حتى سارع إلى محاربة الدين وانتقاص الرسول صلى الله عليه وسلم.

﴿ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ ﴾ سأكلفه مشقةً من العذاب لا راحة له منه . قال مجاهد وقتادة : مشقةً من العذاب . وقال قتادة : عذاباً لا راحة فيه . وقال بن زيد : تعباً من العذاب . وقيل هو جبلٌ من نار يكلف الكفار صعوده . وهو مرويٌ عن بن عباسٍ والحسن والضحاك ومقاتل وروي عن أبي سعيد مرفوعاً لكنه ضعيف .

﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ ﴾ أي فكَّر في أمر النبي صلى الله عليه وسلم وفي القرآن ﴿ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ ﴾ أي هيأ ما يقوله فيهما في نفسه ، والعرب تقول: قدرت الشيء إذا هيأته . ذكره القرطبي . وقال السعدي : قدَّر ما فكر فيه ، ليقول قولاً يبطل به القرآن . ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ﴾ فلعن كيف قدَّر هذا التقدير ، إذ قدَّر تقديراً باطلاً وهو يعلم أنه باطل . ﴿ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ﴾ كرر اللعن عليه لبيان قبح ما صنع . ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ﴾ أعاد التفكير وتروى في الأمر قبل أن ينطق بما قدَّره وهيأه في نفسه من القول الباطل . ﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ﴾ قطَّب جبينه وكلح بوجهه . قال قتادة : قبض ما بين عينيه وكلح . وقال مقاتل : كلح وتغير لون وجهه . وقال القرطبي : ﴿ عَبَسَ ﴾ قطَّب ﴿ وَبَسَرَ ﴾ أي كلح وجهه وتغير لونه ، قاله قتادة والسدي . قال : والعرب تقول : وجهٌ

باسر بيِّن البسور: إذا تغير واسود .انتهى. وقال أبو إسحاق : بَسَرَ أي نظر بكراهةٍ شديدة . وقد فسروا البسور بالكلح في هذه الآية وفي قوله تعالى ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ وفسروا الكلح في قوله تعالى ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾سورة المؤمنون بالعبوس . قال القرطبي : قال ابن عباس: عابسون. وقال أهل اللغة : الكلوح تكشرٌ في عبوس. والكالح: الذي قد تشمَّرت شفتاه وبدت أسنانه .انتهى. وقال بن مسعود: أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الرَّأْسِ الْمَشِيطِ بِالنَّارِ قَدْ قُلِّصَتْ شَفَتَاهُ وَبَدَتْ أَسْنَانُهُ ؟ وعن بن زيدٍ نحوه . وقال مجاهد ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ كاشرة . فكأنه جمع بين التقطيب بالجبين والتكشير بالأسنان كرهاً وعداءً للدين .

﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ ﴾ أدبر عن الإيمان واستكبر عن قول الحق وطاعة الرحمن .

﴿ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ ﴾ يأثره عن غيره يعني يأخذه عن غيره .

﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾ أنكر أن يكون هو قول الله جل وعلا استكباراً بعد أن كان قد استقر في نفسه أنه ليس من كلام البشر .

﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ ﴾ من أسماء جهنم ، قال القرطبي : إنما سميت سقر من سقرته الشمس إذا أذابته ولوحته وأحرقت جلدة وجهه ، ولا ينصرف للتعريف والتأنيث. قال ابن عباس: هي الطبق السادس من جهنم. .انتهى. ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ ﴾ وما أعلمك ما سقر ؟ وهذا للتعظيم والتخويف ، ثم بينها فقال ﴿ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ ﴾ قال الطبري ﴿ لَا تُبْقِي ﴾ من فيها حياً ﴿ وَلَا تَذَرُ ﴾ من فيها ميتاً ، ولكنها تحرقهم كلما جُدِّدَ خَلْقُهُم . وذكر بسنده عن مجاهد قال : لا تميت ولا تحيي . انتهى. وعن بن عباسٍ قال : إذا أخذت فيهم لم تبق منهم شيئاً ، وإذا بدلوا جلداً جديداً لم تذر أن تباردهم سبيل العذاب الأول. وقال السدي: لا تبقى لهم لحماً ولا تذر لهم عظماً .

﴿ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ ﴾ أي مغيرةً للبشر يقال لاحه السفر أي غيره . وقوله ﴿ لِلْبَشَرِ ﴾ قيل المراد الانس من بني آدم ، وقيل المراد جمع بِشْر وبشرة وهي جلدة الإنسان الظاهرة ، والمعنى أنها تحرق جلودهم وتغير ألوانهم وهو معنى قول بن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وأبو رزين وابن زيد والزجاج ، قال أبو رزين : تلفح وجوههم لفحةً تدعها أشد سواداً من الليل . وقال الزجاج : تحرِق الجِلْدَ حتّى تُسوِّدَه . وقال الشاعر :

وتعجب هند أن رأتني شاحباً ... تقول لشيءٍ لوحته السمائم

يعني أحرقته وغيرت لون بشرته السمائم جمع سموم وهي الريح الحارة .

وقال الأخفش معطشةً للبشر . ومنه قول الشاعر :

سقتني على لوحٍ من الماء شربة ... سقاها بها الله الرهام الغواديا.

أي سقتني على عطش .

وقال الحسن وابن كيسان : تلوح لهم جهنم حتى يروها عياناً . وعن بن عباسٍ : تلوح للبشر من مسيرة خمسمائة عام .

ولعل المعنى يرجع إلى تغير البشرة إما بالإحراق ، وإما بشدة العطش والعرب تقول : لاحه العطش والسفر والسقم والحزن والبرد يلوحه لوحاً أي غيره. وإما بشدة الخوف والفزع من رؤية النار ، فإن كل ذلك مما تتغير به البشرة ، والعلم عند الله تعالى . قال الطبري : مُغَيِّرَةً لِبَشَرِ أَهْلِهَا .انتهى.

ولا يمنع أن يكون قوله ﴿ لِّلْبَشَرِ ﴾ أي بني آدم ، فإنهم يتغيرون ويحترقون باحتراق جلودهم وأبشارهم . فإنما الأبشار والجلود جزء منهم .

﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾ خزنة جهنم ، قال الثعلبي : إذا كان مَلَكٌ واحد يقبض أرواح جميع الخلائق كان أحرى أن يكون تسعة عشر على عذاب بعض الخلائق . وروي أن أبا جهل لما سمع هذه الآية قال : يا معشر قريش أما يستطيع كل عشرةٍ منكم أن يغلبوا واحداً من خزنة النار وأنتم الدهم . أي الأشداء أو كثيري العدد . وقال أبو الأشدين وقيل أبو الأسود وهو الحارث بن كلدة الجمحي : أنا أكفيكم سبعة عشر واكفوني أنتم اثنين . وقال مرةً : خلوا بيني وبين خزنة جهنم أنا أكفيكم مؤنتهم . وقال : يا معشر قريش لا يهولنكم التسعة عشر أنا أدفع عنكم بمنكبي الأيمن عشرة وبمنكبي الأيسر التسعة . فقال الله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ﴾ بيَّن الله جل وعلا أن خزنة جهنم من الملائكة ، ومعلوم أن الملائكة ليست قوتهم مثل قوة البشر حتى يقارن الكفار قوتهم بقوة الملائكة . وقيل أراد الله جل وعلا أن يبين للكفار أن هؤلاء الخزنة ليسوا من جنس المعذبين من الجن والانس فيرقوا لهم ، ولكنهم ملائكة أقوياء أشداء لا تأخذهم

رحمة بالكفار كما قال تعالى ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾من (٦) سورة التحريم

﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ جعل الله عدتهم فتنةً أي امتحاناً وابتلاءً للكفار ففشلوا في الامتحان حين اعتقدوا أنهم قادرين على دفع هؤلاء الملائكة التسعة عشر وما هم بقادرين . وقيل ﴿ فِتْنَةً ﴾ ضلالةً وقيل عذاباً أي سبباً للضلالة وسبباً للعذاب . والفتنة تأتي بمعنى العذاب كقوله تعالى ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾سورة الذاريات أي عذابكم .

﴿ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ وذكر الله عدتهم ليستيقن الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى أن هذا القران حقٌ مصدقٌ لما معهم ، حيث يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل عدة خزنة النار تسعة عشر وهو قول بن عباسٍ ومجاهد والضحاك قتادة . وقال بن زيد : ليستيقنوا أنك رسول الله . وهو من اختلاف التنوع لا التضاد .

﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ﴾ أي تصديقاً حين يعلمون أن ما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم موجود في الكتب المتقدمة . ﴿ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي لا يدخلهم الشك أن القران حق من عند الله جل وعلا . وأن الرسول صلى الله عليه وسلم حق . ﴿ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ قال قتادة : نفاق . وقيل ليس بمكة نفاق والسورة مكية وإنما كان في بعضهم شكٌ وارتياب وبعضهم جازمين بالتكذيب فذكر الله حالتين لأهل مكة . وعلى الأول وليقول المنافقون الذين يظهرون في المستقبل ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ أي حديثاً وخبراً . قال الليث : المثل الحديث ، ومنه﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ من (١٥) سورة محمد أي حديثها والخبر عنها . يعني ماذا أراد الله بالحديث عن عدة خزنة جهنم ، وهم قليلٌ في نظرهم ، قال بن زيد : قالوا ﴿ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ حتى يخوّفنا بهؤلاء التسعة عشر . ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ أي حدَّث الله بذلك فتنةً لمن كتب عليهم الضلالة وهم الكفار والمنافقون ، وهدايةً لمن كتب لهم الهداية وهم المؤمنون . ويمكن أن يكون قوله ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل هذه الأحاديث يحدث الله بها لتكون ضلالةً لأهل الزيغ ، وهدايةً لأهل التقى . قال الطبري : كما أضل الله هؤلاء المنافقين والمشركين القائلين في خبر الله عن عدّة خزنة جهنم أيّ شيء أراد الله بهذا الخبر من المثل حتى يخوّفنا بذكر عدتهم ، وهدى به المؤمنون ، فازدادوا بتصديقهم إلى

إيمانهم إيماناً ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ ﴾ مِنْ خَلْقِهِ فيخذله عن إصابة الحقّ . ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ منهم فيوفقه لإصابة الصواب .انتهى.

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ قال قتادة : من كثرتهم . والمراد الملائكة قال النبي صلى الله عليه وسلم (أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته لله تعالى ساجداً) رواه أحمد والترمذي وبن ماجة والحاكم وحسنه الألباني . ويمكن أن يكون عاماً لكل جنود الله فلا يعلم أعدادهم وأشكالهم وأعمالهم إلا الله ، حتى الميكروبات والجراثيم التي لا ترى بالعين المجردة وتفتك بالأجساد هي من جنود الله ، والرياح والأعاصير والسباع والهوام وغير ذلك مما نعلمه أو لا نعلمه كله من جنود الله ، ولا يعلم عددهم إلا الله جل وعلا .

﴿ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ ﴾ قال مجاهد وقتادة : النار . وقيل عدة خزنة جهنم ، وقيل الآيات والحجج . وكل ذلك فيه موعظة وتذكير للبشر .

﴿ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ ﴾ أي ليس الأمر كما يقول من زعم أنه يستطيع مقاومة خزنة جهنم ثم أقسم الله جل وعلا على ذلك بالقمر ، ولعله جل وعلا يشير إلى وضوح أنهم لا يستطيعون مقاومة خزنة جهنم كوضوح القمر .

وقيل ﴿ كَلَّا ﴾ أي حقاً فهي توطئة للقسم وعليه تكون مبتدأ كلامٍ جديد ، ثم أقسم الله جل وعلا بالقمر ولله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته ، وقسمه بها تشريفٌ لها ، وليس للمخلوق أن يقسم إلا بالخالق .

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ ﴾ أي ولى وذهب . قال مقاتل : ذهبت ظلمته . وذكر السيوطي في الدر المنثور عن مجاهد قال : سألت ابن عباس عن قوله ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ فسكت عني حتى إذا كان من آخر الليل وسمع الأذان الأول ناداني : يا مجاهد هذا حين دبر الليل .انتهى. وقال القرطبي : قرأ نافع وحمزة وحفص﴿ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ الباقون (إذا) بألف و(دبر) بغير ألف وهما لغتان بمعنى ، يقال: دبر وأدبر . قال : وقرأ بن السميقع (إذا أدبر) بألفين كذلك في مصحف عبد الله وأُبيّ بألفين . قال : واختار أبو عبيد (إذا أدبر) قال: لأنها أكثر موافقة للحروف التي تليه ، ألا تراه يقول﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴾ فكيف يكون أحدهما إذ والآخر إذا وليس في القرآن قسمٌ تعقبه إذ وإنما يتعقبه إِذا .انتهى.

﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ ﴾ قال قتادة : أضاء .

﴿ إِنَّهَا ﴾ قال مجاهد وقتادة وأبو رزين : النار . وقيل الساعة .﴿ لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ ﴾ أي الدواهي العظام . وروي عن بن عباسٍ ﴿ إِنَّهَا ﴾ أي تكذيبهم بالنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴾ كبيرة من الكبائر . ذكره القرطبي .

﴿ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ ﴾ أي النار . قال الحسن : والله ما أنذر الخلائق بشيء أدهى منها. وقيل المراد الرسول صلى الله عليه وسلم يعني ما بعث إلا نذيراً للبشر وفي هذا ردٌ على تكذيبهم إياه ، وقيل يعود على أول السورة وهي قوله ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ ﴾ أي قم نذيراً للبشر وهو قول بن زيد وأبو علي الفارسي ومرويٌ عن بن عباس وأنكره الفراء وابن الأنباري لطول الفصل بينهما . وقيل يعود على الله جل وعلا ، قال أبو رزين : يقول أنا لكم منها نذير فاتقوها. وقيل يعود على القران : أي إن القرآن نذير للبشر لما تضمنه من الوعد والوعيد. .

﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ ﴾ قال بن عباس : من شاء اتبع طاعة الله ، ومن شاء تأخر عنها . وقال قتادة ﴿ أَن يَتَقَدَّمَ ﴾ في طاعة الله ﴿ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ في معصية الله . وقال مقاتل ﴿ أَن يَتَقَدَّمَ ﴾ إلى الخير ﴿ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ منه إلى المعصية ، هذا تهديد كقوله ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾من (٢٩) سورة الكهف وكقوله ﴿ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ﴾من (٤٠) سورة فصلت .انتهى.

﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ أي حبيسة عملها ، قال بن عباسٍ : مأخوذة بعملها. وقال مقاتل : كل كافرٍ مرتهنٌ بذنوبه في النار . ونحوه قال الضحاك وابن زيد . والرهن في اللغة الحبس والمنع . قال بن سيده : كل شيءٍ يحتبس به شيء فهو رَهينُهُ ومُرْتَهَنُهُ .انتهى. وقيل هو الثبوت والاستقرار ذكره في تاج العروس وقال : قال الراغب : ولَّما كانَ الرَّهْنُ يُتَصوَّرُ منه الحبْسُ اسْتُعِيرَ ذلك للمُحتَبسِ أَيَّ شيءٍ كانَ. قال : وكلُّ ما احْتُبِسَ به شيءٌ فرَهِينُه ومُرْتَهَنُه كما أنَّ الإِنسانَ رَهِينُ عَمَلِه ومنه قوْلُه تعالَى ﴿ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾من (٢١) سورة الطور أَي يُحْبَسُ بعَمَلِه . انتهى.

﴿ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ ﴾ فإنهم قد خلَّصوا أنفسهم من الحبس بأعمالهم الصالحة ، قال بن عباسٍ والحسن وابن كيسان هم المسلمون. وعن بن عباسٍ : هم الملائكة . وعن الضحاك : هم الذين سبقت لهم من الله الحسنى . وعن مقاتل : هم الذين أُعطوا كتبهم بإيمانهم . وعن بن جريج : هم أهل الجنة .

وعن عليٍ وابن عمر : هم أطفال المسلمين . ورجحه الفراء لأن الولدان لم يكتسبوا إثما يرتهنون به ، ولأنهم تساءلوا عن سبب دخول المجرمين النار كما في تتمة الآيات ، وهذا إنما يليق بالولدان لأنهم لم يعرفوا الذنوب.

﴿ فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ أي أصحاب اليمين في الجنات يتساءلون فيما بينهم فيخبر بعضهم بعضاً ﴿ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ الذين ارتكبوا الجرائم من الشرك فما دونه . ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ما الذي أدخلكم سقر وهي جهنم . فإن قيل كيف انتقلوا من التساؤل فيما بينهم إلى سؤال أهل النار ؟ فالجواب أن بعضهم يخبر بعضاً أنهم سألوا أهل النار ، ويمكن أنهم كانوا يتساءلون عن أشخاصٍ معينين ممن كانوا يعرفونهم في الدنيا وما علموا أنهم من المجرمين ، فلمَّا رأوهم في النار قالوا ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ ﴾

﴿ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ أي عوقبنا لتركنا الصلاة والزكاة ، وهذا يدل على أن الكفار يحاسبون على ترك الفرائض . وقيل : لم نكن مع المسلمين الذين يصلون و لم نكن نتصدق .

﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ أي كنا نتكلم بالباطل ورد الحق مع المتكلمين به ، قال قتادة : يقولون : كلما غوى غاوٍ غوينا معه . وقال ابن زيد: نخوض مع الخائضين في أمر محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو قولهم (كاهن ، مجنون ، شاعر ، ساحر) .

﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ ﴾ وكنا نكذب بيوم الجزاء والحساب وهو يوم القيامة .

﴿ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ ﴾ أتانا الأمر المتيقن الذي لابد منه لكل مخلوق وهو الموت . قال بن عباسٍ : الموت . كقوله تعالى ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ سورة الحجر أي الموت . وقيل يعني يوم القيامة يعني الذي كنا نكذب به أتانا فشاهدناه فتيقنا منه .

﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ قال مجاهد : لا تنالهم شفاعة من يشفع . وقال قتادة : تعلموا أن الله يُشَفِّعُ المؤمنين يوم القيامة بعضهم في بعض . قال : وذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال (إن في أمتي رجلاً لَيُدْخِلَنَ الله الجنة بشفاعته أكثر من بني تميم) وقال الحسن (أكثر من ربيعة ومضر) قال : وكنا نُحَدَّثُ أن الشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته . وهذه الآية من أدلة الشفاعة والرد على منكريها من الوعيدية .

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ سؤال توبيخي للمشركين لماذا يعرضون عن التذكرة ؟ قال قتادة : عن القران . يعني يعرضون عن الانتفاع بمواعظه وعبره ودروسه . وقال القرطبي : وفي تفسير مقاتل : الاعراض عن القرآن من وجهين : أحدهما الجحود والإنكار ، والوجه الآخر ترك العمل بما فيه . انتهى.

﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ ﴾ تمثيلٌ لنفورهم من سماع القران والانتفاع به كنفور حمر الوحش حين تفر من الأسد أو من الصيادين حين تسمع أصواتهم وترى نبالهم . قال عكرمة : وحشية فرت من رماتها . وقال البخاري في صحيحه ﴿ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾ نَافِرَةٌ مَذْعُورَة ﴿ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ قال بن عباسٍ ﴿ قَسْوَرَةٍ ﴾ رِكْزُ النَّاسِ وَأَصْوَاتُهُمْ . وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : الأَسَدُ . وَكُلُّ شَدِيدٍ قَسْوَرَةٌ .انتهى. وروى غيره عن بن عباسٍ قال ﴿ قَسْوَرَةٍ ﴾ هو بلسان العرب الأسد وبلسان الحبشة قسورة . وفي رواية : بلسان العرب: الأسد ، وبلسان الحبشة: الرماة ، وبلسان فارس: شير ، وبلسان النبط: أريا. ويبدوا أن هذه الروايات عن بن عباسٍ ضعيفة فقد روى الطبري بسنده عَنْ أَبِي حَمْزَةَ ، قَالَ : سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنِ الْقَسْوَرَةِ ، فَقَالَ : مَا أَعْلَمُهُ بِلُغَةِ أَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ الأَسَدُ ، هِيَ عُصَبُ الرِّجَالِ . وروى أن رجلاً قال لعكرمة وهو مولى بن عباس ومن أشهر تلاميذه : هو الأسد بلسان الحبشة ؟ فقال عكرمة : اسم الأسد بلسان الحبشة عنبسة .

لكنه ثابتٌ عن أبي هريرة أنه الأسد وكذا مرويٌ عن زيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن . قال ابن عرفة : من القسر بمعنى القهر أي إنه يقهر السباع . ذكره القرطبي .

وعن أبي موسى الأشعري وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وعطاء بن أبي رباح وعكرمة وقتادة : هم الرماة رجال القنص . وعن بن عباسٍ : حبال الصيادين . وعن قتادة : النبل .

قال القرطبي : وقال ابن الاعرابي : القسورة : أول الليل ، أي فرت من ظلمة الليل . وقاله عكرمة أيضاً . وقيل : هو أول سواد الليل ، ولا يقال لآخر سواد الليل قسورة . وقال زيد بن أسلم : من رجال أقوياء وكل شديدٍ عند العرب فهو قسورة وقسور . وقال لبيد بن ربيعة :

إذا ما هتفنا هتفةً في ندينا ... أتانا الرجال العائدون القساور .انتهى.

قلت : المعاني متداخلة ، فالعرب تشبه الرجال الأقوياء بالأسود فيقولون فلانٌ أسد يعني كالأسد في قوته وشدته وهؤلاء رجالٌ أسود ، ولعل قول من قال هم الرماة ورجال القنص يعود إلى هذا المعنى أي كالأسود.

والقسر في اللغة القهر يقال : قسره على الأمر قسراً أي أكرهه عليه وقهره ، ومنه سمي الأسد لأنه يقهر السباع كما قال بن عرفة ، ولعل الرجال الأقوياء يسمون قساور لأجل ذلك أي لأنهم يقهرون الرجال ويغلبونهم ، وهكذا الرماة ورجال القنص لأنهم يغلبون الصيد ويقهرون المقنوصات ، والليل يغلب الأرض بظلمته ويقهر المخلوقات النهارية فلا تستطيع طلب العيش فيه ، وهكذا حبال الصيادين ونبالهم تقهر الصيد .

والمقصود بيان شدة نفورهم من سماع القران وبغضهم له كقوله تعالى ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾سورة الزمر

قال الطبري : وَاخْتَلَفَ الْقَرَأَةُ فِي قِرَاءَةِ قَوْلِهِ ﴿ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾ فَقَرَأَ ذَلِكَ عَامَّةُ قَرَأَةِ الْمَدِينَةِ (مُسْتَنْفَرَةٌ) بِفَتْحِ الْفَاءِ بِمَعْنَى مَذْعُورةٌ قَدْ ذَعَرَتْهَا الْقَسْوَرَةُ ، وَقَرَأَتْهُ عَامَّةُ قَرَأَةِ الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ بِكَسْرِ الْفَاءِ ، وَهِيَ قِرَاءَةُ بَعْضِ الْمَكِّيِّينَ أَيْضًا بِمَعْنَى نَافِرَةٍ . وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا أَنَّهُمَا قِرَاءَتَانِ مَعْرُوفَتَانِ صَحِيحَتَا الْمَعْنَى فَبِأَيَّتِهِمَا قَرَأَ الْقَارِئُ فَمُصِيبٌ .انتهى

﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ ﴾ يريد كل واحدٍ من الكفار أن يؤتى بصحيفةٍ خاصة من رب العالمين يذكر فيها اسمه ودعوته إلى الإيمان ، قال مجاهد : إلى فلان بن فلان من رب العالمين يصبح عند رأس كل رجلٍ صحيفة موضوعة يقرؤها. وقال قتادة : قد قال قائلون من الناس لمحمد صلى الله عليه وسلم إن سرك أن نتابعك فائتنا بكتاب خاصة يأمرنا باتباعك .

﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ ﴾ ليس المانع لهم من الانتفاع بالقران عدم تصديقهم أنه من عند الله ولكن منعهم تكذيبهم باليوم الآخر والبعث والحساب والجزاء . قال قتادة : ذلك الذي أضحك بالقوم وأفسدهم أنهم كانوا لا يخافون الآخرة ولا يصدقون بها . وقال الحسن : هذا الذي فضحهم . قال الطبري : مَا الأَمْرُ كَمَا يَزْعُمُونَ مِنْ أَنَّهُمْ لَوْ أُوتُوا صُحُفًا مُنَشَّرَةً صَدَّقُوا ﴿ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴾ يَقُولُ : لَكِنَّهُمْ لاَ يَخَافُونَ عِقَابَ اللَّهِ ، وَلاَ يُصَدِّقُونَ بِالْبَعْثِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ ، فَذَلِكَ الَّذِي دَعَاهُمْ إِلَى الإِعْرَاضِ عَنْ تَذْكِرَةِ اللَّهِ وَهَوَّنَ عَلَيْهِمْ تَرْكَ الاِسْتِمَاعِ لَوْحَيْهِ وَتَنْزِيلِهِ .انتهى . وقال القرطبي : أي لا أعطيهم ما يتمنون لأنهم لا يخافون الآخرة اغتراراً بالدنيا .انتهى . والمعنى الأول أقرب .

﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ٥٤ ﴾ حقاً إن القران لعظة . قال قتادة ومقاتل : القران . ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ٥٥ ﴾ أي اتعظ به . ﴿ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ وما يتعظون وينتفعون بالقران إلا بمشيئة الله ، فمشيئتهم متوقفة على مشيئة الله ، فإن شاء رزقهم الانتفاع بالقران ومواعظه ، وإن شاء منعهم كما قال تعالى ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩ ﴾سورة التكوير قال القرطبي : وقراءة العامة ﴿ يَذۡكُرُونَ ﴾ بالياء واختاره أبو عبيد لقوله تعالى﴿ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ﴾ وقرأ نافع ويعقوب بالتاء واختاره أبو حاتم لأنه أعم ، واتفقوا على تخفيفها .انتهى.

﴿ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ٥٦ ﴾ أي أهلٌ لأن يتقى فلا يعصى ، وأهل لأن يستغفر فيغفر الذنوب كلها . قال قتادة : إن ربنا محقوق أن تتقى محارمه ، وهو أهل أن يغفر الذنوب الكثيرة لعباده . وعن أنس بن مالك عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال في هذه الآية (قال الله تبارك وتعالى أنا أهلٌ أن أتقى فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهاً فأنا أهلٌ أن أغفر له) رواه أحمد والترمذي والنسائي وبن ماجة وضعف إسناده الألباني وشعيب الأرنؤوط لكن يشهد له الحديث القدسي (ومن لقيني بقراب الأرض خطيئةً لا يشرك بي شيئاً لقيته بمثلها مغفرة) رواه مسلم.

من دروس سورة المدثر

أولاً / أنه يجوز مناداة الشخص بصفةٍ تلبس بها ، فإن الله جل وعلا نادى نبيه صلى الله عليه وسلم بصفة التدثر عندما كان متدثراً ، وهذا من الملاطفة ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يلاطف أصحابه ويداعبهم بمناداتهم بصفتهم كقوله لعليٍ وكان مغاضباً لفاطمة ونائماً في المسجد وعليه ترابٌ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم (قم يا أبا تراب) وكذلك قوله لحذيفة يوم الخندق (قم يا نومان) وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه لتحسس أخبار الكفار فرجع من آخر الليل ووجد النبي صلى الله عليه وسلم قائماً يصلي فجلس ثم نام من التعب فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم صلاته قال (قم يا نومان)

ثانياً / أن الدين يحث على طهارة الظاهر والباطن فإن قوله تعالى ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ ﴾ يشمل عند المفسرين طهارة الثياب والبدن من النجاسات ، وطهارة القلب من الغدر والخيانة ، وطهارة العمل والجسد من الذنوب والآثام .

ثالثاً / أنه ينبغي هجر المعاصي وأهلها والابتعاد عنهم وعدم مخالطتهم إلا للوعظ والإرشاد والنصح يستفاد هذا من قوله تعالى ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ ﴾

رابعاً / ينبغي أن يكون المؤمن زاهداً فيما في أيدي الناس ، راغباً فيما عند الله ، لا يبتغي بعمله لله مصلحةً دنيوية ، ولا يرتجي بالإحسان إلى الخلائق محمدةً منهم أو رد جميل ، لقوله تعالى ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ ﴾

خامساً / ينبغي أن يلتزم الداعية بالصبر ، فصبرٌ على طاعة الله ، وصبرٌ عن معصيته ، وصبرٌ على ما يلاقي في سبيل الله ، حتى تكون دعوته ناجحة ، ولذلك قيل للنبي صلى الله عليه وسلم في بداية دعوته في هذه السورة وهو من أوائل ما نزل من القران ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ ﴾

سادساً / ينبغي أن يشكر العبد نعم الله عليه فبالشكر تدوم النعم وبالكفر والجحود تزول ، ولذلك لما كفر الوليد بن المغيرة بنعم الله عليه ، عاقبه الله جل وعلا في الدنيا بنقصان النعم ثم زواله عنها ، وفي الآخرة بالعذاب الأليم .

سابعاً / أن الذي يعرض عن سماع المواعظ والخطب والمحاضرات فيه شبه من الكفرة الذين يفرون من سماع المواعظ كما تفر حمر الوحش من الأسود ، وذلك يدل على أن القلب ممتلئٌ مرضاً فليحذر الذين يكرهون سماع الوعظ من المسلمين أن يكون فيهم نفاق وأن يحال بينهم وبين قلوبهم كما كرهوا سماع ذكر الله فإن القلوب بين اصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء وقد قال تعالى ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ سورة الأنعام

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة القيامة

مكية وآياتها (٤٠)

﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ ﴾ أي أقسم بيوم القيامة ، فاللام هنا ليست للنفي بل للتنبيه والتأكيد كقولك : لا والله إن زيداً لقائم . والقسم للتعظيم ، وقيل : لا للنفي ، والمعنى : لا حاجة أن أقسم بيوم القيامة فهو أبين من أن أقسم عليه . لكن الأول أصح . وقرأ قنبل (لأقسم) وهي مروية عن الحسن والأعرج والبزي على أنها لام الابتداء ، لكن أنكر هذه القراءة الطبري ، وبعض العلماء يأخذ بها تفسيراً لا قرآناً فيقول لام الابتداء أشبعت ألفها فصارت (لا) وهذا تفعله العرب كثيراً في كلامها . وقيل اللام إنكارٌ لكلامٍ سابق وقع من المشركين وهو تكذيبٌ بيوم القيامة . ولكن هذا بعيدٌ أيضاً فأين نبحث عن هذا الكلام السابق وماذا نقول في الآية التي تليها . فلا شك أن القول الأول هو أقوى الأقوال .

﴿ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ ﴾ أي وأقسم بالنفس التي تلوم صاحبها على فعل المعصية ، وذلك أن النفوس كما قيل على ثلاثة أقسام : نفسٌ أمارةٌ بالسوء ، ونفسٌ لوامة ، ونفس مطمئنة ، فالأولى تأمر صاحبها بالسوء وهي نفس الكافر والمنافق والعاصي ، والثانية تلوم صاحبها على فعل المعصية وهي نفس المؤمن والثالثة لا تلتفت إلى المعاصي وهي نفوس الصالحين المخلصين . وقال الحسن : إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه : ما أردت بكلمتي ، ما أردت بأكلتي ، ما أردت بحديثي نفسي ، ولا أراه إلا يعاتبها ، وإن الفاجر يمضي قدماً لا يعاتب نفسه . وروى الطبري عن الحسن أن اللام هنا للنفي . أي لست أقسم بالنفس اللوامة. لكن هذا بعيد والأول أصح فإن نفس التائب عزيزة عند الله تعالى ولولا ذلك لم يرزقه التوبة . وروي عن قتادة أنها نفس الفاجر لكن ما ذكره الحسن أصح .

﴿ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ ﴾ للبعث والحساب . والمراد بالإنسان الإنسان الكافر .

﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ ﴾ أي أصابعه ، أي قادرين على إعادة خلق أصغر العظام وهي الأصابع للدلالة على قدرته على خلق ما هو أعظم وهو قول القتبي والزجاج ورجحه القرطبي وقال به السعدي والطاهر بن عاشور وغيرهما . وقيل : قادرين على أن نسويها على صفةٍ أخرى قال بن عباس ومجاهد

وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك : نجعلها كخف البعير وحافر الدابة . وربط بعض المعاصرين بين هذه الآية وبين ما ثبت مؤخراً من نظام البصمات ، وأن لكل إنسان بصمات أصابعٍ خاصة به ، وأن الله جل وعلا أراد أن يبين أنه قادرٌ على أن يرجع الاصبع ببصماته الخاصة ولذلك ذكر البنان دون سائر العظام . وأنكر آخرون هذا التفسير وأنه تفسيرٌ بالرأي والهوى وتلاعبٌ بمعاني النصوص فكلما ظهرت نظرية أو حتى حقيقة علمية جعلناها هي تفسير القران وكأن السلف لا يفقهون معاني النصوص .

﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ ﴾ قال بن عباسٍ وبن زيد : الكافر يكذب بما أمامه من البعث والحساب . وقيل المراد تسويف التوبة أي سوف أرتكب الفجور والمعاصي ثم أمامي مجالٌ للتوبة . قال بن عباسٍ : يعني الأمل يقول : أعمل ثم أتوب . وعنه : يعجل المعصية ويسوف التوبة . ونحوه قال مجاهد والحسن وعكرمة والسدي وسعيد بن جبير . والأول أولى لقوله تعالى بعد ذلك ﴿ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ ﴾ أي مستبعداً وقوعها فدل على أن المراد بالفجور التكذيب وهو يستعمل في لغة العرب بهذا المعنى وقد جاء أعرابيٌ إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وشكا إليه نقب إبله ودبرها – أي أمراضاً أصابتها – وسأله أن يحمله على غيرها فلم يحمله ، فقال الاعرابي :

أقسم بالله أبو حفصٍ عمر ... ما مسها من نقبٍ ولا دبر

فاغفر له اللهم إن كان فجر

يعني إن كان كذبني فيما ذكرت .

﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ ﴾ شخص البصر عند الموت وهو قول بن عباس ومجاهد وقتادة ، وقال الحسن يوم القيامة . يعني من شدة ما يرى من الأهوال . وقال أبو عمرو والزجاج : تحير فلم يطرف . وقال الفراء والخليل: فزع وبهت وتحير . قال الطبري : اخْتَلَفَتِ الْقُرَّاءُ فِي قِرَاءَةِ ذَلِكَ ، فَقَرَأَهُ أَبُو جَعْفَرٍ الْقَارِئُ وَنَافِعٌ وَابْنُ أَبِي إِسْحَاقَ (فَإِذَا بَرَقَ) بِفَتْحِ الرَّاءِ ، بِمَعْنَى شَخَصَ ، وَفُتِحَ عِنْدَ الْمَوْتِ ؛ وَقَرَأَ ذَلِكَ شَيْبَةُ وَأَبُو عَمْرٍو وَعَامَّةُ قُرَّاءِ الْكُوفَةِ ﴿ بَرِقَ ﴾ بِكَسْرِ الرَّاءِ ، بِمَعْنَى : فَزِعَ وَشُقَّ ... وَأَوْلَى الْقِرَاءَتَيْنِ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا بِالصَّوَابِ كَسْرُ الرَّاءِ ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ﴾ بِمَعْنَى : فَزِعَ فَشُقَّ وَفُتِحَ مِنْ هَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَفَزَعِ الْمَوْتِ .انتهى.

﴿ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ ﴾ ذهب ضوءه .

﴿ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ۝٩ ﴾ يكوران ويلقيان في نار جهنم تبكيتاً لعابديهما .

﴿ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ۝١٠ ﴾ يقول الإنسان الكافر حين يرى أهوال القيامة أين المهرب من عذاب الله .

﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ ﴾ أي لا ملجأ يلتجئ إليه الكافر لينجو من عذاب الله . قال بن مسعودٍ وابن عباسٍ وبن جبير وعطية وأبو قلابة : لا حصن . وعن بن عباسٍ : لا حصن ولا ملجأ ولا حرز ولا جبل . وعن مطرف ومجاهد والحسن والضحاك : لا جبل . قال الحسن : كان الرجل يكون في ماشيته فتأتيه الخيل بغتةً فيقول له صاحبه : الوزر الوزير أي أقصد الجبل فتحصن به . وقال قتادة : لا جبل ولا حرز ولا ملجأ ولا منجى .

﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ۝١٢ ﴾ مستقر الخلائق يوم القيامة عند الله تعالى ، فإليه يرجعون وإليه يصيرون ، فلا يمكن الفرار منه إلا إليه ، ولا التحصن منه إلا به . قال بن مسعود ﴿ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ﴾ المرجع والمصير . وقال قتادة والسدي : المنتهى . وقيل : أي هو الذي يقر الناس مقارَّهم فأهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار وهو قول بن زيد كما ذكره الطبري .

﴿ يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ ﴾ قال بن مسعود وبن عباس : بما قدم من عمله وأخر من سنةٍ عُمِلَ بها من بعده من خيرٍ أو شر . وعن بن عباسٍ وعكرمة : ما قدم من المعصية وأخر من الطاعة . وقال مجاهد وإبراهيم : أول عمله وآخره . وقال قتادة : ما قدم من طاعة الله وأخر من تضييع حق الله .

﴿ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ۝١٤ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥ ﴾ لا أحد أعلم من الإنسان بعد الله بعمل نفسه فهو يعلم ظاهره وخفيه ولو اعتذر عن سوء عمله فهو يعلم في قرارة نفسه أن هذا العذر باطل . قال بن عباس وسعيد بن جبير : شهيدٌ على نفسه وحده ولو اعتذر . وقال مجاهد : لو جادل عنها هو بصير عليها . وقال قتادة : شاهدٌ عليها بعملها ولو اعتذر يومئذٍ بباطل لم يقبل الله ذلك منه يوم القيامة .

﴿ لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ ﴾ عن سعيد بن جبير عن بن عباسٍ رضي الله عنهما قال :كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة ، وكان مما يحرك شفتيه ، فقال بن عباسٍ : فأنا أحركهما لكم كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحركهما ، وقال سعيد : أنا أحركهما كما رأيت بن عباسٍ يحركهما ، فحرك شفتيه ، فأنزل الله ﴿ لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ۝١٧ ﴾ قال : جمعه لك في صدرك وتقرأه ﴿ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ۝١٨ ﴾ قال : فاستمع له وأنصت ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩ ﴾ ثم إن

علينا أن تقرأه . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع فإذا انطلق جبريل قرأه النبي صلى الله عليه وسلم كما قرأه . متفق عليه واللفظ للبخاري ولفظ مسلم (كما أقرأه)

وقيل معنى ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ ﴾ أي نبين لك ما فيه من الأحكام ، فجمع له بين الحفظ والفهم المفصل .

﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ ﴾ أي تؤثرون الدنيا وتزهدون في الآخرة ، وهذه وإن كانت نزلت في الكفار كما قال المفسرون غير أنها تشمل كثيراً ممن ينتسب إلى الإسلام فتراه منشغلاً بالملذات العاجلة ناسياً العمل للآخرة يركب الحرام ويسعى في الإجرام ولا همَّ له إلا مصلحته الدنيوية دون خوف العقاب في الآخرة .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ وجوهٌ يومئذٍ فيها نضارة وهو الحسن والجمال وهي وجوه المؤمنين .

﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ تنظر إلى الله جل وعلا في جنات عدن . وهو قول جميع السلف من أهل التفسير وأهل اللغة إلا مجاهد فإنه شذَّ في تفسير هذه الآية فقال : تنتظر الثواب من ربها ، وأن الله لا يرى . وقد خطأوه ورأوا أنه قوله لا يستقيم في اللغة مع مخالفته للنصوص الشرعية المتكاثرة الدالة على رؤية المؤمنين لربهم في جنات النعيم ، فأما في اللغة فإن العرب إذا أرادوا به الانتظار قالوا : انتظرته ونظرته كما قال تعالى ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾سورة الأنعام وقال الشاعر :

فإنكما إن تنظراني ساعةً ... من الدهر تنفعني لدى أم جندب

أي تنتظراني .

وإذا أرادوا به التفكر والتدبر قالوا : نظرت في الأمر .

وأما إذا قرن بإلى فمعناه نظر العين لا يصح غير ذلك عندهم ومنه قول امرئ القيس :

نظرت إليها والنجوم كأنها ... مصابيح رهبان تشب لقفال

أي نظرت إليها بعيني في ليلةٍ كأن نجومها مصابيح أوقدها الرهبان ليراها القافلون من السفر .

وأما النصوص الشرعية فقد تواترت في إثبات رؤية المؤمنين لربهم في جنات النعيم ومنها قوله تعالى عن الكفار ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾سورة المطففين قال العلماء لَّما احتجب عن الكفار في حال السخط دلَّ على أن أولياؤه يرونه في حال الرضا ، وإلا لم يكن بينهم فرق . ومن الأدلة قول النبي صلى الله عليه وسلم وقد نظر إلى القمر ليلة البدر (إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته) متفق عليه عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال أناسٌ يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال (هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر) قالوا : لا يا رسول الله . قال (هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟) قالوا : لا يا رسول الله . قال (فإنكم ترونه كذلك) متفق عليه

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ أي كالحة ، والكلوح عبوسٌ في تكشير .

﴿ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ قال مجاهد : داهية . وقال قتادة : شر . وقال السدي : تستيقن أنها هالكة . وقال بن زيد : تظن أنها ستدخل النار . وقال أبو إسحاق : توقن أن يفعل بها داهية من العذاب . وسميت الداهية بالفاقرة أي التي تكسر فقار الظهر من شدتها .

﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ ﴾ أي روحه بلغت ترقوته ، أي حضره الموت . قال في المحكم : الترقوتان : العظمان المشرفان بين ثغرة النحر والعاتق .انتهى. وقال في تاج العروس : مُقَدَّمُ الحَلْقِ في أَعْلَى الصَّدْرِ حَيْثُما يَتَرَقَّى فيه النَّفَسُ .انتهى. قال القرطبي : والتراقي جمع ترقوة وهي العظام المكتنفة لنقرة النحر ، وهو مقدم الحلق من أعلى الصدر ، موضع الحشرجة ... وقد يكنى عن الإشفاء على الموت ببلوغ النفس التراقي ، والمقصود تذكيرهم شدة الحال عند نزول الموت .انتهى.

﴿ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ أي قال أهله حين يرون ما به : هل من راقٍ يرقي وطبيبٍ يشفى ، ولكن لا ينفعه حينئذٍ الطب إذ قد جاء أمر الله الذي لا مناص لمخلوقٍ عنه وهو الموت . وقيل بل هو قول الملائكة بعضهم لبعض من يصعد به ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب ، ولكن سياق الآيات يدل على الأول .

﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ ﴾ تيقن أنه مفارقٌ أهله وماله بالموت .

﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ ﴾ أي ساقا الميت تلتفان على بعضهما عند الموت وهو قول الحسن والشعبي وقتادة وأبو مالك والربيع ، وقيل ساقا الميت تلفان في الكفن وهو قول سعيد بن المسيب والحسن ، وعن بن زيد :

ساق الميت بساق الكفن ، وقيل المراد بالساق شدة الأمر ، أي اجتمعت عليه شدة أمر الدنيا حين إدباره عنها وشدة أمر الآخرة حين إقباله عليها . وهو قول بن عباس ومجاهد والحسن وقتادة والربيع والضحاك وعطية وعبد الرحمن بن زيد ومقاتل ورجحه الطبري ، والمراد شدة كرب الموت وشدة فزع الآخرة . وقيل شدة فراق الدنيا والأهل وشدة الخوف من الآخرة .

وحيث أن الجمع بين هذه المعاني غير ممتنع فالأولى حمل الآية على كل المعاني التي تحتملها كما هو معلومٌ في أصول التفسير ، فساقاه تلتفان عند الموت وتلفان في الكفن وهو في أمرٍ شديدٍ إلا من رحم الله .

﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴾ أي المرجع والمآب كما قال تعالى ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾سورة الأنعام

﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ ﴾ هذه الآيات نزلت في أبي جهل بن هشام كما قال بن عباسٍ ومجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد ومقاتل وذلك أنه كان يتهدد النبي صلى الله عليه وسلم بالقتل ونحوه فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم بتلابيبه وقال له ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ ﴾ فقال له أبو جهل: أتهددني؟ فو الله إني لأعز أهل الوادي وأكرمه. قال القرطبي : قال قتادة : أقبل أبو جهل بن هشام يتبختر ، فأخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيده فقال﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ ﴾ فقال: ما تستطيع أنت ولا ربك لي شيئاً ، إني لأعز من بين جبليها. فلما كان يوم بدر أشرف على المسلمين فقال : لا يعبد الله بعد هذا اليوم أبداً. فضرب الله عنقه ، وقتله شر قتلة .انتهى.

﴿ فَلَا صَدَّقَ ﴾ لم يصدق بالكتاب وقيل بالرسالة وقيل أي لم يتصدق بماله ﴿ وَلَا صَلَّىٰ ﴾ أي لم يصل لربه يعني الصلوات المكتوبات . وقيل الصلاة الدعاء أي لم يدعوا ربه . ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ﴾كذب بالحق وتولى عن الإيمان وطاعة الرحمن .قال قتادة : لا صدق بكتاب الله ولا صلى لله ، ولكن كذب بكتاب الله وتولى عن طاعة الله . وقال مقاتل : فلا صدق أبو جهلٍ بالقران ولا صلى لله ، ولكن كذب بالقران وتولى عن الإيمان . وقال القرطبي : أي لم يصدق أبو جهلٍ و لم يصل . وقيل : يرجع هذا إلى الإنسان في أول السورة وهو اسم جنس . والأول قول ابن عباس . أي لم يصدق بالرسالة ﴿ وَلَا صَلَّىٰ ﴾ دعا لربه ، وصلى على رسوله

وقال قتادة : فلا صدق بكتاب الله ، ولا صلى لله. وقيل : ولا صدَّق بمالٍ له ذخراً له عند الله ، ولا صلى الصلوات التي أمره الله بها. وقيل : فلا آمن بقلبه ولا عمل ببدنه .انتهى .

﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ ﴾ يتبختر في مشيته ، وهو قول مجاهد وقتادة وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن وكلهم قالوا المراد أبو جهل بن هشام إلا زيداً فإنه قال : هي مشية بني مخزوم وكذا قال مقاتل بن سليمان .

﴿ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ ﴾ تهديد ووعيد ، قال قتادة : وعيدٌ على أثر وعيد . وقد قيل معناه الويل لك مكررة وضعفه القرطبي ، وقيل معناه القرب وهو اختيار الأصمعي ورجحه ثعلب ومعناه أي العذاب والهلاك أقرب إليك ، فكأن أبو جهل لما تهدد النبي صلى الله عليه وسلم بالقتل ونحوه ردَّ عليه النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الكلمة ومعناها : ذلك الذي تتوعدني به أقرب إليك . أو الهلاك أقرب إليك . قال البغوي : هذا وعيدٌ على وعيدٍ من الله عز وجل لأبي جهل ، وهي كلمة موضوعة للتهديد والوعيد . وقال بعض العلماء : معناه أنك أجدر بهذا العذاب وأحق وأولى به ، يقال للرجل يصيبه مكروه يستوجبه. وقيل : هي كلمة تقولها العرب لمن قاربه المكروه وأصلها من المولى وهو القرب قال الله تعالى ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ ﴾ من (١٢٣) سورة التوبة . انتهى.

﴿ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ ﴾ أي هملاً لا يؤمر ولا ينهى ولا يبعث ولا يحاسب . قال بن كثير : قال السدي : يعني : لا يبعث . وقال مجاهد والشافعي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعني لا يؤمر ولا ينهى. والظاهر أن الآية تعم الحالين ، أي: ليس يترك في هذه الدنيا مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يترك في قبره سدىً لا يبعث ، بل هو مأمورٌ منهيٌ في الدنيا ، محشورٌ إلى الله في الدار الآخرة . والمقصود هنا إثبات المعاد والرد على من أنكره من أهل الزيغ والجهل والعناد ولهذا قال مستدلا على الإعادة بالبداءة ﴿ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ﴾ أي: أما كان الإنسان نطفةً ضعيفةً من ماء مهينٍ ﴿ يُمۡنَىٰ ﴾ يراق من الأصلاب في الأرحام .انتهى. فكان أول خلق هذا الإنسان نطفةً قُذِفت في ساعة شهوةٍ إثر جماعٍ وقع من والديه . ﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾ ثم تحولت تلك النطفة إلى قطعة دمٍ جامدة معلقة في رحم أمه ، ثم خلق الله منها بشراً سوياً . ﴿ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ وجعل هذا المخلوق من جنسين ذكرٌ وأنثى ليستمر التزاوج والتناسل .

﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ أليس الله الذي فعل ذلك وهو خلقه لإنسانٍ سوي من نطفةٍ مذرة قادرٌ على أن يعيد خلقه ويحيه بعد موته .

وقد روى أبو داود عن موسى بن أبي عائشة قال: كان رجل يصلي فوق بيته ، وكان إذا قرأ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ قال : سبحانك فبلى . فسألوه عن ذلك فقال: سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال بن كثير : تفرد به أبو داود ولم يسم هذا الصحابي ولا يضر ذلك .انتهى. يعني لأن جهالة الصحابي لا تضر كما هو معلوم عند المحدثين وصحح إسناده الألباني . وروى أحمد وأبو داود والبيهقي وغيرهم عن إسماعيل بن أمية قال سمعت أعرابياً يقول سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من قرأ منكم ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾ فانتهى إلى آخرها﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾فليقل : بلى وأنا على ذلك من الشاهدين . ومن قرأ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾فانتهى إلى﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ فليقل : بلى ومن قرأ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ ﴾فبلغ ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾فليقل : آمنا بالله) ولكن ضعفه العلماء لجهالة الأعرابي .

أولاً / أن على الإنسان أن يصلح نفسه ويتعاهدها بطاعة الله جل وعلا والبعد عن معاصيه حتى تكون نفسه مطمئنة إلى الخير كارهة للشر فتعينه عند اشتداد الفتن ونحو ذلك مع الاعتماد على الله في كل شيء .

ثانياً / لا ملجأ ولا مفر من الله إلا إليه ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ ﴾فتزود ليوم لقاءه بالأعمال الصالحة التي ترضيه عنك فيغفر لك الذنوب ، ويدخلك دار كرامته برحمته ، ويجيرك من النار .

ثالثاً / ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾فمهما مدحك الناس وأثنوا عليك وجعلوك من الصالحين ، أو استحقروك وعابوك وجعلوك من الطالحين ، فلا تلتفت لأولئك ولا إلى أولئك ، بل التفت إلى قلبك وعملك فأنت أعرف الناس بنفسك ، فلن يزيدك عند الله مدح المادحين ، ولن يشينك عند الله شين الشائنين ، ولكن يرفع عملك الصالح ونيتك الحسنة ، ويشينك عملك الطالح ونيتك السيئة ، فراقب نفسك واصلحها واعمل لآخرتك فلن تنفعك المعاذير إذا فرطت في عمل الآخرة .

رابعاً / احفظ كتاب الله وتعلم معانيه ، واعلم أن الله يعينك إذا أخلصت النية لله ، ويعلمك ما لم تكن تعلم فإن الله قد تكفل بحفظ كتابه وبيانه لنبيه صلى الله عليه وسلم والعلماء هم ورثة الأنبياء فأبشر بتيسير الله لك وتمكينك من حفظ الكتاب وفهم معانيه إذا بذلت وقتك وجهدك في سبيل ذلك وأخلصت النية لله .

خامساً / ينقسم الناس يوم القيامة إلى فريقين الفريق الأول ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾وهم المؤمنون نضر الله وجوههم وأذن لهم بالنظر إليه فازدادوا بذلك نضارةً إلى نضارتهم وفرحةً إلى فرحتهم وسعادةً إلى سعادتهم وأما الفريق الثاني ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ ﴾فهي وجوه الكفار كلحت وجوههم وغشيهم الهوان وتيقنوا بالعذاب والهلاك . فشتان بين الفريقين . فاعمل لنفسك أن تكون مع المؤمنين الصالحين المخلصين ، وأن تنجو من الكفر وأهله ، وذلك بالاعتصام بالله وحسن اللجأ إليه مع إخلاص النية والعمل لله .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الإنسان

مكية وآياتها (٣١)

كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة ﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ﴾السجدة و﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ ﴾ رواه مسلم

﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝١ ﴾ هل هنا بمعنى قد وهو قول الكسائي وسيبويه والفراء وأبو عبيدة وبن جرير الطبري ونسبه أبو حيان في البحر المحيط إلى بن عباسٍ وقتادة .

والمعاصرون يسمونه استفهام تقريري أي أنه يتضمن الجواب بنعم ، كقولك لمن أعطيته مالاً : هل أعطيتك مالاً ؟ فالجواب قطعاً بنعم . أي قد أعطيتك مالاً .

واختُلِفَ في المراد بالإنسان هاهنا فقيل هو آدم عليه السلام فإنه كان آخر المخلوقات خلقاً وهو قول قتادة وسفيان وعكرمة والسدي ومقاتل ، وقيل المراد جنس الإنسان وهو قول بن عباس وجريج كما ذكره الماوردي وهو أولى لدلالة سياق الآيات على ذلك .

واختُلِفَ في الحين من الدهر الذي لم يكن فيه شيئاً مذكوراً فمن قال جنس الإنسان قال : الحين الذي مرّ عليه ، إما من حين عدمه إلى حين إيجاده في الأرض ، وإما من حين كونه نطفة إلى حين ولادته . ومن قال المراد آدم عليه السلام فقال : الحين الذي مر عليه إما من حين عدمه إلى خلقه ، وإما من حين خلقه إلى حين نفخ الروح فيه .

والمراد أنه لا يُعْرَفْ وليس له ذكرٌ عند الخليقة حتى أوجده الله بينهم فصار معروفاً لهم مذكوراً عندهم . وقيل المراد بالذكر الشرف كقوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ ﴾من (٤٤) سورة الزخرف أي شرفٌ لكم ، وعليه يكون المراد آدم وذو الشرف من بنيه ، والأول أولى إذ الآية تبين قدرة المولى على خلق المعدوم وبيان أن جنس الإنسان كان معدوماً فأوجده الله ، فلا وجه لتخصيصه بذوي الشرف والعلم عند الله تعالى .

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ أجمع المفسرون هاهنا بأن المراد جنس الإنسان وليس آدم عليه السلام فإنه لم يخلق من نطفةٍ وإنما من تراب ، وهذا يدل على أن المراد بالإنسان في الآية الأولى هو جنس الإنسان . قال في أضواء البيان : وقد رجح الفخر الرازي أن لفظ الإنسان في الموضعين بمعنى واحد ، وهو المعنى العام ليستقيم الأسلوب بدون مغايرةٍ بين اللفظين إذ لا قرينة مميزة .انتهى.

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾أي أخلاط من ماء الرجل وماء المرأة وهو قول بن عباسٍ ومجاهد وعكرمة والحسن والربيع بن أنس ومقاتل . وقيل المراد أطوار الخلق أي نطفة ثم علقة ثم مضغة ...الخ وهو مرويٌ عن بن عباسٍ وعكرمة وقتادة ، وقد أنكره الطبري وقال : الله وصف النطفة بأنها أمشاج ، وهي إذا انتقلت فصارت علقةً فقد استحالت عن معنى النطفة فكيف تكون نطفةً أمشاجاً وهي علقة .انتهى. وقيل الأمشاج هي العروق التي تكون في النطفة وهو قول بن مسعود وزيد بن أسلم ، وقيل المراد ألوان النطف فإنها مختلفة الألوان وهو مرويٌ عن بن عباسٍ ومجاهد ، قال مجاهد : ألوان نطفة الرجل بيضاء وحمراء ونطفة المرأة خضراء وحمراء . وعند أهل اللغة : أخلاطٌ من منيٍ ودم . وقال بعضهم : اختلاط ماء الرجل بماء المرأة ودمها . وعن الحسن قال : خُلِقَ من نطفةٍ مشجت بدم ، وذلك الدم الحيض إذا حملت ارتفع الحيض . قلت : ليس بين أقوالهم تضاد فإن الذين قالوا اختلاط ماء الرجل بماء المرأة لم يرد في كلامهم ما يدل على إنكارهم أن يكون في النطف عروقاً ودماء وأنها مختلفة الألوان ، ويمكن الرجوع إلى أهل الطب وسؤالهم عن ذلك .

﴿ نَّبْتَلِيهِ ﴾أي نختبره ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ قال بعض أهل اللغة في الآية تقديمٌ وتأخير والمعنى : فجعلناه سميعاً بصيراً لنبتليه . وأنكر ذلك الطبري ، وذكر أن الابتلاء يتحقق بصحة الآلات وسلامة العقل ولو عدم السمع والبصر . قال : وأما هذه فتذكيرٌ لنا بنعمه وتنبيهٌ على موضع الشكر .انتهى.

والمعنى أن الله جل وعلا خلق الإنسان من نطفةٍ مخلوطةٍ من ماء الرجل وماء المرأة لأجل أن يبتليه ، ثم جعل له سمعاً وبصراً ليسمع الحق ويبصره إن أراده ووفقه الله إليه . قال القاسمي﴿ نَّبْتَلِيهِ ﴾ أي : نختبره . والجملة في موضع الحال أي : خلقناه مبتلين له ، أي : مريدين ابتلاءهُ ، لا عبثاً وسدى ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ أي : لننظر هل صرف سمعه وبصره إلى استماع آيات الله والنظر فيها .انتهى.

﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ تكفل الله جل وعلا ببيان طريق الهدى للناس وذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب وما فطره في قلوب الناس من الإيمان بربوبيته إلا من شذ عن الفطرة جحوداً وكبراً كالملاحدة من الفراعنة والشيوعية ، وقد قال تعالى عن الفراعنة ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾من (١٤) سورة النمل وهكذا الشيوعية على طريقتهم ، والمقصود أن الله قد بيَّن طريق الهدى فمن شاء سار عليه فكان شاكراً لله عاملاً بأوامره مجتنباً لنواهيه ، ومن شاء مال عن الطريق وانحرف فكان كفوراً لنعم ربه جحوداً لحقه عليه . وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾من (٢٩) سورة الكهف وهذا قول عكرمة أن المراد بالسبيل الهدى . وقيل المراد بالسبيل سبيل الهدى والضلالة وهو قول مقاتل . وقال مجاهد : السعادة والشقاوة . وقال عطية العوفي : الخير والشر . والمعنى واحد ويستدل له بقوله تعالى ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾سورة البلد وقيل المراد بالسبيل خروجه من الرحم وهو قول الضحاك وأبو صالح والسدي وقيل : منافعه ومضاره التي يهتدي إليها بطبعه وكمال عقله . ذكر هذان القولان الأخيران القرطبي لكنهما بعيدان والراجح الأول . قال الفخر الرازي : السبيل هو الذي يسلك من الطريق فيجوز أن يكون المراد بالسبيل هاهنا : سبيل الخير والشر والنجاة والهلاك ، ويكون معنى ﴿ هَدَيْنَٰهُ ﴾ أي عرفناه وبينا كيفية كل واحدٍ منهما له كقوله تعالى ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ ويكون السبيل اسماً للجنس ، فلهذا أفرد لفظه كقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ ﴾سورة العصر ويجوز أن يكون المراد بالسبيل هو سبيل الهدى لأنها هي الطريقة المعروفة المستحقة لهذا الاسم على الإطلاق ، فأما سبيل الضلالة فإنما هي على سبيل الإضافة ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ ﴾سورة الأحزاب وإنما أضلوهم سبيل الهدى ، ومن ذهب إلى هذا جعل معنى قوله ﴿ هَدَيْنَٰهُ ﴾ أي أرشدناه ، وإذا أرشد لسبيل الحق ، فقد نبه على تجنب ما سواها ، فكان اللفظ دليلاً على الطريقين من هذا الوجه .انتهى.

ومن اللطائف في هذه الآية أن كفور جاءت على وزن فعول الدال على المبالغة ، بينما جاءت شاكر على وزن فاعل ولا تدل على المبالغة مع إمكان مجيئها لغةً على وزن فعول ، قالوا : لأن الإنسان مهما أدى من الشكر فلن يؤدي شكر نعمة الله عليه لكثرة نعم الله عليه ، بينما الكفر ولو قلَّ فإنه منكرٌ عظيم لأنه في مقابلة إحسان الله إليه وهو كثير بل لا يعد لكثرته فلذلك صحَّ فيه المبالغة .

﴿ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۠ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ ﴾ بعد أن بيّن الله للناس الطريق ، وجعل لهم السمع والبصر ليدركوا به الحق ، وجعل لهم حرية الاختيار بين الإيمان والكفر في الدنيا ، بيَّن لهم في هذه الآية وما يليها عاقبة اختيارهم ليكونوا على بصيرةٍ من ذلك ، وهذا من تمام منة الله على عباده ، فلم يتركهم هملاً ولم يعاجل من كفر بالعقوبة ، بل بيَّن لهم العقوبة الأُخروية فقال تعالى﴿ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا ﴾ أي هيأنا وجهزنا ﴿ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴾ لمن كفر بالله وكذب رسله .﴿ سَلَٰسِلَا۠ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ ﴾ السلاسل القيود التي يربطون بها لأجل الوثاق ولأجل أن يقادوا بها ويسحبون بها في النار كما قال تعالى ﴿ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾سورة غافر وطول السلسلة الواحدة سبعون ذراعاً كما قال تعالى﴿ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ ﴾ وأما الأغلال فهي التي تشد بها اليدين إلى العنق كما قال تعالى ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ﴾ أي شدوا يديه إلى عنقه وثاقاً . والسعير هي النار شديدة التوقد .

ولَّما ذكر جزاء من كفر وعقوبته في الدار الآخرة أعقبه بذكر جزاء من شكر فقال ﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ ﴾ الأبرار جمع بر وهو من امتثل أوامر ربه واجتنب نواهيه . ﴿ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ ﴾ قال القرطبي : الكأس في اللغة الإناء فيه الشراب ، وإذا لم يكن فيه شراب لم يسم كأساً .انتهى. والمعنى : أي يشربون من كأس خمرٍ مزجت بالكافور ، والكافور يبرد الخمر ويطيبه ، قال بن كثير : وقد عُلِمَ ما في الكافور من التبريد والرائحة الطيبة ، مع ما يضاف إلى ذلك من اللذاذة في الجنة .انتهى. وقال البغوي : قال قتادة : يمزج لهم بالكافور ويختم بالمسك . وقال عكرمة ﴿ مِزَاجُهَا ﴾ طعمها . وقال أهل المعاني : أراد كالكافور في بياضه وطيب ريحه وبرده ، لأن الكافور لا يشرب ، وهو كقوله ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا ﴾من (٩٦) سورة الكهف أي كالنار. وهذا معنى قول قتادة ومجاهد : يمازجه ريح الكافور. وقال ابن كيسان : طيبت بالكافور والمسك والزنجبيل . وقال عطاء والكلبي : الكافور اسمٌ لعين ماءٍ في الجنة .انتهى.

قال في التحرير والتنوير : والكافور: زيتٌ يستخرج من شجرةٍ تشبه الدفلة تنبت في بلاد الصين وجاوة يتكون فيها إذا طالت مدتها نحواً من مائتي سنة فيغلى حطبها ويستخرج منه زيت يسمى الكافور. وهو ثخن قد يتصلب فيصير كالزبد وإذا يقع حطب شجرة الكافور في الماء صار نبيذاً يتخمر فيصير مسكراً. والكافور أبيض اللون ذكي الرائحة منعش . فقيل أن المزاج هنا مراد به الماء والإخبار عنه بأنه كافور من قبيل التشبيه

البليغ ، أي في اللون أو ذكاء الرائحة ، ولعل الذي دعا بعض المفسرين إلى هذا إن المتعارف بين الناس في طيب الخمر أن يوضع المسك في جوانب الباطية قال النابغة :

وتسقى إذا ما شئت غير مصرد ... بزوراء في حافاتها المسك كارع

ويختم على آنية الخمر بخاتمٍ من مسك كما في قوله تعالى في صفة أهل الجنة ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ﴾ سورة المطففين وكانوا يجعلون الفلفل في الخمر لحسن رائحته ولذعة حرارته لذعةً لذيذةً في اللسان كما قال أمرؤ القيس : صبحن سلافاً من رحيقٍ مفلفل

ويحتمل أن يكونوا يمزجون الخمر بماءٍ فيه الكافور أو بزيته فيكون المزاج في الآية على حقيقته مما تمزج به الخمر ، ولعل ذلك كان من شأن أهل الترف لأن الكافور ثمينٌ وهو معدودٌ في العطور. انتهى.

﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ ﴾ اختلفوا في المراد بالعين هاهنا فقال بعضهم عين خمر والمعنى : لا تخشوا نفاد الخمر بعد شرب الكأس ففي الجنة عين خمرٍ لا تنفد . وقيل المراد بالعين الكافور . قال بن عباسٍ وعطاء والكلبي والفراء : الكافور اسمٌ لعين ماءٍ في الجنة . قال الطبراني ﴿ عَيْنًا ﴾ منصوبٌ على البدلِ من ﴿ كَافُورًا ﴾ .انتهى. قال الرازي : إن قلنا : الكافور اسم النهر كان عيناً بدلاً منه ، وإن شئت نصبت على المدح ، والتقدير أعني عيناً ، أما إن قلنا : إن الكافور اسمٌ لهذا الشيء المسمى بالكافور كان عيناً بدلاً من محل من كأس على تقدير حذف مضاف ، كأنه قيل : يشربون خمراً خمرَ عينٍ ، ثم حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه .انتهى. وقيل هي الخمر بالكافور وهو ظاهر قول السعدي فإنه قال : أي ذلك الكأس اللذيذ الذي يشربون به ، لا يخافون نفاده ، بل له مادة لا تنقطع ، وهي عينٌ دائمة الفيضان والجريان .

ومعنى ﴿ يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ ﴾ أي يروون بها ، وقيل يشرب بها ويشربها بمعنى واحد كقولهم : إنه يتكلم بكلامٍ حسنٍ ، ويتكلم كلاماً حسناً . وقيل المعنى : يشرب عباد اللّه بها الخمر ، كما تقول : شربت الماء بالعسل . يعني يمزجون شرابهم بها . وهذا على القول بأن العين للكافور .

﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ ﴾ أي يُجْرُونها ويقودونها حيث شاءوا .

﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ ﴾ أي لا يخلفون إذا نذروا وهذا يدل على أن الوفاء بالنذر من فعل الأبرار ، والنذر هو أن يوجب المكلف على نفسه طاعةً لا تجب عليه بأصل الشرع ، وعقده مكروه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (إنه لا يأتي بخير ، وإنما يستخرج به من البخيل) لكن إذا نذر طاعةً وجب عليه الوفاء بها ، وكان وفاءه بها علامةً على تقواه وقيامه بطاعة الله فيكون مع الأبرار لأجل ذلك . قال مجاهد : إذا نذروا في حق الله. وقال عكرمة : كل نذر في شكر. وقال مقاتل : من نذر لله نذراً فقضى الله حاجته فيوفى لله بما قد نذره.

وقيل أن النذر يندرج فيه ما التزمه المرء بإيمانه من امتثال أمر الله ، وهو قول القشيري ونُسِبَ إلى قتادة ودليله قوله تعالى ﴿ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ ﴾من (٢٩) سورة الحج أي أعمال نسكهم التي ألزموها أنفسهم بإحرامهم بالحج . قال بن كثير : أي يتعبدون لله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع ، وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر .انتهى. وقال السعدي : وإذا كانوا يوفون بالنذر وهو لم يجب عليهم إلا بإيجابهم على أنفسهم ، كان فعلهم وقيامهم بالفروض الأصلية من باب أولى وأحرى .انتهى.

﴿ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ٧ ﴾ أي منتشراً عاماً ممتداً . قال بن عباس : فاشياً . وقال قتادة : استطار والله شرّ ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض . وقال مقاتل : يعني كان شراً فاشياً في أهل السماوات والأرض ، فانشقت السماء ، وتناثرت الكواكب ، وفزعت الملائكة ، وكورت الشمس والقمر فذهب ضوئهما ، وبدلت الأرض ، ونسفت الجبال ، وغارت المياه ، وتكسر كل شيء على الأرض .انتهى.

﴿ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ أي على حبهم للطعام . قال مجاهد : أي وهم يشتهونه . وقيل : أي حب الله جل وعلا . وهو قول الداراني . يعني يطعمون الطعام لأجل حبهم لله تقرباً إليه . وقال الفضيل بن عياض : على حب إطعام الطعام . لعله يعني من كرمهم وطيب نفوسهم . والأول أرجح لسياق الآيات . ﴿ مِسۡكِينٗا ﴾ لا مال له يكفيه . ﴿ وَيَتِيمٗا ﴾ لا أب له يعوله ويؤويه . ﴿ وَأَسِيرًا ﴾ أي سجيناً . قال البغوي : قال مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء : هو المسجون من أهل القبلة. وقال قتادة : أمر الله بالأسراء أن يحسن إليهم وإن أسراهم يومئذٍ لأهل الشرك . وقيل : الأسير المملوك. وقيل: المرأة لقول النبي صلى الله عليه وسلم (اتقوا الله في النساء فإنهن عندكم عوان) أي أسراء. انتهى. وذكر القرطبي أن من قال الأسير هو المملوك عكرمة ، ومن قال هو المرأة أبو حمزة الثمالي . وذكر غيره عن الحسن قال : كان الأسارى مشركين يوم

نزلت هذه الآية . وقال قتادة: لقد أمر الله بالأسارى أن يحسن إليهم وأنهم يومئذٍ لمشركون فو الله لأخوك المسلم أعظم عليك حرمةً وحقا . وعن ابن جريج قال : لم يكن النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم يأسر أهل الإسلام ولكنها نزلت في أسارى أهل الشرك كانوا يأسرونهم في الفداء فنزلت فيهم فكان النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم يأمر بالإصلاح لهم . وعن أبي رزين قال : كنت مع شقيق بن سلمة فمر عليه أسارى من المشركين فأمرني أن أتصدق عليهم ثم تلا هذه الآية . والذي رجحه الطبري أن الأسير يشمل المؤمن والكافر فإن اللفظ على عمومه حتى يأتي ما يخصصه .

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ أي ابتغاء مرضاته وطلباً لثوابه أو طمعاً في النظر إلى وجهه الكريم في الجنة . ﴿ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً ﴾ أي مكافأة . ﴿ وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾ أي مدحاً وثناء . قال سعيد بن جبير ومجاهد : أما والله ما قالوه بألسنتهم ، ولكن علمه الله من قلوبهم ، فأثنى عليهم ليرغب في ذلك راغب .

﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ أي نفعل ذلك لأننا نخاف أن يعذبنا الله في يومٍ عبوسٍ قمطرير ، وهو يوم القيامة ، ونرجو أن يعفو عنا ويرحمنا بعملنا هذا . والعبوس الضيق ، والقمطرير الطويل ، وهو قول بن عباسٍ ورجحه بن كثير . وقيل العبوس: الشر ، والقمطرير : الشديد ، وهو قول بن زيد . وقيل العُبُوس لوجوه الكفار ، والقمطرير هو عرقٌ مثل القطران يسيل من بين أعين الكفار وهو مرويٌ عن بن عباسٍ وعكرمة . قال بن عباسٍ : يعبس الكافر يومئذٍ حتى يسيل من بين عينيه عرقٌ مثل القطران. وعنه وعن مجاهد: يقبِّض فيه الرجل ما بين عينيه ووجهه. وعن قتادة : عبست فيه الوجوه ، وقبضت ما بين أعينها كراهية ذلك اليوم . وَذُكِرَ عن مجاهد أن العبوس بالشفتين والقمطرير بالجبهة والحاجبين . وقال الفراء القمطرير : الشديد . وقال الكسائي : يوم مقمطر إذا كان صعباً شديداً. وقال الأخفش : القمطرير : أشد ما يكون من الأيام وأطوله في البلاء . وهو قول بن جرير .

وهذا من اختلاف التنوع لا التضاد فهو يوم شرٍ على الكفار شديدٌ في كربته طويل في مدته ضيقٌ من شدته صعبٌ ﴿ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ﴾ سورة المدثر تعبس فيه الوجوه ويسيل العرق من الكفار كالقطران .

قال الشيخ خالد السبت في شرح المصباح المنير : منهم من أرجع ذلك إلى صفة اليوم ، ومنهم من أرجعه إلى صفة الناس فيه ، كل الأقوال ترجع إلى هذين المعنيين ، وذلك من حيث اللغة جائز بلا شك ، أن يوصف الشيء بما يقع فيه ، وقد يوصف الشيء بصفته المختصة به من حيث هو . فالحاصل أن اليوم ظرفٌ من

الظروف من حيث هو لا يوصف بالعبوس ، ولكن العرب قد تصف الشيء بما يقع فيه ، لا سيَّما الظروف مثل الأيام والسنوات وما أشبه ذلك ، فاليوم العبوس من جعله من صفة اليوم فسر ذلك بأنه اليوم الطويل مثلاً ، وقول بن عباس العبوس الضيق والقمطرير الطويل أو الشديد ، ومن جعله من صفة الناس في ذلك اليوم جعل العبوس صفة لأولئك الأشقياء فيه وأن وجوههم تكون عابسة ، والقمطرير أي تكون مقطبةً مثلاً من شدة العبوس ، يعني أشد من العبوس ، فذلك اليوم لا شك أنه يومٌ طويلٌ شديدٌ ضيق ، فقول بن عباسٍ رضي الله تعالى عنهما هنا الذي نقله علي بن أبي طلحة عنه ﴿ عَبُوسًا ﴾ أي ضيقاً ، يعني يقع عليهم فيه ضيقٌ وشدة وكرب . ولا شك أن هذه المعاني متلازمة ، هذا المعنى ملازمٌ لمن قال : تعبس فيه الوجوه . لماذا تعبس الوجوه؟ إذا ضاق الإنسان واشتد عليه الأمر فإنه يحصل له مثل هذا العبوس ، بخلاف ما إذا حصل له سرور الباطن فإنه ينبلج وجهه ويستنير ...إلى أن قال : فالحاصل إذن أن ﴿ يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ تعبس فيه الوجوه لطوله وشدته ولذلك من قال إن القمطرير هو الشديد وهو اختيار بن جرير رحمه الله وكثيرٌ من المفسرين فهذا لا ينافي قول من قال : إنه اليوم الذي يشتد فيه عبوس هؤلاء الكفار ، أو من قال : إنه طويل ، لأن طوله يدل بلا شك أنه شديد ، من شدته أنه طويل حتى يعرقون ويحصل فيه ما يحصل . انتهى .

﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ ﴾ لَمَّا خافوا الله في الدنيا وسعوا في مرضاته أمَّنهم في الآخرة مما خافوا . ﴿ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ ﴾ قال في الجلالين : أعطاهم . وكذا قال الرازي . وقال القرطبي : أي أتاهم وأعطاهم حين لقوه أي رأوه . وقال الراغب الأصفهاني في مفردات القران : لَقِيتُه بكذا : إذا استقبلته به ، قال تعالى ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴾من (٧٥) سورة الفرقان وقال في المعجم الوسيط : لقاه الشيء : جعله يلقاه . انتهى. والمعنى : أي استقبلهم بكرمه وعطائه فوهبهم ﴿ نَضْرَةً ﴾ أي بهاءً وجمالاً وحسناً في وجوههم ﴿ وَسُرُورًا ﴾ أي انشراحاً وطمأنينةً وفرحاً في صدورهم . قال بن عباس والحسن وقتادة : نضرةً في وجوههم وسروراً في صدورهم . قال الشيخ خالد السبت : لا شك أن بين الأمرين ملازمة إذ الانشراح في الباطن يظهر أثره على الظاهر والعكس ، ولذلك تجد أن الثكلى يظهر ذلك في وجهها ، والمحزون يظهر الحزن في وجهه ولو حاول أن يخفيه ، وهكذا المنبسط المسرور منشرح الصدر يظهر ذلك على وجهه ، ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سُرَّ استنار وجهه حتى يكون كفلقة القمر من إضاءته وإشراقه عليه الصلاة والسلام .انتهى.

﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ أي أثابهم بسبب صبرهم على طاعته وعن معصيته وعلى أقداره أن أدخلهم الجنة وألبسهم فيها الحرير . يتنعمون بلذيذ الطعام والشراب واللباس لصبرهم على ما أصابهم في الدنيا من الجوع والعطش والعري في سبيل الله ، ولأنهم امتنعوا عن لبس الحرير في الدنيا طاعةً لله ، لتحريمه على الذكور ، وقد ثبت في الأحاديث الصحاح أن من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة .

﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ﴾ أي على السرر المصفوفة المزينة بالفرش الحسان يتكئون عليها كما قال تعالى ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ﴾ من (٢٠) سورة الطور وقال تعالى ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ من (٥٤) سورة الرحمن وقال تعالى ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ سورة الرحمن

﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا ﴾ فيتأذون بحرها ﴿ وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾ أي برداً شديداً يتأذون منه . قال عكرمة : البرد الشديد . وقال مجاهد : البرد المفظع . قال صلى الله عليه وسلم : اشتكت النار إلى ربها فقالت يا رب أكل بعضي بعضاً فأذن لها بنفسين نفسٌ في الشتاء ونفسٌ في الصيف فهو أشد ما تجدون من الحر وأشد ما تجدون من الزمهرير) متفق عليه والمعنى ليس في الجنة حرٌ ولا بردٌ يتأذى أهلها منه إنما هي أفضل الأجواء وأحسنها .

﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا ﴾ قال مقاتل : يعني ظلال الشجر . قال بن جرير : وقربت منهم ظلال أشجارها . ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾ عن البراء بن عازبٍ رضي الله عنه قال : إن أهل الجنة يأكلون من ثمار الجنة قياماً وقعوداً ومضطجعين وعلى أي حالٍ شاءوا . وعن مجاهد قال : أدنيت منهم يتناولونها ، إن قام ارتفعت بقدره ، وإن قعد تدلت حتى ينالها ، وإن اضطجع تدلت حتى ينالها ، فذلك تذليلها . وقال الضحاك : أدنيت منهم يتناولونها وهم متكئون . وقال قتادة : لا يرد أيديهم عنها بُعْدٌ ولا شوك .

﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ ويطاف على أهل الجنة بآنية من فضة وأكواب كانت في الأصل من القوارير وهي الزجاج فحولها الله إلى فضة وجعلها في صفاء القوارير . قال بن جرير : كانت هذه الأواني والأكواب قوارير فَحَوَّلَهَا اللَّهُ فِضَّةً .انتهى. وفي قوله ﴿ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ ﴾ قال بن عباسٍ ومجاهد والحسن وقتادة والشعبي : بياض الفضة في صفاء القوارير . وقال بن جرير : بياض الفضة وصفاء الزجاج . وعن ابن عباسٍ قال : لو أخذت فضة من فضة الدنيا فضربتها حتى جعلتها مثل جناح الذباب لم ير الماء عن ورائها ولكن قوارير الجنة بياض الفضة في صفاء القوارير . وعن قتادة قال :

لو اجتمع أهل الدنيا على أن يعملوا إناءً من فضة يُرى ما فيه من خلفه كما يرى ما في القوارير ما قدروا عليه . وقال مقاتل: قوارير الدنيا من ترابها وقوارير الجنة من فضة . ولذلك قيل أراد الله تعالى أن يبين أن أرض الجنة فضة ، قال الطبري : دلَّ جلَّ ثناؤه بوصفه الآنية التي يطاف بها على أهل الجنة أنها من فضة ليعلم عباده أن تربة أرض الجنة فضة . قال : لأن كل آنيةٍ تتخذ من تربة الأرض التي فيها . انتهى. وذكره القرطبي قولاً لابن عباسٍ رضي الله عنهما . وهذا بعيد ولو قال من تربة الجنة ما هو فضة لأمكن قبوله إذ من الممكن أن تكون تربة الجنة من أنواعٍ شتى منها الزعفران كما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قلنا يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها ؟ قال (لبنةٌ ذهب ولبنةٌ فضة وملاطها المسك وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت وترابها الزعفران) رواه أحمد وغيره وقال شعيب الأرنؤوط صحيح بطرقه وشواهده . ومنها المسك والكافور فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أخبرني رسول الله صلى الله عليه وسلم (أن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضل أعمالهم ثم يؤذن في مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا فيزورون ربهم ويبرز لهم عرشه ويتبدى لهم في روضة من رياض الجنة فتوضع لهم منابر من نور ومنابر من ذهب ومنابر من فضة ويجلس أدناهم وما فيهم من دني على كثبان المسك والكافور وما يرون أن أصحاب الكراسي بأفضل منهم مجلسا) رواه الترمذي وبن ماجة وضعفه الألباني ، وورد أنهم يأكلون في صحاف الذهب كما قال تعالى ﴿ **يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ** ﴾ من (٧١) سورة الزخرف وهي آنية فهل هي مصنوعة من تربة الجنة كآنية الفضة . وكذلك البناء يصنع من تربة الأرض . والمقصود أن هذا المعنى غير واضحٍ في الآية فلا يمكن قبوله إلا بدليلٍ .

وفي قوله تعالى ﴿ **وَأَكْوَابٍ** ﴾ قال مجاهد : الأَكْوَابُ : الأَقْدَاحُ. وقال مقاتل : هي الأكواز مدورة الرؤوس التي ليس لها عرى .

وفي قوله ﴿ **قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾** ﴾ قال بن عباسٍ : قدرها السقاة . قال : أتوا بها على قدرهم لا يفضلون شيئاً ولا يشتهون بعدها شيئا . يريد على قدر ريهم لا تزيد ولا تنقص . وهو قول سعيد والحسن ومجاهد وقتادة وبن زيد . وقيل : قدَّروها على قدر الكف . وهو مرويٌ عن بن عباس . وعليه يكون عائداً على الآنية والأكواب ، والأول على المشروب .

﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ ﴾ ويسقون في الجنة كأس خمرٍ مزجت بالزنجبيل . قال بن كثير : تارةً يُمزَج لهم الشراب بالكافور وهو بارد ، وتارةً بالزنجبيل وهو حار ، ليعتدل الأمر ، وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارةً ومن هذا تارةً . وأما المقربون فإنهم يشربون من كل منهما صِرْفًا كما قاله قتادة وغير واحد .انتهى.

﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾ قال الضحاك : عين الخمرة . ذكره السيوطي في الدر ، وعليه تكون ﴿ عَيْنًا ﴾ بدلاً من ﴿ كَأْسًا ﴾ والمعنى : لا تخشوا نفاد الخمر بعد شرب الكأس ففي الجنة عين خمرٍ لا تنفد .

وقال مجاهد وقتادة : الزنجبيل اسمٌ للعين . ذكره القرطبي ، وعليه تكون ﴿ عَيْنًا ﴾ بدلاً من ﴿ زَنجَبِيلًا ﴾ أي عيناً من الزنجبيل . وقد ذكر قتادة وغيره أن المقربين يشربون منها صرفاً وأما الأبرار فيمزج لهم بها الشراب .

وقيل هي مفعول ﴿ وَيُسْقَوْنَ ﴾ أي ويسقون عيناً ، أي يسقى الأبرار من عينٍ في الجنة تسمى سلسبيلا : كأن المعنى على هذا القول : أي يسقون مشروباً آخراً غير الخمر الممزوج بالزنجبيل .

وقوله ﴿ تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾ أي أن العين التي من الزنجبيل اسمها سلسبيلا . قال بن كثير : أي الزنجبيل عين في الجنة تسمى سلسبيلا .انتهى. وقال الزجاج : السلسبيل في اللغة اسم لما كان في غاية السلاسة ، فكأن العين سميت بصفتها . وقال مقاتل : إنما سميت السلسبيل لأنها تنسل عليهم في مجالسهم وغرفهم وطرقهم .

وقيل ﴿ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾ وصفٌ لا اسم ، أي أن العين التي من الزنجبيل توصف بأنها سلسبيلا ، أي في غاية السلاسة وهي السهولة واللين يعني في جريها في حلوقهم وذلك من عذوبتها وصفائها ، قال بن عباس : تنسل في حلوقهم انسلالاً . وقال مجاهد : حديدة الجرية . وقال قتادة : عيناً سلسةً مستقيداً ماؤها يصرفونها حيث شاءوا . قال بن جرير : والصواب من القول في ذلك عندي أن قوله ﴿ تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾ صفة للعين وصفت بالسلاسة في الحلق ، وفي حال الجري ، وانقيادها لأهل الجنة يصرفونها حيث شاءوا كما قال مجاهد وقتادة ، وإنما عنى بقوله ﴿ تُسَمَّىٰ ﴾ توصف . وإنما قلت ذلك أولى بالصواب لإجماع أهل التأويل على أن قوله ﴿ سَلْسَبِيلًا ﴾ صفةٌ لا اسم .انتهى.

قلت : لعله أراد حتى من قال منهم هي اسم العين فإنه قال سميت بذلك اشتقاقاً من الصفة . فهم مجمعون على أن ﴿ سَلْسَبِيلًا ﴾ صفة في الأصل ، وليسوا مجمعين على أنها ليست اسماً للعين . بل منهم من قال هي اسم العين وقد ذكره الماوردي وبن كثير عن عكرمة ، وقاله الزجاج ومقاتل وبن كثيرٍ كما تقدم .

قال بن حيان : والظاهر أن هذه العين تسمى سلسبيلا بمعنى توصف بأنها سلسة في الاتساع سهلة في المذاق ولا يحمل سلسبيل على أنه اسم حقيقة ، لأنه إذ ذاك كان ممنوع الصرف للتأنيث والعلمية . وقد روي عن طلحة أنه قرأه بغير ألف ، جعله علماً لها ، فإن كان علماً فوجه قراءة الجمهور بالتنوين المناسبة للفواصل كما قال ذلك بعضهم في سلاسلا وقواريرا ويحسن ذلك أنه لغة لبعض العرب ، أعني صرف ما لا يصرفه أكثر العرب . وقال بعض المعربين : سلسبيلا أمرٌ للنبي صلّى اللّه عليه وسلم ولأمته بسؤال السبيل إليها ، وقد نسبوا هذا القول إلى عليٍ كرم اللّه وجهه ، ويجب طرحه من كتب التفسير .انتهى وقال الطاهر بن عاشور : ومعنى ﴿ تُسَمَّىٰ ﴾ على هذا الوجه ، أنها توصف بهذا الوصف حتى صار كالعلم لها كما قال تعالى ﴿ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ من (٢٧) سورة النجم أي يصفونهم بأنهم إناث ، ومنه قوله تعالى ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ من (٦٥) سورة مريم أي لا مثيل له ، فليس المراد أنه علم . ومن المفسرين من جعل التسمية على ظاهرها وجعل ﴿ سَلْسَبِيلًا ﴾ علماً على هذه العين .انتهى.

والمقصود أنه ليس ثمة إجماع على نفي التسمية بها ولو قيل هي في الأصل صفة ، فإن العرب تأخذ من الصفات أسماء ، فمن أسمائهم حكيم وكريم وفاتك وتأبط شراً ونحو ذلك وهي صفات .

وسواءً قلنا أن ﴿ سَلْسَبِيلًا ﴾ اسم عين الزنجبيل أو صفتها فالمقصود بيان سلاستها أي سهولتها ولينها حين تجري في حلوقهم على خلاف زنجبيل الدنيا فإن فيه حرارة لاذعة قد تؤثر في الحلق وتسبب له التهابات ويتأذى بها بعض الناس ، فأراد أن ينفي عن عين زنجبيل الجنة ما يكون من أضرار زنجبيل الدنيا .

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ أي يقوم على خدمتهم ولدان مخلدون أي غلمانٌ لا يموتون ، وقيل : أي مخلدون على حالهم هذه ، لا يكبرون ، ولا يشيبون ، ولا يتضجرون من الخدمة . وذكر مقاتل أن الولدان هم الذين لم يبلغوا الحلم . وقيل المعنى : مسورون مقرطون ، أي محلون بالأساور والأقراط وهي التي توضع في الآذان والتخليد قد يطلق في اللغة على التحلية .

﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ أي ظننتهم من حسنهم وصفاء ألوانهم وكثرتهم لؤلؤاً مفرقاً . قال قتادة : من حسنهم وكثرتهم . قال البغوي : قال عطاء : يريد في بياض اللؤلؤ وحسنه ، واللؤلؤ إذا نثر من الخيط على البساط كان أحسن منه منظوماً . وقال أهل المعاني : إنما شُبِّهوا بالمنثور لانتشارهم في الخدمة ، فلو كانوا صفًا لشبهوا بالمنظوم .انتهى. وقال بن كثير : أي إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج السادة وكثرتهم وصباحة وجوههم وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً. ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا ، ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن .انتهى. فهؤلاء الخُدام بهذه الصفة فكيف بالمخدومين .

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ﴾ وإذا رميت ببصرك ﴿ ثَمَّ ﴾ أي هنالك أي في الجنة ﴿ رَأَيْتَ نَعِيمًا ﴾ لا ينقطع ولا يوصف لكثرته وجماله وكماله وحسنه وبهاءه . ﴿ وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾ ورأيت أهلها وهم في ملكٍ كبير أدناهم من يبلغ ملكه مسيرة ألفي سنة كما ورد في بعض الآثار ، عندهم القصور والدور ، والأنهار والخمور ، والخدم والحبور وأزواجهم الحور ، لا يفنى شبابهم ، ولا تبلى ثيابهم ، ولا يزدادون مع الأيام إلا حسناً وجمالاً . عن ابن عمرو رضي الله عنهما قال : إن أدنى أهل الجنة منزلاً من يسعى عليه ألف خادم ، كل واحدٍ على عملٍ ليس عليه صاحبه . وقال مجاهد وسفيان ﴿ وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ هو استئذان الملائكة لا تدخل عليهم إلا بإذن .

﴿ عَالِيَهُمْ ﴾ أي فوقهم أي يلبسون ﴿ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ السندس ما رقَّ من الحرير والاستبرق الغليظ منه وقوله ﴿ خُضْرٌ ﴾ أي لونها ، قال أبو الجوزاء : علت الخضرة أكثر ثياب أهلها . وهذا كقوله تعالى ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۚ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾سورة الكهف

﴿ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ أي يحلى أهل الجنة فيها أساور من فضة ، وكذلك يحلون فيها أساور من ذهبٍ ولؤلؤاً كما قال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾سورة الحج وقال تعالى﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ولعله لَّما ذكر في هذه السورة أن آنيتهم من فضة في قوله تعالى ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾

ناسب أن يذكر تحليتهم بالفضة ليذكر ما يتنعمون به من الفضة في شتى مناحي حياتهم ، ولا يعني هذا أنهم لا يتنعمون بغيرها من الجواهر والأحجار الكريمة ، إنما هو ذكر لنوعٍ من الأنواع ونعمة من نعيم أهل الجنة كما ذكر تعالى في مواضع أخرى من كتابه أن أهل الجنة يأكلون في آنية الذهب كما في قوله تعالى﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾من (٧١) سورة الزخرف ويحلون بأساور الذهب كما تقدم فهو نوعٌ آخر ونعيمٌ آخر ولا يمنع تخصيصه بالذكر في هذه الآيات من وجود غيره . قال القرطبي : قيل: حلي الرجل الفضة وحلي المرأة الذهب. وقيل : تارة يلبسون الذهب وتارة يلبسون الفضة. وقيل : يجمع في يد أحدهم سواران من ذهب وسواران من فضة وسواران من لؤلؤ ليجتمع لهم محاسن الجنة قاله سعيد بن المسيب . وقيل : أي لكل قوم ما تميل إليه نفوسهم .انتهى.

﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ ﴾ قيل : هو شرابٌ مخصوصٌ مُطَهِّرٌ لأهل الجنة . قال أبو قلابة : إذا أكلوا أو شربوا ما شاء الله من الطعام والشراب دعوا الشراب الطهور فيشربون فيطهرهم فيكون ما أكلوا وشربوا جشاءً بريح مسك يفيض من جلودهم ويضمر لذلك بطونهم . وعن إبراهيم التيمي قال : بلغني أنه يقسم للرجل من أهل الجنة شهوة مائة رجل من أهل الدنيا وأكلهم ونهمتهم فإذا أكل سُقي شراباً طهوراً يخرج من جلده رشحا كرشح المسك ثم تعود شهوته.

قال القرطبي : قال عليٌ رضي الله عنه : إذا توجه أهل الجنة إلى الجنة مروا بشجرة يخرج من تحت ساقها عينان ، فيشربون من إحداهما فتجري عليهم بنضرة النعيم فلا تتغير أبشارهم ولا تتشعث أشعارهم أبداً ، ثم يشربون من الأخرى فيخرج ما في بطونهم من الأذى ، ثم تستقبلهم خزنة الجنة فيقولون لهم ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ سورة الزمر . انتهى. وذكر مقاتل أنهم يميلون إلى أحداهما فيشربون منها فيخرج الله ما كان في أجوافهم من غلٍ أو أقذار ، فيطهر الله أجوافهم . ثم يميلون إلى العين الأخرى فيغتسلون فيها ، فيطيب الله أجسادهم من كل درن .انتهى.

وقيل هو جميع أشربة الجنة ، قال مجاهد : ما ذكر الله من الأشربة . وهو أقرب إلى الصواب إذ الأقوال السابقة تحتاج إلى دليلٍ مسندٍ صحيح .

﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً ﴾ أي ثواباً على أعمالكم . ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾ وكان سعيكم إلى الله بالعمل الصالح مشكوراً لكم من قبل الله ، قال قتادة : لقد شكر الله سعياً قليلاً . قال القرطبي : وشكره للعبد قبول طاعته ، وثناؤه عليه ، وإثابته إياه .انتهى.

﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴾ الجمع للتعظيم ، والله جل وعلا هو أعظم العظماء بل لا يدانيه أحد في عظمته الذي له العظمة المطلقة . ﴿ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ أوحيناه إليك بواسطة الملك الذي يترل بالوحي من عند الله جل وعلا إليك افي الأرض . ﴿ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ تأكيد ، أي لم تفتريه من عندك ، و لم تأخذه من بشر ، كما يدعي الكفرة والمشركون .

﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ أي لأمره وقضاءه . ﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ ﴾ قيل (أو) هنا بمعنى (لا) أي لا تطع منهم من يرتكب المآثم وهي الذنوب ، ولا الكفور وهو الجحود المكذب بالله ورسله . وقيل (أو) بمعنى (و) أي لا تطع منهم آثماً وكفوراً . قال ابن جريج وقتادة : نزلت في أبي جهل وكان يقول لئن رأيت محمداً يصلي لأطأن على عنقه . وقال مقاتل: أراد بالآثم عتبة بن ربيعة وبالكفور الوليد بن المغيرة قالا للنبي صلى الله عليه وسلم : إن كنت صنعت ما صنعت لأجل النساء والمال فارجع عن هذا الأمر ، قال عتبة : فأنا أزوجك ابنتي وأسوقها إليك بغير مهر . وقال الوليد : أنا أعطيك من المال حتى ترضى ، فارجع عن هذا الأمر ، فأنزل الله هذه الآية .انتهى.

قال الزجاج (أو) أوكد من الواو لأن الواو إذا قلت : لا تطع زيداً وعمراً فأطاع أحدهما كان غير عاصٍ لأنه أمره ألا يطيع الاثنين ، فإذا قال﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ ﴾ ف(أو) قد دلت على أن كل واحدٍ منهما أهلٌ أن يعصى ، كما أنك إذا قلت : لا تخالف الحسن أو ابن سيرين ، أو اتبع الحسن أو ابن سيرين ، فقد قلت: هذان أهل أن يتبعا وكل واحدٍ منهما أهلٌ لأن يتبع .

وقيل الآثم المنافق وهو مرويٌ عن الحسن وقال بن كثير : أي لا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صَدّك عما أنزل إليك ، بل بَلّغ ما أنزل إليك من ربك ، وتوكل على الله ، فإن الله يعصمك من الناس . فالآثم هو الفاجر في أفعاله ، والكفور هو الكافر بقلبه .انتهى.

﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٢٥﴾ ﴾ أي صلِ لربك في أول النهار وآخره ففي أوله صلاة الفجر وفي آخره صلاة الظهر والعصر ، وقيل هو الذكر في الصلاة وخارجها ، والأول أصح ، قال ابن عباسٍ وسفيان : كل تسبيحٍ في القرآن فهو صلاة . ذكره القرطبي . ولأن الذكر لا يتقيد بوقت ، إلا أن يكون المراد أذكار الصباح والمساء ، فحينئذٍ يكون الأمر على وجه الندب .

﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ ﴾ أي صلاة المغرب والعشاء . ﴿ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ ﴾ أي قيام الليل .

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ﴾ أي الحياة الدنيا . ﴿ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ ﴾ ويدعون خلف ظهورهم ، أي لا يهتمون بيوم القيامة لكفرهم وتكذيبهم به فلا يؤمنون به ولا يعملون له . وقيل﴿ وَرَآءَهُمۡ ﴾في هذه الآية بمعنى أمامهم قاله البغوي وغيره ﴿ يَوۡمٗا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾ هو يوم القيامة ثقيلاً على الكافرين أي شديداً عسيراً كما قال تعالى ﴿ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ﴿١٠﴾ ﴾سورة المدثر قال بن جريج ﴿ يَوۡمٗا ثَقِيلًا ﴾ عسراً شديداً .

﴿ نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ ﴾ أي هؤلاء المكذبين بيوم القيامة يعلمون أن الله خلقهم من طينٍ ثم جعلهم سلالةً من ماءٍ مهين . وقوله ﴿ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡ ﴾ قال بن عباس ومجاهد وقتادة ومقاتل : شددنا خلقهم . وقال أبو هريرة والحسن والربيع : شددنا مفاصلهم وأوصالهم بعضها إلى بعض بالعروق والعصب . وقال بن زيد : القوة . وعن مجاهد : هو الشرج . أي إذا خرج الغائط والبول تقبض الموضع . ذكره القرطبي وقال : والكلام خرج مخرج الامتنان عليهم بالنعم حين قابلوها بالمعصية . أي سويت خلقك وأحكمته بالقوي ثم أنت تكفر بي .انتهى.

﴿ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾ قال ابن عباس : يقول لو نشاء لأهلكناهم وجئنا بأطوع لله منهم . وعنه أيضاً : لغيرنا محاسنهم إلى أسمج الصور وأقبحها . ذكره القرطبي . أي أن الله الذي خلقهم وأحكم خلقهم قادرٌ على أن يذهب بهم ويأت بغيرهم أو يغير أشكالهم ويجعلهم على صورٍ قبيحة . وهذا تهديد ووعيد شديد للمكذبين بالبعث والذين لا يعملون له . قال بن جرير : يقول : وإذا نحن شئنا أهلكنا هؤلاء وجئنا بآخرين سواهم من جنسهم ، أمثالهم من الخلق ، مخالفين لهم في العمل .انتهى.

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ ﴾ قال قتادة : إن هذه السورة تذكرة . فهي دعوة إلى الاتعاظ والاعتبار والانتفاع بها . ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ٢٩ ﴾ أي طريقاً يوصله إلى الله . وذلك بعمل الصالحات وترك المنكرات .

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ٣٠ ﴾ ليست مشيئة الانسان مستقلة بل هي تابعة لمشيئة الله ، فمن شاء الله له الهداية اهتدى ، ولولا مشيئة الله لما اهتدى ولو عمل ما عمل في طلبها ، وهكذا الضلالة وسائر الأمور . وفي هذا ردٌ على القدرية والجبرية ، فالقدرية يقولون لا قدر والأمر أنف أي لا تعلق له بمشيئة الله ، والإنسان يخلق فعله . فجعلوا للإنسان مشيئةً مستقلةً عن مشيئة الله ، وأما الجبرية فيقولون ليس للإنسان مشيئة بل هو كالريشة في مهب الريح . وقال أهل السنة بل للإنسان مشيئة وإرادة لكنها تابعة لمشيئة الله وإرادته واستدلوا بهاتين الآيتين وبقوله تعالى ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩ ﴾ سورة التكوير

﴿ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ﴾ فيهديه للإسلام ثم يكون مصيره الجنة . ﴿ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ٣١ ﴾ والذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك قد جهز الله لهم عذاباً موجعاً في نار جهنم .

أولاً / قوله تعالى ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ تدل الآية على فضل الصبر ومنزلته العلية ، وقد وردت في فضل الصبر أدلة كثيرة منها قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ من (١٠) سورة الزمر وقال تعالى ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ سورة النحل وقال تعالى ﴿ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ سورة المؤمنون وقال تعالى ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ ﴾ سورة الفرقان وقال تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ سورة السجدة والصبر على ثلاثة أنواع : صبرٌ على طاعة الله بفعل أوامره ، وصبرٌ عن معصيته بترك نواهيه ، وصبرٌ على أقداره المؤلمة كما قال تعالى ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ سورة البقرة

ثانياً / في قوله تعالى ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ دليل على أن الإنسان خلق للابتلاء كما قال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ سورة هود وقال تعالى ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ سورة الملك وقال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ سورة الأنعام فعلى الإنسان أن يصبر على هذا الابتلاء ، يصبر على الطاعات فلا يتركها ، ويصبر عن المحرمات فلا يفعلها ، ويصبر على أقدار الله فلا يتسخط منها .

ثالثاً / في قوله تعالى ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ وكذا قوله ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ من (٧١) سورة الزخرف وقوله ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ دليل على أن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه وذلك أن المؤمنين قد حرم عليهم الأكل والشرب في آنية

الذهب والفضة ولبس الحرير قال صلى الله عليه وسلم (لا تلبسوا الحرير ولا الديباج ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافهما فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة) فلما تركوا ذلك لله عوضهم الله في الجنة بالشرب والأكل في آنية الذهب والفضة ولبس الحرير في الجنة وهو خيرٌ من ذهب الدنيا وفضتها وحريرها .

رابعاً / في قوله تعالى ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ دليلٌ على أن الله جل وعلا لما ابتلى الناس بالإيمان والكفر لم يتركهم هملاً بل بيَّن لهم الطريق الصحيح إليه وأرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب ليبينوا لهم طريق النجاة والصراط المستقيم ويعرفوا أن ما خالفه هو طريق الضلالة كما قال تعالى ﴿ وَهَدَيْنَاهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ ثم جعل لهم حرية الاختيار ابتلاءً وامتحاناً ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾من (٢٩) سورة الكهف فمن آمن دخل الجنة ومن كفر دخل النار .

خامساً / أسلوب الترغيب والترهيب أسلوبٌ قرآني ففي قوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۠ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ ﴾ تهديد شديد ووعيدٌ أكيد لمن سلك طريق الضلالة والكفر وفي المقابل يقول تعالى قوله﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ ﴾ ترغيباً في سلوك طريق الهداية ليكون مع الأبرار فيحصل ما يحصله الأبرار من النعيم ، فينبغي على الداعية والمربي أن ينتهج هذا الأسلوب وهو أسلوب الترغيب والترهيب مع طلابه ومع الناس ليكون لقوله قبولاً عند الناس .

سادساً / في قوله تعالى﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ ﴾ دليل على أن الخوف من الله يجلب الأمن والطمأنينة والسعادة بخلاف الخوف من الناس الذي يجلب الرهبة والهموم والأحزان وقد ورد في الحديث القدسي قال الله عز وجل (وعزتي لا أجمع لعبدي أمنين و لا خوفين ، إن هو أمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع فيه عبادي ، و إن هو خافني في الدنيا أمنته يوم أجمع فيه عبادي) رواه بن المبارك في الزهد وأبو نعيم في الحلية وحسنه الألباني .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة المرسلات

مكية وآياتها (٥٠)

قال السيوطي في الدر : أخرج البخاري ومسلم والنسائي وَابن مردويه عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال : بينما نحن مع النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم في غارٍ بمنى إذ نزلت عليه سورة ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴾ فإنه يتلوها وإني لألقاها من فيه ، وإن فاه لرطب بها ، إذا وثبت عليه حية فقال النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم (اقتلوها) فابتدرناها فذهبت ، فقال النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم (وقيت شركم كما وقيتم شرها) وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وبن ماجة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أم الفضل سمعته وهو يقرأ ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴾ فقالت : يا بني لقد ذكرتني بقراءتك هذه السورة إنها لآخر ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها في المغرب . وأخرج الطبراني في الأوسط عن عبد العزيز أبي سكين قال : أتيت أنس بن مالك فقلت : أخبرني عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى بنا الظهر وقرأ قراءةً همساً بالمرسلات والنازعات وعم يتساءلون ونحوها من السور . انتهى.

﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ ﴾ قال بن مسعودٍ وبن عباسٍ وأبو هريرة ومجاهد ومسروق وأبو صالح ومقاتل : هي الملائكة أرسلت بالمعروف . يعني بالحق من أمر الله ونهيه وقدره . وعن بن مسعودٍ وبن عباسٍ ومجاهد وقتادة قالوا : هي الريح . يعني أرسلت يتبع بعضها بعضاً كعرف الفرس . وعن بن عباسٍ وأبي صالح : هي الرسل ترسل بالمعروف . يعني بالأوامر والنواهي . وعن أبي صالح أي بالمعجزات التي يُعْرَفُونَ بواسطتها أنهم رسل الله عز وجل . وقيل ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ ﴾ أي السحاب . وقيل المواعظ والزواجر . ذكر ذلك القرطبي و﴿ عُرْفًا ﴾ أي متتابعة . وقال الحسن : جارية . والمواعظ تجري في القلوب فتنفعها بأمر الله كما يجري السحاب في الأرض فينفعها بأمر الله .

قال الطبري : والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال : إن الله تعالى ذكره أقسم بالمرسلات عرفاً وقد ترسل عرفاً الملائكة وترسل كذلك الرياح ولا دلالة تدل على أن المعني بذلك أحد الجنسين دون الآخر وقد عمَّ جل ثناؤه بأقسامه بكل ما كانت صفته ما وصف ، فكل من كان صفته كذلك فداخلٌ في قسمه ذلك ملكاً أو ريحاً أو رسولاً من بني آدم مرسلاً . انتهى.

﴿ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ٢ ﴾ عن علي بن أبي طالب ومقاتل : هي الرياح . وعن بن مسعود وبن عباس ومجاهد وقتادة وأبو صالح : هي الريح . والمعنى واحد . قال بن سيده : يعني الرياح والريح تعصف ما مرت عليه من جولان التراب تمضي به .انتهى من المحكم . وقال في المعجم الوسيط : عصفت الريح عصفاً وعصوفاً اشتد هبوبها فهي عاصفٌ وعاصفة ، وفي التنزيل العزيز ﴿ جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ ﴾ (ج) عواصف .انتهى . قال القرطبي : قال ابن مسعود : هي الرياح العواصف تأتي بالعصف ، وهو ورق الزرع وحطامه .انتهى. قال تعالى ﴿ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ٥ ﴾ سورة الفيل أي ما بقي من حطام الزرع الذي أكلته الدواب ووطئته بأقدامها .

وعن مجاهد : هي الملائكة . قال القرطبي : وقيل : العاصفات الملائكة الموكلون بالرياح يعصفون بها. وقيل : الملائكة تعصف بروح الكافر ، يقال: عصف بالشيء أي أباده وأهلكه ، وناقةٌ عصوف أي تعصف براكبها فتمضى كأنها ريحٌ في السرعة ، وعصفت الحرب بالقوم أي ذهبت بهم . وقيل : يحتمل أنها الآيات المهلكة كالزلازل والخسوف .انتهى من تفسيره . قال في المعجم الوسيط : يقال : عصفت بهم الحرب أهلكتهم وعصف بهم الدهر كذلك ، والسائر أسرع يقال عصفت الناقة أسرعت ، والشيء مال ، والزرع عصفاً جز ورقه .انتهى.

واللفظ عام فكل ما يعصف بالشيء عصفاً أي يذهب به بشدة فداخلٌ في اللفظ فيشمله المعنى والله أعلم .

﴿ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ٣ ﴾ عن بن مسعود ومجاهد : هي الريح . يعني تنشر السحاب أي تثيره وتخرجه . فالنشر الإخراج ويوم النشور يوم البعث والإخراج للموتى . وعن أبي صالح : المطر . لأنه ينشر النبات أي يخرجه ويحييه بأمر الله . وعن مجاهد وأبي صالح : هي الملائكة تنشر الكتب . وقيل الملائكة الموكلون بالسحاب ينشرونها . وقال بن عباسٍ والضحاك ومقاتل : أعمال بني آدم تنشر يوم القيامة . وقال الربيع : إنه البعث للقيامة تنشر فيه الأرواح .

والراجح شمول ذلك ، لعموم اللفظ ، ولا دليل على التخصيص بأمرٍ دون آخر .

قال السيوطي : أخرج ابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الرياح ثمان أربع منها عذاب وأربع منها رحمة فالعذاب منها العاصف والصرصر والعقيم والقاصف ، والرحمة منها الناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات ، فيرسل الله المرسلات فتثير السحاب

ثم يرسل المبشرات فتلقح السحاب ، ثم يرسل الذاريات فتحمل السحاب ، فتدر كما تدر اللقحة ثم تمطر وهي اللواقح ، ثم يرسل الناشرات فتنشر ما أراد . انتهى من الدر .

﴿ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ ﴾ قال بن عباس ومجاهد وأبو صالح : هي الملائكة فرقت بين الحق والباطل. وقال الحسن وبن كيسان وقتادة ومقاتل : يعني القرآن فرق الله به بين الحق والباطل . وعن أبي صالح : هي الرسل . وعن مجاهد في رواية بن أبي نجيح : هي الرياح تفرق بين السحاب وتبدده .

واللفظ يشمل كلما يفرق بين شيءٍ وشيء . والتخصيص يحتاج إلى دليل .

﴿ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ ﴾ قال بن عباس ومجاهد : هي الملائكة بالتنزيل . وعن أبي صالح : أي الملائكة يجيئون بالقرآن والكتاب . وهو بمعنى قول بن عباسٍ ومجاهد . وقال قتادة : هي الملائكة تلقي الذكر على الرسل وتلقيه الرسل على بني آدم . وقال مقاتل : هو جبريل وحده يلقى الذكر على ألسنة الأنبياء والرسل .

قلت : الترجيح في هذه الآية من أصعب ما يكون لأنه من المعلوم أن الملك الموكل بالوحي هو جبريل عليه السلام وحده وهو الذي يلقي الذكر على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لكن الآية وردت بلفظ الجمع . فإما أن يقال أن الجمع للتعظيم وهو معلومٌ في لغة العرب ، أو يقال أن الجمع باعتبار الملقى عليهم وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، أو يقال أن المراد من نزلوا مع جبريل عليه السلام من الملائكة حين يتزل بالوحي فيقابلوا الأنبياء فكأنهم ألقوا الذكر على الأنبياء مع جبريل عليه السلام وإن كان هو الملقي وحده لكنهم حين نزلوا معه وقابلوا الأنبياء شملهم اللفظ ، والعلم عند الله تعالى . وقد روى مسلم عن بن عباسٍ رضي الله عنهما قال : بينما جبريل عليه السلام قاعدٌ عند النبي صلى الله عليه وسلم سمع نقيضاً من فوقه فرفع رأسه فقال : هذا بابٌ من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك ، فقال : هذا ملكٌ نزل إلى الأرض لم يتزل قط إلا اليوم ، فسلَّم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبيٌ قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرفٍ منهما إلا أعطيته .

وقيل : هم الرسل يلقون ما أنزل الله عليهم من الذكر إلى أممهم وهو قول قطرب كما ذكره القرطبي . وجمع بين القولين قتادة كما تقدم وهو أولى من حيث أصول التفسير في الجمع بين المعاني وبه يزول الإشكال أيضاً.

تنبيه : يرى بعض المفسرين أنه أذا وردت أقسام متعددة تدل على معاني مختلفة وكان أحد هذه الأقسام لا يدل إلا على معنىً واحد من هذه المعاني ، فإنهم يحملون البقية على هذا المعنى ، ففي هذه السورة مثلاً

اجتمع المفسرون على أن معنى ﴿ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٥ ﴾ أي الملائكة . فقالوا : هذا يدل على أن المراد بالأقسام المتقدمة الملائكة ، ليتحد القسم ، ويدل على أن المراد تعظيم الملائكة بهذه الأقسام المتعددة . ويرى آخرون أنه لا يصح حمل البقية على هذا المعنى دون غيره ، بل الواجب حمل الآية على كل المعاني التي تحتملها ما لم يكن بينها تضاد وهو المشهور .

﴿ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ۝٦ ﴾ أي الملائكة تلقي الذكر على الأنبياء والرسل وهم يلقونه على الناس إعذاراً من الله لخلقه وإنذاراً لهم . قال قتادة ومقاتل وأبو صالح : عذراً من الله ونذراً منه إلى خلقه .

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ ﴾ جواب القسم : أي يوم القيامة . قال مقاتل : إنما توعدون من أمر الساعة لكائن . ويمكن أن يكون المراد أشمل من ذلك فقد وعدوا بأمورٍ في الدنيا ووقعت عليهم كقوله تعالى﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ ﴾سورة القمر وقعت يوم بدر . لكن الآيات بعدها تدل على أن المقصود يوم القيامة .

﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ۝٨ ﴾ الطمس الاندراس والمحو والاستئصال ومنه قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ ﴾ من (٨٨) سورة يونس أي أهلكها . قال في المعجم الوسيط : طُمِسَ الشيء طموساً تغيرت صورته ، ويقال طمس القمر أو النجم أو البصر أو نحوه ذهب ضوؤه ، والقلب ونحوه فسد فلا يعي شيئاً ، والشيء وعليه طمساً شوهه أو محاه وأزاله يقال طمست الريح الأثر ، ويقال طمس الغيم الكواكب حجب ضوؤها ، وطمس عينه وعليها أعماها وفي التنزيل العزيز ﴿ وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ۝٦٦ ﴾ سورة يس . انتهى.

والمراد بطمس النجوم الذهاب بنورها . قال الضحاك : تطمس فيذهب نورها . وقال مقاتل : بعد الضوء والبياض إلى السواد . وقال الطبري : ذهب ضياؤها . وهو قول القرطبي وبن كثير وكثيرٌ من المفسرين .

وقيل المراد الذهاب بها بالكلية فتمحى وتستأصل وتندرس معالمها ويذهب نورها . كقوله تعالى ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢ ﴾سورة التكوير وقوله ﴿ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ ﴾سورة الانفطار وذلك يوم القيامة . قال الطبراني : أي مُحِيَ نورُها وسُلِبَ ضَوْءُها وتساقطَت .انتهى. وقال السعدي : أي: تتناثر وتزول عن أماكنها .انتهى

﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ ﴾ فتحت وشققت كقوله تعالى ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ ﴾ سورة النبأ قال بن عباسٍ : فرجت للطي . وقال مقاتل : انفرجت عن نزول من فيها من الملائكة ورب العزة لحساب الخلائق .

﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ ﴾ قلعت وذُهِبَ بها كلها بسرعةٍ فلم يبقى لها عينٌ ولا أثر كما قال تعالى ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ سورة طه

قال بن عباسٍ والكلبي ومقاتل : سويت بالأرض . وقال المبرد : قلعت من موضعها .

﴿ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ ﴾ قال بن عباسٍ ومقاتل وبن زيد : جمعت . كقوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ ﴾ سورة المائدة

وقال إبراهيم النخعي : أوعدت . قال بن كثير :كأنه يجعلها كقوله ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ سورة الزمر .انتهى. أي جيء بهم على موعد القضاء في الآخرة ليقضى بينهم وبين أممهم . أو ليشهدوا على أممهم في وقت القضاء . وعليه فيكون هذا القول في معنى القول الأول . قال الماوردي : قرأ أبو عمرو (وقتت) ومعناها عرفت ثوابها في ذلك اليوم ، وتحتمل هذه القراءة وجهاً آخر أنها دعيت للشهادة على أممها .انتهى.

وقال مجاهد : أجلت . والتأجيل التأخير فكأن المعنى المراد : أي ضرب لهم أجلاً مؤخراً يجتمعون فيه وهو يوم القيامة يوم الفصل بين الخلائق . قال الطبري : وَإِذَا الرُّسُلُ أُجِّلَتْ لِلِاجْتِمَاعِ لِوَقْتِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وضعف الرازي هذا القول لسياق الآيات قبلها لأن المعنى سيكون ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ ﴾ وإذا ضُرب للرسل أجلٌ للاجتماع ، قامت القيامة ، ومعلومٌ أن الأجل مضروبٌ لهم في الدنيا أنهم سيجمعون في الآخرة للشهادة على أممهم كما قال تعالى ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ ﴾ سورة المائدة وقوله ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ سورة النساء وليس هذا الأجل يضرب مع قيام القيامة . ثم ذكر أن المعنى حصول الوقت الذي يكون فيه جمع الرسل وتكوينه أي وقوعه . وعليه فيكون مرجحاً لقول بن عباسٍ ومن معه .

﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ ﴾ أي ما هو اليوم الذي أجلت له الرسل ؟ وذلك لتهويله وتعظيمه . أو لبيان وقت ذلك الموعد . قال الفراء وغيره : يُعَجِّبُ العباد من ذلك اليوم . قال القاسمي : ليومٍ عظيمٍ أخرت أمور الرسل . وهو تعذيب الكفرة وإهانتهم ، وتعظيم المؤمنين ورعايتهم ، وظهور ما كانت الرسل تذكره من أحوال الآخرة وأهوالها .انتهى. ونحوه قال الرازي .

وقال مقاتل : يقول : لأي يوم أجلها يعنى الساعة .انتهى.

وقال الطبراني : لأيِّ يومٍ أُخِّرت هذه الأشياءُ من الطَّمس والنَّسفِ وغيرهما .انتهى.

والأول أولى لسياق الآيات .

﴿ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ ﴾ قال قتادة : يوم يفصل الله فيه بين الناس بأعمالهم إلى الجنة وإلى النار . وقال مقاتل : يوم القضاء . وقال الطبراني : سُمِّي بهذا الاسم لأنه يُفْصَلُ فيه بين الْمُحِقِّ والْمُبْطِلِ ، وبين الظالِم والمظلومِ.

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ ﴾ أي وما أعلمك يا محمد ما يوم الفصل ؟ للتعظيم والتخويف . قال قتادة : يعظهم بذلك . يعني إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يخوف بيوم القيامة فغيره من باب أولى .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ قال ابن مسعود : ويلٌ وادٍ في جهنم يسيل فيه صديد أهل النار . وقيل هي كلمة تهديدٍ ووعيد . قال قتادة : ويلٌ لهم والله ويلاً طويلا . قال بن كثير : أي ويلٌ لهم من عذاب الله غداً ، وقد قدمنا في الحديث أن "ويل": وادٍ في جهنم. ولا يصح .انتهى.

وبعد أن ذكر الله جل وعلا ما يكون من الأهوال والعذاب في الآخرة ، ذكَّر العباد بما جرى للأمم المكذبة من العذاب في الدنيا فقال ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ كقوم نوحٍ وعادٍ وثمود ﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ كالفراعنة وأصحاب مدين ﴿ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ من هذه الأمم المتأخرة وهو وعيدٌ شديد وتهديدٌ أكيد لكفار قريش ومن سار على منهاجهم في تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم ومحاربة دينه .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ كرر الوعيد بعد بيان قدرته على إهلاك المكذبين والمجرمين . أي كيف لا يؤمنون ويصدقون وقد أبصروا دلائل قدرته على إهلاك الأمم المكذبة . فاستحقوا الوعيد والعذاب في الآخرة .

وبعد أن بين الله جل وعلا قدرته على إهلاك الأمم المكذبة ذكر الأدلة الدالة على كمال قدرته فذكر أولاً قدرته على خلق الإنسان فقال جل وعلا ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ قال بن عباسٍ ومجاهد : ضعيف . أي أفلا يعجب الإنسان من نفسه كيف خلقه الله من ماءٍ ضعيفٍ وهو المني فجعله بشراً سوياً قوياً . ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾ قال مجاهد : يعني في الرحم . أي جعلنا هذا الماء وهو المني في موضعٍ يستقر فيه بتمكن فلا يسقط وهو الرحم . قال بن كثير : جمعناه في الرّحِم ، وهو قرار الماء من الرجل والمرأة ، والرحم معدٌ لذلك حافظٌ لما أودع فيه من الماء .انتهى. وقال الطبري : وصفه بأنه مكين لأنه مكن لذلك ، وهيأ له ليستقرّ فيه إلى بلوغ أمره الذي جعله له قراراً .انتهى. ﴿ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ إلى وقتٍ مقدرٍ معلوم لخروجه من الرحم قدَّره الله وعلمه بالتحديد ، والناس يعلمونه بالتقريب لأن وقت الحمل السليم من ستة إلى تسعة أشهر . ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ قيل المعنى : فقدرناه ذكراً أو أنثى طويلاً أو قصيراً سليماً أو ناقصاً ونحو ذلك ثم امتدح الله نفسه بهذا التقدير لأنه لا يقدر أمراً إلا عن حكمة وعلمٍ وقدرة وفيه مصلحة للعبد لو رضي بتقدير الله له إما في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما جميعاً . روي نحو هذا القول عن بن عباسٍ كما ذكر القرطبي . ويدل له قوله تعالى ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾سورة عبس وقيل : قدَّر خلقه في بطن أمه نطفةً ثم علقةً ثم مضغةً كما قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾سورة المؤمنون وقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾من (٥) سورة الحج

وقال عكرمة والضحاك وبن جريج : فملكنا فنعم المالكون . قال في أضواء البيان : فيه التمدح بالقدرة على ذلك وهو حقٌ ولا يقدر عليه إلا الله كما في قوله ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ سورة الواقعة .انتهى.

قال الماوردي ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ في قراءة نافع مشددة ، وقرأ الباقون مخففة ، فمن قرأ بالتخفيف فتأويلها : فملكنا فنعم المالكون . ومن قرأ بالتشديد فتأويلها : فقضينا فنعم القاضون ، وقال الفراء : هما لغتان ومعناهما واحد .انتهى. وعليه فتحمل على كلا المعنيين : التقدير ، والقدرة .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ كرر الوعيد بعد بيان قدرته على الخلق . أي كيف لا يؤمنون ويصدقون وقد أبصروا دلائل قدرته على خلقهم من العدم . فاستحقوا الوعيد والعذاب في الآخرة .

ثم ذكر المولى جل وعلا شيئاً من دلائل قدرته في خلق الأرض فقال تعالى ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ ﴾ الكفت الجمع والضم أي تجمعكم وتضمكم أحياءً على ظهرها وأمواتاً في بطنها . قال مقاتل : أليس قد جعل لكم الأرض كفاتاً لكم ، تدفنون فيها أمواتكم ، وتبثون عليها أحياءكم وتسكنون عليها ، فقد كفت الموتى والأحياء .انتهى. وعن ابن مسعود أنه أخذ قملةً فدفنها في المسجد ثم قرأ ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ ﴾ وقال مجاهد : تكفتهم أمواتاً وَتَكْفِ إذا هم أحياء . وقال قتادة : يسكن فيها حيهم ويدفن فيها ميتهم . وقال الشعبي : بطنها لأمواتكم ، وظهرها لأحيائكم .

وقيل ﴿ كِفَاتًا ﴾ أي وعاءً . والوعاء يخفي ما بداخله ، والمعنى أنك تختفون عن أنظار الناس أحياءً في الدور والمساكن والجبال والأودية ، وتختفون أمواتاً في باطنها . قال مجاهد ﴿ أَحْيَآءً ﴾ الرجل في بيته لا يرى من عمله شيء . ﴿ وَأَمْوَٰتًا ﴾ تكفت الميت ولا يرى منه شيء . وعنه قال ﴿ أَحْيَآءً ﴾ يكونون عليها أحياءً ويغيبون فيها ما أرادوا . ﴿ وَأَمْوَٰتًا ﴾. قال : فاهم يدفنون فيها .

وقيل ﴿ أَحْيَآءً ﴾ تخفي أذاهم وما يخرج منهم . ﴿ وَأَمْوَٰتًا ﴾ تخفي جيفهم .

قال الطبري : ألم نجعل الأرض كِفاتَ أحيائكم وأمواتكم ، تكْفِت أحياءكم في المساكن والمنازل فتضمهم فيها وتجمعهم ، وأمواتَكم في بطونها في القبور فيُدفَنون فيها. وجائز أن يكون عُني بقوله﴿ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ ﴾ تكفت أذاهم في حال حياتهم ، وجيفهم بعد مماتهم .انتهى.

قال الطبراني : وفي كل واحدٍ من هذين من النعمة ما لا يخفى على عاقل .

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ ﴾ أي جعلنا في الأرض رواسي تثبتها لئلا تميد بأهلها وهي الجبال الطوال العاليات المرتفعات ، يقال شمخ بأنفه إذا رفعه كبراً . قال بن عباسٍ : جبالاً مشرفات .

﴿ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ ﴾ قال بن عباسٍ ومجاهد : عذبا .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ كرر الوعيد بعد بيان دلائل قدرته في الأرض . أي كيف لا يؤمنون ويصدقون وقد أبصروا دلائل قدرته في الأرض . فاستحقوا الوعيد والعذاب في الآخرة .

﴿ انْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ النداء للكفار في الآخرة : أي يقال لهم : انطلقوا إلى النار التي كنتم تكذبون بها في الدنيا .

﴿ انْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ قال مجاهد : دخان جهنم . وقال قتادة والكلبي هو كقوله ﴿ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ والسرادق الدخان دخان النار ، فأحاط بهم سرادقها ، ثم تفرق فكان ثلاث شعب ، شعبة ههنا ، وشعبة ههنا ، وشعبة ههنا . وقال الطبري : ذلك أنه يرتفع من وقودها الدخان فيما ذكر فإذا تصاعد تفرق شعباً ثلاثاً .انتهى.

﴿ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ ﴾ لا يستفيد أهل النار من هذا الظل ، فليس فيه برودة تمنع الحر عنهم . وليس له جرمٌ يمنع اللهب عنهم .

﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ ﴾ قيل المراد بالقصر أصول الشجر أو القطعة من خشب الشجر فعن بن عباسٍ قال : كنا نرفع الخشب بقصر ثلاثة أذرع أو أقل فنرفعه للشتاء فنسميه القصر . وقال : كانت العرب تقول في الجاهلية : اقصروا لنا الحطب فيقطع على قدر الذراع والذراعين . وعنه أيضاً : كجذور الشجر . وعن سعيد بن جبير : مثل قصر النخلة . وعن الضحاك قال : القصر أصول الشجر العظام كأنها أجواز الإبل الصفر ، قال ابن جرير : وسط كل شيء جوزة . وقال الحسن : هو الجزل من الخشب . وقال مجاهد : كأنها جذم الشجر . وعنه : حزم الشجر وقطع النخل . وقال قتادة : أصول الشجر وأصول النخل . وقال عكرمة : كقطعة النخلة الجادرة .

وقيل بل هو مفرد القصور . قال بن عباسٍ : كالقصر العظيم . وقال بن مسعود : إنها ليست كالشجر والحبال ولكنها مثل المدائن والحصون .

﴿ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ قال بن عباس : هي الإبل . وعنه : هي قطع النحاس . وعنه : هي حبال السفن يجمع بعضها إلى بعض حتى تكون كأوساط الرجال . وقال الحسن وقتادة : كالنوق السود . وقال عكرمة : القلوص . وقال مجاهد : حبال الجسور . قال الطبري : وأولى الأقوال عندي بالصواب قول من قال : عني بالجمالات الصفر الإبل السود ، لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب ، وأن الجمالات جمع جمال ، نظير رجال ورجالات ، وبيوت وبيوتات . قال : وإنما قيل لها صفر وهي سود ، لأن ألوان الإبل سودٌ تضرب إلى الصفرة ولذلك قيل لها صفر ، كما سميت الظباء أُدُماً لما يعلوها في بياضها من الظلمة . قال : والعرب تشبّه الإبل بالقصور المبنية كما قال الأخطل في صفة ناقة :

كأنها بُرْجُ رُومِيّ يُشَيِّدُهُ لُزَّ بِجِصٍّ وآجُرٍّ وأحْجَارِ .انتهى.

ويمكن أن يكون المراد التشبيه باللون لا الحجم ، أي الشررة كقصرٍ أسود يضرب إلى الصفرة . وعلى القول بأنها أصول الشجر ونحوها فيمكن أن يكون التشبيه باللون والحجم جميعاً .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ كرر الوعيد بعد بيان عاقبة أهل النار ليحذر الناس من هذه العاقبة .

﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ يعني يوم القيامة ، يمر عليهم وقتٌ لا ينطقون فيه من الخوف ، ووقتٌ ينطقون بالاعتذار إلى الله والمخاصمة فيما بينهم . ووقتٌ يختم على أفواههم فلا يستطيعون النطق والاعتذار ، فعن أبي الضحى أن نافع بن الأزرق وعطية أتيا ابن عباس فقالا : يا ابن عباس أخبرنا عن قول الله ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ وقوله ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ سورة الزمر وقوله ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ من (٢٣) سورة الأنعام وقوله ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾ من (٤٢) سورة النساء قال : ويحك يا ابن الأزرق إنه يوم طويل وفيه مواقف تأتي عليهم ، ساعة لا ينطقون ثم يؤذن لهم فيختصمون ، ثم يمكثون ما شاء الله يحلفون ويجهدون ، فإذا فعلوا ذلك ختم الله على أفواههم ويأمر جوارحهم فتشهد على أعمالهم بما صنعوا ، ثم تنطق ألسنتهم فيشهدون على أنفسهم بما صنعوا ، قال : ذلك قوله ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾ وفي لفظٍ قال : إنه يوم طويلٌ فيه مواقف كثيرة ، فيأْتي عليهم

ما شاءَ الله وهم لا ينطقون ، ثم يؤذن لهم فيختصمون ، ثم يأْتي عليهم حال فيجحدون شركه ويظنون أَن ذلك ينفعهم فيختم الله على ألسنتهم ، وتنطق جوارحهم فتشهد عليهم بأَعمالهم . ثم تنطق أَلسنتهم فَتُقِر بما عملوا فلا يكتمون الله حديثاً فيقولون ﴿ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾من (٩) سورة الملك ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ كرر الوعيد تهديداً وتحذيرا .

﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ أي هو اليوم الذي يفصل الله فيه بين الخلائق ، فيجمع الله الأولين والآخرين في صعيدٍ واحد ، ويقضي بينهم ، فيأخذ للمظلوم حقه من الظالم ، وللمحق حقه من المبطل وهو يوم الفصل بين أهل الجنة وأهل النار كما قال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ ﴾سورة الشورى

﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ ﴾ فإن كان لكم حيلة تحتالون بها للنجاة مني فاحتالوا ، وهو للتبكيت والتعجيز.

وقيل المعنى : إن كان لكم قدرة على حربي فافعلوا وهم يعلمون أن لا قدرة لهم على حرب الله جل وعلا .

وقال الرازي : يشير به إلى أنهم كانوا يدفعون الحقوق عن أنفسهم بضروب الحيل والكيد فكأنه قال : فههنا إن أمكنكم أن تفعلوا مثل تلك الأفعال المنكرة من الكيد والمكر والخداع والتلبيس فافعلوا . قال : وهم يعلمون أن الحيل منقطعة والتلبيسات غير ممكنة ... فالخطاب للتخجيل والتقريع .انتهى. ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ حين يقضي بينهم الرب جل وعلا بعدله ثم يأمر بهم إلى النار .

لما ذكر المولى جل وعلا المكذبين وسوء حالهم ومآلهم في الآخرة أعقبه بذكر حال المتقين فقال ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ لا يدركهم حرٌ ولا ظمأ ولا جوع ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ في الدنيا من الأعمال الصالحة . ومعنى ﴿ هَنِيٓـًٔۢا ﴾ أي سليماً من الآفات لا يلحقكم منه أذىً من بشمٍ أو غصصٍ أو شرقةٍ أو غيرها . وقيل ﴿ هَنِيٓـًٔۢا ﴾ أي في حياتكم تلك لا يلحقكم فيها منغصاتٌ ولا مكدرات . قال عكرمة : أي لا موت .

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ أي هذا هو جزاء المحسنين عندنا في الدار الآخرة . والمحسنون هم الذين أحسنوا العمل لله فقاموا بالتوحيد والطاعات ، وتركوا الشرك والمنكرات . ومن الإحسان إكرام الضعفة

والمساكين ، وبر الوالدين ، ونحو ذلك من القربات .﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ إذ خسروا هذا النعيم وكان مئالهم الجحيم .

لما ذكر المولى جل وعلا نعيم أهل الجنة وأكلهم وشربهم وراحتهم الدائمة ، أراد أن يقنط الكفار من ذلك فقال ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ أي تمتعوا الآن في الدنيا مدة حياتكم فيها وهي قليلة بالأكل ونحوه فليس لكم في الآخرة إلا النار لأنكم مجرمون بشرككم ومعاصيكم .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ فلا نعيم لهم في الآخرة وإنما عذابٌ دائم .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ قال بن عباسٍ : يدعون يوم القيامة إلى السجود فلا يستطيعون السجود من أجل أنهم لم يكونوا يسجدون لله في الدنيا . وقال مجاهد :إذا قيل لهم صلوا لا يصلون. وقال قتادة : عليكم بإحسان الركوع فإن الصلاة من الله بمكان .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ لتركهم الفرائض والواجبات .

﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ أي بعد القران ، فإذا لم يؤمنوا بالقران على بيانه ووضوحه وإعجازه ودلائله الدالة على صدقه وأنه من عند الله جل وعلا فبأي كلامٍ يؤمنون ؟ .

من دروس سورة المرسلات

أولاً / أن لله جل وعلا أن يقسم بما شاء ، وليس للمخلوق أن يقسم إلا بالله جل وعلا . قال النبي صلى الله عليه وسلم (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)

ثانياً / أن الله جل وعلا يذكر العباد بنعمه عليهم في الدنيا ليشكروه ويحمدوه ويوحدوه ، فإذا فعلوا ذلك تفضل عليهم في الآخرة بإدخالهم جناته ودار كرامته .

ثالثاً / أن أسلوب الترغيب والترهيب أسلوب قرآني ينبغي للمربي أن يستعمله في التربية حتى تكون ناجحة .

تم تفسير (جزء تبارك) يوم الجمعة (٢٩/ ٢ / ١٤٤٢هـ) نسأل الله جل وعلا أن ينفعنا به .